

بَابَرُ

فى السادس عشر من شهر المحرم عام ٨٨٨ هـ / ١٤ فبراير ١٤٨٣ م بعث عمر شيخ ميرزا صاحب فرغانة برسله إلى مغولستان لتزف إلى صهره يونس ، خان المغول ، بشرى مولد حفيد له من ابنته قتلغ نىكار خانيم ^(١) .

وأطلق الزاهد الولى ، مولانا منير مرغينانى ، على الوليد اسم ظهير الدين محمد ، حتى إذا ما صعب التلفظ بهذا الاسم على عشيرته من الأتراك والمغول الجغتائين ، وكانت عامتهم ما تزال على عجمتها ، أطلقوا عليه من عندهم لقب بابر ، وهو الذى اشتهر به فى التاريخ وعرفه الناس به .

وفى عروق بابر امتزجت دماء الأتراك بدماء المغول ، فأبوه عمر شيخ ميرزا ، حفيد تيمورلنك التركى ، وأمه هى ابنة يونس

١ — بابر نامه ورقة ١ . هذا ولقب خانيم معناه ابنة الخان أو زوجته . وقد
يُف هذا التفظ إلى كلمة « حاتم » الشائعة فى الشرق . وتظيره لقب يكيم أى
الأمير (الملك) أو ابنته ، والفظ ييجوم الشائع بالهند هو تحريف له .

خان مغولستان وحفيد چغتای ثانی أبناء چنگیز خان (١) .
ولقد أدت بصاحب فرغانة أطباءه إلى قضاء أغلب عمره في
محاربة جيرانه، حتى انتهى الأمر إلى تحالف أخيه أحمد میرزا صاحب
سمرقند، مع صهره محمود، خان طشقند، على غزوه في فرغانة نفسها .
وحدث أن هوى عمر شيخ میرزا إلى الأرض من أعلى
حصن له بأخشي حيث كان يتفقد حاتم له هناك ، فلم يصرف
موته المعاجيء هذا خصومه عن فرغانة حيث خلفه بها ابنه الصبي
بابر الذي لم يكن يتجاوز الثانية عشرة من عمره ، فاستيقنوها
فرصة موأتية لانتهاب الميراث كله .

ولم ينفع الفتى الصغير ما بذل رجاله من جهود لحمل خصوم
أبيه . من ذوى قرباه، على الرجوع عن بلاده ، لكن الأقدار
اسعفته من بعد ذلك إذ غرق كثير من دواب صاحب سمرقند

١ — ينفر بابر من ذكر المغول نفوراً شديداً أثبتته بأكثر من موضع بغيرته
التي كتبها بنفسه (بارتنامه ورقة ٩٠) ، ويعتز بتركه اعترافاً شديداً ، ومع
هذا فقد نسبت دولته الهندية إلى المغول ، إذ كان الهنود قد درجوا منذ قدم
جنگیزخان إليهم على إطلاق اسم المغول على كل الفزاة الذين وفدوا إليهم من بلاد ماوراء
النهر من بعد ، كما صار هذا اللفظ بناءً مدلولاً على الأبهة وضخامة الأجسام بصرف
النظر عن الجنس . هذا وقد ألفتنا بالنسكاتب فصلاً عن الترك والمغول يجل تاريخهم
ودورهم في العالم الإسلامي .

انتحار أحد جسورنهر قبا وتفشى الوباء في خيوله ففنع بالهدنة مع ابن أخيه وآب إلى دياره . وكذلك فعل خاله صاحب طشقند حين حاصر مدينة أخشي فاستعصت عليه ، واعتلت صحته فقرر بدوره الرحيل إلى بلاده .

ودفع جند فرغانة عن أراضيهم كذلك الأمير أبا بكر ، صاحب فسخروخستن ، وكان قد قدم بدوره ينشد غنما .

ومات السلطان أحمد ميرزا بعد قليل خلفه على عرش سمرقند أخوه محمود ميرزا الذي كان قد وسّع من رقعة أراضي ياقليم حصار حتى بلغت حدوده الهندكوش وضمت الصاغانيان وبلاد الختل وبدخشان .

وبرغم أن الحياة لم تطل بسلطان سمرقند الجديد ، فإن الأهلين عانوا كثيرا في حكمه لما اتسم به من الظلم وما ذهب إليه جنده من انتهاب الدور وسلب الأموال وانتهاك الحرمات .

انقشع عن السلطان الفتى بابر أكبر خطر كان يتهدهده بموت عميه أحمد ميرزا ومحمود ميرزا ، فلم يكد يسترد جانباً كبيراً من أملاك أبيه الضائعة حول فرغانة ، حتى ضم إليه كذلك سمرقند ، حاضرة جده تيمورلنك القديمة ، بعد أن انتزعها من أيدي بايسنغر ميرزا ابن عمه محمود في مستهل عام ٩٠٣ هـ .

وبقى بابر مائة يوم بسمرقند أعظم مدن بلاد ما وراء النهر
التي تزخر بآثار التيموريين الفخمة ، ومنها مسجد مزار شاه الذي
أقيم حول مقام الصحابي قثم بن عباس ، فاتح المدينة في خلافة عثمان
ابن عفان ، والذي جلب له خيرة الصنائع ومواد البناء من فارس
والهند ، والقلعة التي تزدان بتصاوير حروب تيمور في الهند ، ثم
مدرسة الخبث بك ومرصده اللذان ذاع صيتهما في العالم الإسلامي^(١) .
ثم خرج بابر من سمرقند ليقضى على ما أثاره أخوه جهانكير
ورجائه من الفتن بفرغانة ، فانتز على ميرزا صاحب بخارى هذه
الفرصة وزحف إلى سمرقند فحزم حاميتها واستولى عليها .
وإذ أتيح لبابر أن يستولى على سمرقند من جديد ، وكانت
وقتذاك في حوزة الأوزبك الذين كانوا قد دخلوها بعد أن
غزروا بسلطانها وأمه ، فإن شيباني خان الأوزبك لم يسكت
عنه حتى أخرجه منها بعد شهر قليلة .
وتمكن من بابر اليأس حين رأى أغاب جنده ينقض عنه

١ — يصف بابر في سيرته لأثير سمرقند وصفا دقيقا مفصلا . فيتحدث عن
موقعه الجغرافي وما يتصل به من حاصلات وما به من صناعات ، ويشير إلى تأريخه وأول دخول
الإسلام فيه ومن ظهر به من العلماء ومشاهير الرجال ومن حكمه من آباء تيمور .
بابر نامه ورقة ٤٤ ب وما بعدها .

نوى قرباه يعرضون عنه حين استنجد بهم . ففقد العزم على
هجرة إلى إقليم خيطان عند الصين الشمالية ، مبتعدا عن بلاد
، راء النهر كلها وما أصابه بها من أهوال ومتاعب .
ولم يُغن بابر فتيلًا ما أمده به خاله المغوليان : أحمد ، خان
بغوستان ، ومحمود ، خان طشقند ، من جند ، حتى قدم إليه كل منهما
نفسه . ذلك أن خان الأوزبك لم يكتف بما أنزله من هزيمة بهذا
الجند عند الجنوب من طشقند ، حتى أوقع الخائنين المغوليين ^(١)
في أسره ثم انتقل من بعد ذلك يطارد بابر في عنف متواصل حتى
حمله على النزوح من بلاد ما وراء النهر كلها آخر الأمر .

في أرض كابل وغزنة : ظل بابر بعد أن أفلت من أيدي
شيباني خان الأوزبك ، يضرب مدة على غير هدى في منطقة
تلال أسفرا ، التي تفصل فرغانة عن إقليم حصار ، حتى تغلب
طموحه على نوازع اليأس في نفسه فحزم أمره على المسير إلى
خراسان لعله يصيب حظا طيبا عند ابن عمه السلطان حسين
بيقرا . لذا فادر فرغانة في المحرم من عام ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م وهو
في مستهل العام الثالث والعشرين من عمره ، ورجاله دون الثلاثمائة ،

فما إن بلغ إقليم حصار وتخطاه صوب الجنوب حتى أقبل عليه خسرو شاه صاحب حصار بقواته وجموع من عشائر الأبل والأولوس الهاربين من وجه الأوزبك فانضموا جميعا إليه .

ورأى بابر القوم من حوله في رعب وهلع خوف الأوزبك ، وتردد شديد في المسير إليهم ، فأثر أن لا يغامر بما اجتمع له من الجند والمال بالاشتباك مع عدوة من جديد .

ولئن غدت بلاد ما وراء النهر كلها بأيدي الأوزبك ، وهذى خراسان يحكمها سلطان قوى هو حسين بيقرا ، وهو محط أنظار شيباني خان ، الأوزبك ، وهدفه التالي في الغالب ، فإن أرض كابل وغزنة — فضلا عن بعدها عن موطن العراق وقتذاك — قد أخذت الفوضى تعمها حين توفي سلطانها الغ بگ بن السلطان أبي سعيد ميرزا . ويسر اضطراب الأحوال في هذه البلاد لبا بر امتلاكها عام ٩١٠ هـ ، دون إراقة دماء ، بعد أن ضمن لال أرغون ، أولى الأمر فيها إذ ذاك ، الأمان في قندهار (١) .

وهذان الإقليمان ، أى كابل وغزنه ، كانا يشغلان مساحة كبيرة من بلاد الأفغان الحالية (٢) . وتقوم مدينة كابل به وسط

١ — حبيب السير رابع ٣٠٨

٢ — هذه التسمية من مصطلحات العصور الحديثة فكان هذه البلاد ==

حدائق ومروج خضراء ، وإقليمها صعب المسالك والدروب ،
إلا أن توسطه بين الهند وخراسان قد ساعد على رواج
مركزه التجاري .

ويشتهر الإقليمان بوفرة الفواكه والحاصلات ، وطيب المناخ
في المنخفضات في الوقت الذي يكسو الثلج فيه مرتفعاتها شتاء
وفيهما قامت دول إسلامية قوية مهمة مثل الغزنويين والغوريين .
وأدت ضآلة رقعته بالنسبة لأراضى جيرانه الفسيحة إلى طمع
أصحابه في الغالب فيما يجاورهم من أراضين ، فاندحدروا إلى سهول
الهندستان ومراعى خراسان وفارس مرات متكررة في التاريخ .
خيّل لباير أن الأمر قد استقر له في مقامه الجديد حتى
انطلق ، بعد أن فرغ من تنظيم شئون دولته الجديدة ، في غزوات
خفيفة لمشارف الهندستان ومنازل الخليجيين لينتهى من بعد ذلك

== كانوا ينتمون في الواقع إلى قبائل وأجناس مختلفة من فرس ومنول وترك وعرب ، ومن
هذا القبائل الخزب والكودري ، ثم الأفغان ، ومنهم يوسف زى والأفريدى والبطهاند
الذين كانت مواطنهم بمنطقة التلال فيما بين كابل وبشاور . والمعروف من تاريخ هذه
البلاد ، على غموض ماضيها ، أن السلوقيين الأغريق والمهون والهنود والفرس ثم العرب
والصفاريين والسمانيين والغزنويين والنوريين تداولوا الحكم فيها ، كما استولى عليها
تيمورلنك فلبثت في حوزة أبنائه عدة قرون .

إلى الإستيلاء على قندهار .

على أن الأخبار وافته بخروج شيباني خان من سمرقند في
خمسين ألفا من الجند أو آخر عام ٩١٢ هـ / ١٥٠٧ م ، اقتحم بهم
خراسان على أبناء السلطان حسين بيقرا فأعمل السيف في نفر
منهم وسبي نساءهم . وأطلق لجنده بلادهم كلها فانتهبوها وقتلوا
كثيرا من أهلها وفيهم صفوة من العلماء والوجوه^(١) ، ثم استدار
بهم من بعد ذلك فطاردهم من مرو حتى بلغ قندهار وأخذ يطرق
على بابر أبواب ملجئة بأرض كابل طرقا عنيفا حتى ظن أن
لا عاصم له منه إلا أن يلوذ بالهند ، فأجمع ورجاله أمرهم بينهم على
الالتجاء إليها .

فهاهم الأمراء التيموريون قد أخرجوا جميعا من بلاد ما وراء
النهر ، وهاهم الأتراك الچغتائيون قد صاروا جميعا في نطاق
دولة الأوزبك خوفا أو طمعا . ولئن كان بابر قد قُدر له أن
يُفْلِت من برائن الخان الأوزبكي ، فإنه وهو في عزلة بكابل
أضعف شأنا وأقلّ جندا من أن يواجه هذا العدو القوي الذي
لا يرتضى مهادة أو يقبل مسالمة .

وشاءت الأقدار أن تهدي من روع بابر، إذ اضطُر الأمير الأوزبكي شيباني إلى الارتداد عن قندهار سريعا، على أثر ما بلغه من مباغطة بعض الثوار في خراسان لحسن نيره تو عند هرات وكان فيه نساؤه وأمواله^(١). ليشتبك من بعد ذلك في صراع عنيف مع شاه الفرس.

ذلك أن شيباني خان كان قد بعث في عام ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م إلى الشاه إسماعيل الصفوي يهدده باجتياح بلاده إن لم يعدل عن مذهب التشيع ويمسك عن حمل الناس عليه قهرا. حتى إذا ما بعث إسماعيل صاحب فارس إلى خان الأوزبكي يسأله في لطف أن يمنع جنده من التسرب إلى أراضيّه عند الجنوب من خراسان وكرمان وبوقف اعتداءاتهم وما يمارسونه من أعمال السلب والنهب، فردّ عليه الأخير برسالة ملأها بالتعريض به حتى يخز منه في ادعائه ملكا لم يرثه، وطواها على عكازة وطبق كميز من البوص هما عُدّة الدراويش^(٢)، فكانت الحرب.

١ — لم يمض بابر إلا القليل بكابل بعد عودته إليها حتى رزق بابنه هايون في أواخر عام ٩١٣ هـ — ٥٠٨ م. وفي هذه الأثناء اتخذ لنفسه لقب البادشاه الذي لم يحلّا خدمن الأمراء التيموريين من قبله إذ كانوا لا يعرفون إلا لقب ميرزا. بابر نامه ورقه ٢١، ٢ — أراد بذلك أن يعرض بابي إسماعيل إذ كان درویشا، وقد رد عليه الشاه =

وتوغل الشاه الصفوى فى خراسان ودخل مشهد واقتحم هرات ،
حتى إذا بلغ مرو فامتنع بها شيبانى خان عليه ، عمدا إلى خدعة كان
فيها هلاك الخان الاوزبكى وقواته . فقد استدار بجيشه فى اتجاه
العراق حتى ظن أنه الرحيل والجلء ، فكمن على مسيرة عشرة
أميال من المدينة ، وحين خرج فى أثره شيبانى خان فى عشرين ألفا
من الجند ، مطاردا ، وقع فى الكمين الفارسى ولاقى وقواده حتفهم فيه .
ولم يرجع إسماعيل الصفوى عن قتال أعدائه حتى خضعت له
جميع خراسان وصار نهر جيحون هو الحد الفاصل بينه وبينهم .

عود إلى سمرقند : بعثت هزيمة الاوزبك واندحارهم على أيدي
الفرس الآمال العريضة فى نفس بابر ، وبات يبنى النفس
باسترداد بلاد آبائه والعودة إليها . وقوى من عزيمته دعوة البدخشانيين
له بالسير إليهم ، وقدوم سفراء الشاه الصفوى إليه ومعهم رسالة
ودّ من سيدهم وفى صحبتهم خازناده بيكيم أخت بابر ، وكانت قد
وقعت . يدى شيبانى خان بسمرقند . وأمدّ شاه فارس نفسه من
بعد ذلك بابر بجيش قوى فتوغل به فى بلاد ما وراء النهر حتى

== الصفوى ، الذى كان يعتز بانتسابه إلى أبناء فاطمة البتول ، بأن الرفعة لا تورث وأن
الملك لا ينتقل كذلك بالوراثة فى اطراد ، وإلا صار من البشدداء إلى الكيانين
ولما أوتيه جنكيزخان . . . تاريخ فرشته أول ص ٢٠٠ .

سقطت بأيديه بخارى ودخل سمرقند فـخـطـب له من منابرها
منتصف رجب من عام ٩١٧ هـ / ١٥١١ م .
على أن بابر لم يكسد يمضى أشهر قلائل بسمرقند ، بعد أ
صرف عنه جند الفرس ، حتى تمكن محمود تيمور بن شيبانى خ
من استرداد بخارى وإنزال هزيمة قاصمة بجنده بظاهر سمرقند
فاستصرخ من بعد ذلك الشاه اسماعيل الصفوى من جديد ، فبع
إليه بقائده أمير يار أحمد اصفهاني الذي باغ من عنفه أن أ
بإنزال مذبحة مروعة بسكان مدينة قرشي ، حين وقع
بأيديه ، فقتل منهم خمسة عشر الفا فيهم نخبة من علماء الس
والأعيان . (١)

هنالك تراءى للأوزبك ومعهم الأهلون مدى ما يتهددهم
الخطر في توغل جند القزلباش (أصحاب القلانيس الجراء
الفرس ، فجمعوا جمعوعهم عند غجدوان واشتبكوا مع أعدائهم
قتال مرير انتهى في رمضان من عام ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م بهزيمة الفر
ومقتل قائدهم أحمد اصفهاني المعروف بنجم ثاني (٢) .
وبرغم ارتداد بابر إلى إقليم حصار من بعد ذلك دون خسار

١ — تاريخ فرشته أول من ٢٥١ .

٢ — مآثر الأمراء أول ٤٠٩ .

تذكر ، إذ كانت الصدمة كلها من نصيب الفرس ، فقد رأى أن سكان هذه البلاد الذين رحبوا به بالأمر ، حتى أمكن له استرداد أكثر أراضي السابقة ، وفيها بخارى وسمرقند ، قد انقلبوا اليوم فأصبحوا له جسد كارهون لارتهائه في أحضان الفرس الذين لم يتورعوا في سبيل نشر مذهبهم وحمل الناس عليه قسرا ، عن إنزال المذابح بالسكان والقضاء على فريق كبير من الفقهاء والعلماء السُنيين في قرشي على الخصوص ، ^١ فانهارت آماله ببلاد ماوراء النهر كلها ، وقفل راجعا إلى كابل ، ليولى وجهه بعد قليل صوب البنجاب والهندستان التي سار إليها أجداده من قبل ، والتي غدت مسرحا للاضطرابات والفوضى في ظل

١ — يشيد مؤرخو الفرس عموما بالشاء الصفوي ولكنهم ينكرون عليه عطفه في سبيل نشر مذهب التشيع . (تاريخ عمومي إيران ص ٢٥٨) . والمعروف أن بابر حاول جهده أن يجعل القائد الفارسي على العُدول عن هذه المذاهب ولكنه لم يوفق . وكان مما أخذه الناس على بابر ارتدائه لزي الفرس العسكرية . هذا وقد بلغ الأوزبك من النفوذ وسعة الرقعة أن صار دوق موسكو لا يبرأ منهم ويلزم بدفع الجزية لهم ، فلو لا تآمر أمراء المسلمين فيما بينهم إذ ذاك — من الفرس والعثمانيين الأوزبك والمصريين — لتأخر قيام روسيا التي أدى ظهورها إلى إضعاف قوة المسلمين في الدولة العثمانية وفرنس ، وانتهى بضياع بلاد الأوزبك كلها وفيها بخارى وسمرقند والتركستان . وخضوع أربعين مليوناً من المسلمين لجسوروت قياصرة الروس واستبدادهم .

حكومة! ضعيفة مقطعة الأوصال ، وهى بثرواتها واتساع رق
أصلح مكان لتحقيق حلمه الكبير! فى إقامه دولة كبيرة له على كل حا

فتح الهندستان : لم يكن للهندستان حين أقبل عليها بابرغا
أوائل القرن العاشر الهجرى شىء من تلك الوحدة المتماسكة
شهدتها أيام كبار الغزنويين ومن خلفهم عليها من أمثال ش
الدين الغورى وقواده وعلاء الدين الخلاجى وغيث ال
تغللق .

ولقد حاول السلاطين اللودهيون الأفغان ، فى أعقاب ال
التيهورى ، أن يستعيدوا هذه البلاد سابق مجدها . فصادف
منهم التوفيق ، فأتيح ليهلول لودهى - مثلاً - أن يسترد حدود
دهلى القديمة ويبسط نفوذه على كافة الرقعة الممتدة بين إقليم
فى الشرق وأقصى الپنجاب فى الغرب : ثم خلفه ابنه اسكند
بعده فأضاف إلى بلاده منطقة الدوآب وأخضع لسلطانه أ
الراجپوتانا ووثق من علاقته بحكام البنغال .

وكان عمال دهلى على ولاياتها ، عند اللودهيين ، من الأ
الأفغان من قبائل لودهى وفردولى ولوحانى . وكانوا جميعا يدر
أن الدولة إنما قامت بسيوخهم ورجالهم ، فناصرهم ، والحالة

ليست بمنحة من سلطان دهلي أو هبة منه ، فهي حقهم الثابت الطبيعي معه بعد أن نصره وأقرو له بزعامته عليهم ، وفيما دون ذلك فهم أنداد يتساوون معه في الحقوق والواجبات .

وحين خلف السلطان إبراهيم أباه سكندر قال إلى أمتهان أمرائه والانتقاص من حقوقهم حتى ركب طريق العنف معهم ، فجمعوا أمرهم على التراجع عن بلاطه إلى ولاياتهم ليثيروا فتنة عارمة عليه بأوده وجونپور وبهار ويصرحوا بخروجهم على سلطانه .

وما غدت البنغال وما لوه والگجرات أن قطعت بدورها علاقاتها مع العاصمة ، وراح رانا سنگا ، صاحب اُدایپور ، وأقوى أمراء الهادكة في زمنه ، ينزعم أمراء الراجپوتانا على حاف عقدوه فيما بينهم بغية القضاء على سلطان المسلمين في الهند كلها واستعادة آجناد أجدادهم الغابرة (١) .

وانتهى استبداد إبراهيم اللودهي بأمرائه إلى أن انطلق فريق

١ — كانت امارات الدكن الإسلامية بدورها مستقلة عن نفوذ دهلي ، في حين استطاع آل أرغون ، بعد أن أخرجهم باير من قندهار ، أن يضعوا أيديهم على ولاية سند والمثلان ويتزعروها من أيدي أصحابها الخابجين . Prasad. Muslim Rule . pp 258-60

من كبارهم ، وفيهم دولتخان لودهى أمير البنجاب وعلاء الدين علم خان عم السلطان ، يستنجسدون ببابر فى كابل ويحرضونه على دخول الهند ومعاونتهم فى إنزال سلطان دهلى عن عرشه .

ما يفتأ ظهير الدين محمد بابر يردد القول ، فى سيرة ته أنه منذ أن استقر به للمقام فى كابل كان يعتزم التوجه إلى الهندستان ، وذلك قبل أن يشرع فى فتحه الحقيقى لها ، فتمضلا عما كان لجده السلطان أبى سعيد من أملاك عند أطراف البنجاب والسند ، كان يرى فى نفسه الورث الشرعى لها حتى بعث إلى السلطان اللودهى إبراهيم صاحب دهلى يطالبه بها . فقد تحقق لديه استحالة استرداد بلاد ما وراء النهر عليه بعد أن ثبت الأوزبك أقداهم بها ، وبات الصفويون أعدائهم وحلفاؤه يسيطرون على خراسان وما حولها .

ولقد أتى بابر أن ينحدر من الهند كوش إلى مشارف البنجاب وسهولة القرية فى غزوتين ناجحتين بلغ بهما بهيرة وآب منها بكثير من الأسلاب والغنائم وبقدر طيب من المعلومات المفيدة عن الهند وأهلها وشاربها ، وأحوال حكومتها قبل كل شىء . حتى إذا ما استعداه بعض أمرائها على سلطانهم خرج إليها فى غزوتين أخرتين بلغ فى أولاهما لاهور قصبة البنجاب ودخل فى الثمانية

أُكْرِجَ عَلَى عَرْشِ الْهِنْدِ وَأُقَامَ بِهَا دَوْلَتُهُ. (١)

غزو بهرة : خرج بابر من حاضرتِه كابل في الحرّم من عام ٩٢٥ هـ / ١٥١٩ م فسلّك طريق بشار فاجتاح حصن بچور على حاميتِه برغم استبسالها الذي كلفها ثلاثة آلاف من الأرواح (٢) حتى إذا ما عبر نيلاب وجهلم من روافد السند أقبل عليه زعماء القبائل هناك يعلنون ولاءهم له ، فبسط بذلك نفوذه على مناطق جيتاب وخوشاب جينوت ، وكانت جميعها من أملاك التيموريين السابقة ، ثم عبر الحاجز الملحى إلى بيرة فاستسلم له أهلها على جزية كبيرة دون قتال .

هنالك نصّح له رجاله أن يصالح سلطان دهلي على ردّ جميع أملاك التيموريين بالهينجاب إليه ويعود إلى بلاده .

وحمل بابر على قبول هذا الرأى ما لا حظّه من ضيق رجاله بحرّ الهند اللافح ، وإن كان أمير الهينجاب قد حبس رسوله إلى دهلي

١ — يقدر بعض المؤرخين غزوات بابر الهندية بنفوس ، فمنهم من يدخل في حسابه محوله عند مشارف الهينجاب الاستثنائي عام ٩١٠ هـ ، ومنهم من يضيف إليه خروجه إلى بشار لتأديب القبائل الخارجة عليه .

٢ — رآى رجاء هذا الحصن النفاق لأول مرة فراحوا يسخرون من أعدائهم وهم يشعلونها . حتى إذا ما انطلقت الأصوات الكثيرة منهم بلغ الخوف منهم مبالغته . بابرنامه ورقة ٢١٧ .

عنده فلا هو أطلقه إلى غايته ولا هو رده إلى بلاده .
على أن بابر لم يكدم يمشى بكابل شهرا واحدا ، بعد أن عاد إليها ،
حتى ارتد إليه نائبه على بهيرة ، وما حولها لخروج الهنود ^(١) والأفغان
عليه وعجزه في قواته القليلة عن القضاء على عصيانهم .
وأدى إلى تعويق خروج الإبادشاه إلى البنجاب من جديد ما كان
من خروج بعض قبائل الأفغان عليه ببلاده حتى انتهى إلى تعزيز
حصون بشور^(٢) بحاميات قوية تستطيع السيطرة على منازل الأفریدی
والوزيری ^(٣) وخضمر خيل فيما حولها . على أنه لم يكدم يباغ مشارف
بهيرة من جديد عام ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠ م حتى بلغه انقضاء شاه بيك
أرغون على قندهار وإعماله السلب والنهب فيما حولها من أرضين ،
فارتد إليه من فوره فأخرجه منها ونصّب عليها ثاني أبنائه كامران ،
كما تم له كذلك الاستيلاء على بدخشان فأقام عاها ابنه الأكبر همايون .
حتى إذا ما تم له ذلك كله وتوطد الأمن في ربوع بلاده . فوفد
إليه رسل الأمراء الأفغان اللودهيين يستنجدون به من طغيان

١ — نطلق لفظ الهنود في هذا الكتاب على المسادين من أهل البلاد ، غير الهنالك
الذين بقوا على ملة آبائهم .

٢ — لهذه القبائل صفحات بطولة مشهودة . حين ردت البريطانيين عن دخول بلادهم
بطريق الهند . حاضر العالم الإسلامي ثان من ١٩٨ — ٢١٤ .

سلطانهم صاحب دهلي (١) طفق يعد العدة لغزوة هندية كبرى انتهت بالقتلثة على أجزاء كبيرة من البنجاب ودخول عاصمته لاهور. الپادشاه فى لاهور : لم يكن بابر لىتردد عن المسير إلى أرض الهند من جديد وقد تكشف له فى غزواته السابقة مدى ما عليه هذه البلاد من الثراء الكثير وما يتيحه له ترامى رقعته وضعف حكومتها من فرصة موالية لإقامة دولة كبيرة له ، وها هم بعض أهلها يدعونه إليهم ويخالفونه على سلطانهم .

هكذا خرج بابر من كابل فى مستهل عام ٩٢٠هـ / ١٥٢٤م . فما إن أشرف على لاهور حتى التقى بجيش قوى لدهلي فهزمه ودخل المدينة الكبيرة من بعد ذلك فأباحها لجنده أربعة أيام وأشعل النيران فى أبنيتها وأسواقها (٢) ، ثم اتجه من بعد ذلك إلى دپالپور فاستولى عليها بعد أن أنزل بجاعتها مذبحة بشعة .

ولحق بالپادشاه فى دپالپور دولتخان أمير البنجاب ، الذى كان استنصره على السلطان اللودهى من قبل ، فما له ما استبان له من سعيه لتثبيت أقدامه فيما استولى عليه من أرضين حتى أقام فريقا من رجاله على شئونهما ، وكان الظن أنه ما يلبث ، حين يتم له دحر

١ — منتخب التواريخ لبدائى ص ٣٣ .

٢ — Lane - Pool . India p 209

عدوه ، أن يؤوب قريبا إلى بلاده ويترك الهند لحلفائه من أهلها ،
فما غدا حين لمس إهمال بابر له أن انطلق وأولاده يتآمرون
بصاحب كابل وقواته حتى كادوا يوقعون بهم . وقد انتهى أمر
المتآمرين جميعا إلى الحبس بعد أن انكشف أمرهم .

واتخذ بابر من بعد ذلك طريقه إلى دهلي . حتى إذا ما انتهى
إليه خبر فرار دولتخان وابنه غازي خان من محبسهما ، بادر
من فوره بالارتداد إلى لاهور خوفا من قطع خط الرجمة عليه وعلى
قواته . ليرغمه ظهور الأوزبك عند بلخ من بعد ذلك على العودة
إلى كابل ، وإن ترك بالپنجاب حامية قوية من رجاله كفلت له إقرار
الأمور هناك ودفعته عن عاصمة الإقليم قوات دولتخان
وأنزلت بها هزيمة شديدة .

وغازط دولتخان ما رآه من حفاوة بابر بعلام الدين علم خان
عم سلطان لودهي حتى ولّاه دپاپور ، ثم أمده بالجند الكثير حين
قصد إليه في مقامه بكابل وأمر قواده بلاهور أن يسيروا معه إلى
دهلي فإذا دخلوها أجلسوه على عرشها ، فما زال يَحْتال على الأمير
اللودهي حتى انقاد له وقبل صحبته في زحفه إلى عاصمة الهند ضاربا
عرض الحائط بتحذير قادة الپادشاه في لاهور له منه . وقد تصدى
لهم السلطان اللودهي عند ظاهر دهلي وأنزل بهم في الليل هزيمة

حاصمة تشقت على أثرها شملهم حتى التمس فريق كبير من القادة مخبئ لهم في الجبال في حين أثر فريق آخر المبادرة بالانضمام إلى قوات ددلي .

واقعة بانى پُنت : لم يكذب أبير يؤمن مؤخرته عند بانخ من خطر الأوزبكت ، حتى طفق بعد العدة ليلم ما بداؤه من فتوحه الهندية معتمدا على قواته وحدها هذه المرة ليس غير .

نفرج من كابل في صفر من عام ١٥٣٢/١٥٢٥ م في غزوة الفتح آخر غزاه الهندية وأعظمها ، فقد تم له في القضاء على ملك اللودهيين والجلوس على عرشهم في آگرا ليمسقط نفوذه من بعد ذلك على الشمال الهندي ويمارس حكمه حتى توافيه المنية به .

واجتمع لبادشاه كابل اثنا عشر ألفا من الجند عبر بهم السند ، حتى إذا بانخ شاطيء جهلم بعث إلى قواده بلاهور ليوافوه بمقامه ، بعد ما بلغه من أمر دولتخان مع الأمير اللودهي علاء الدين علم خان وزعمهما معا إلى دهلي وهزيمتهما من بعد ذلك . ولم يشأ أبير أن يواصل زحفه إلى غايته قبل أن يؤمن خطوطه من أي غدر قد تتعرض له ، فبعث بفريق من قواته ، فما زالت بدولتخان وأولاده حتى أوقعتهم في الأسر ، ليدخل أبير من بعد ذلك معقل هدوة في حصن « ملوت » ويستولى على ما له به من

أموال وذخائر^(١) .

وما غدا أمير البنجاب السابق أن قضى فى محبسه بقلعة بهيرة
بعد قليل .

وحين اطمأن الجيش الفاتح إلى تأمين خطوطه فى البنجاب
واصل به قائده السير حتى بلغوا نهر چمنة فنزلوا فى مواجهة
بلدة «سرساوه» وبعثوا بكثافتهم ليستطلعوا لهم مواقع العدو
وينسقطوا أخباره .

هناك استقر رأى بين القادة الباريين على دخول المعركة
القاصلة مغ عدوهم ، فعبأوا قواتهم وفق تشكيلات العثمانيين^(٢) ،
فربطت عربات الحرب بالسلاسل وأربطة الجلد جنباً إلى جنب
تخللها التورات^(٣) ، واصطف حملة البنادق من ورائها ، ثم
زحف الجمع إلى پانى پت حيث معسكر السلطان إبراهيم اللودهى
فنزلوا بظاهرها فى آخر جمادى الثانية من عام ٩٣٢ هـ ، فجعلوا
المدينة إلى يمينهم وألقوا بعربات الحرب فى الجهة ومن ورائها

١ — استولى بار فى هذا الحصن على مجموعة كتب قيمة كبيرة ، فاحتفظ لنفسه
بشم منها وأهدى الباقي ابنه هايون . أكبر شاه ورقة ٣٩ ب

٢ — باير ٢٦٤ (١) .

٣ — التورة هى جنة دروع تصنع على هيئة نسج السلال من الخسك والنصون لتقى
رجال البنادق من السهام .

المدفع وحملة البنادق والفرسان ، في حين حُفرت الخنادق وأقيمت المتاريس إلى مبصرة الجهة وقد تدرّكت بها ثغرات . تسمح لمائة من الجند ، أو ما يزيد عليهم ، بالبروز للقتال منها .

وهكذا كان على بابر وقواته ، التي لم تكن تعدوا اثني عشر ألفا ، أن تنازل ، في هذا الميدان الذي طالما تقرر فيه مصير الهند من قبل ، جيش السلطان اللودهي الذي كان يصل إلى المائة ألف من الجند ندّا ومعها ألف من الأفيال .

ولم يمض على هذه القوات بهذا المكان أيام ثمانية حتى التحمت معا في قتال عنيف أفاحت فيه فرق المناوشة عند جناحي الجيش المهاجم . آخر الأمر ، في أن تفصل مؤخرة عدوها عن ساقته ، ثم ما زالت تقذفها بوابل من سهامها حتى أخرجتها من الميدان ، في حين أطبق رجال الجهة الوسطى ومعهم حملة البنادق وأصحاب المدافع ^(١) على قلب جيش دهلي ، فلم ينته اليوم حتى قضى الپادشاه على قوات عدوه قضاء هبرما ، وسقط في الميدان خمسون ألف قتيل توسطهم السلطان إبراهيم اللودهي

١ — لم يكن عند بابر أول أمره إلا مدفع واحد وكان لا يتأق إلا مائة قذيفة في اليوم الواحد ، ويستغرق تعبته مدة طويلة . بابر نامه ١٣٧ .

صريعا (١) .

هنالك بادر الپادشاه المنتصر بتسبير فريق من رجاله إلى دهلى ومعهم قاضيه الشيخ زين الخرافى فدعوا له على منابرها فى منتصف رجب من عام ٩٢٣/١٥٢٦ م ، ووصلوا فقراءها بقدر من المال هبة منه إليهم ، فى حين وجه ابنه همايون مع نفر آخرين من قاداته إلى آگرا مقر اللودهيين ومثابة أموالهم وكنوزهم .

على عرش آگرا : دخل بابر قلعة آگرا وجلس على عرش اللودهيين بها فى التاسع والعشرين من شهر رجب عام ٩٢٢ هـ ، فكان ثالث غاز مسلم يتوغل فى أرض الهند ويعد من بين أعظم سلاطينها .

وأول هؤلاء السلاطين الغزاة هو «محمود الغزنوى» ، وثانيهم هو «شهاب الدين الغورى» . ولم يكن الحكام المسلمون الذين خلفوا هذين العاهلين فى حكم هذه البلاد إلا من أبنائهم وقوادهم ومواليهم فى الغالب .

ويتميز بابر عن سلفيه بفرط الجرأة والإقدام . ذلك أن

تمهود الغزنوى ، حين أقبل على الهد غازيا ، كان له ملك سمرقند وبلاد ما وراء النهر كلها وخراسان وفارس ، كما كان له من الجند ما يتجاوز عددهم المائة ألف بكثير ، ومن الحببة ما ضمن له تأمين مؤخرته وحدوده وأوقع الرعب في قلوب أعدائه قبل لغائه . كذلك كان للسلطان الغورى في زحفه على الهند مائة وعشرون ألفا من الجند . كما كان حكم خراسان كذلك في أمرته .

في حين لم يتيسر لبابر في عزوة الفتح الهندية إلا أنسا عشر ألفا من الجنود ، وموارده ضئيلة . وأرضه ضيقة الرقعة ، والأوزبك ما يزالون ببلاد ما وراء النهر عند مؤخرته يتربصون به . فواجه جموع الهند الكثيفة ذات الثراء العريض في طموح وإصرار وعزم ليسجل بانتصاره عليها . من بعد ذلك . صفحة من أروع صفحات المغامرات في التاريخ .

وإلى جانب سلطنة دهللي التي تربع بابر على عرشها في آكرا ، والتي كانت تمتد من البنجاب إلى بهار وتضم معها إقليم جوڤنپور ، كان بالهند أربع إمارات كبرى إسلامية وأخرتان هندوكيمان ، عدا إمارات عدة أخرى صغيرة متناثرة هنا وهناك . وأول هذه الإمارات هي الكنجرات باب التجارة الهندية الألبى ،

يُكُنَّ يَحْكُمُهَا بَيْتُ مَظْفَرِ شَاهٍ . وَبِلَيْهَا إِمَارَةُ بَهْمَنِ الدَّكْنِيَّةِ وَهِيَ الَّتِي
نَسَاها الْأَمِيرُ حَسَنُ گَنَگُوِي بَهْمَنِ شَاهٍ ، ثُمَّ إِمَارَةُ مَالُوهُ أَوْ مَانْدُو
يُكُنَّ عِنْدَهَا أَمْرَاءُ مِنْ بَيْتِ الْخُلَعَاءِ بَيْنَ : وَالسُّغَلِ وَقَدْ حَكَمَهَا نَصَرَتْ
شَاهُ وَأَوْلَاذَهُ (١)

أَسَا إِمَارَاتِ الْهِنْدُوكِيَّةِ نَكَانَ أَكْبَرَهُمَا اثْنَتَانِ هُمَا قِيَايَا نَگَرِ
وَمَسَوَارِ . وَكَانَ يَحْكُمُ الْأَوَّلَى رَاجَا كَرَشَنَدُوا . فِي حِينِ
كَانَ يَقُومُ عَلَى الثَّانِيَةِ رَانَا سَنَگَا أَعْظَمُ الْأَمْرَاءِ الرَّاجَهَرَتِيْنَ بِالْهِنْدِ
فِي وَقْتِهِ وَأَعْلَاهُمْ قَدْرًا وَأَوْسَعُهُمْ نَفُوذًا .

أَخَذَ الْإِيشَاهُ فِي آگَرَا يَغْدِقُ عَلَى رَجَالِهِ مِمَّا وَقَعَ فِي أَيْدِيهِ مِنْ
أَمْوَالِ الْإِنْدِيَّانِ الطَّائِلَةِ وَكَتُوزِ الْهِنْدِ ، فَلَمْ يَكْتَفِ بِأَنْ جَعَلَ لِكُلِّ
جَدِي سَارِ مَعَهُ قَدْرًا وَافْرًا مِنْ الْأَعْطَاءِ حَتَّى بَعَثَ بِنَهْائِ مَالِيَّةٍ وَفِيْرَةٍ
إِلَى عَمَالِهِ وَذَوِي قُرْبَاهُ فِيمَا وَرَاءَ حُدُودِ الْهِنْدِ ، وَوَصَلَ الْعُلَمَاءُ
وَالْفُقَرَاءُ فِي كَأَنَةِ الْمَزَارَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِخَرَّاسَانَ وَبِلَادِ مَا وَرَاءَ
النَّهْرِ وَالْعُرَافِ وَالْحِجَازِ (٢) .

١ - فَصَّلْنَا السَّكَّامَ عَنْ هَذِهِ الْإِمَارَاتِ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ مِنْ

٢٠٩ وَمَا جَعَلَهَا .

٢ - تَارِيخُ فَيْسْتِهْ أَوَّلُ - ص ٢٠٦ .

وأبى فاتح الهندستان الجديد إلا أن يكون المدينة التى بزغ فيها نجمه وعلا بها طامع سعدة من اللطاء نصيباً ، فأرسل بقطعة من العملة الفضية (شاهر خيصة) إلى كل قاطن بكابل ، رجلاً أو امرأة ، طفلاً أو حدثاً ، عبداً أو حُرّاً .

ولم ينس . وهو فى غمرة توزيع هذه الكنوز الطائلة ، أن يلتفت إلى أسيرة غريمه السابق السلطان إبراهيم ، فأجرى على أمه وزوجاته وأولاده رزقا حسنا ، وأوحى رجاله بالسهر على راحتهم (١) .

وكان مما عثر على بابر من جواهر الهند بآگرا ماسة كوهينور ، الشهيرة التى تزن ثمانية مثاقيل ، والتى قدر الپادشاه قيمتها فى سيرته بما يوازى نصف نفقات الدنيا فى عصره . وكان قد أهدى هذه الماسة لهمايون بن بابر أميرة بكر ما جيت راجا . گواليار لحسن رعايته لها بآگرا بعد أن هلك وإيها مع السلطان إبراهيم فى حرب باقى بنت .

ورد بابر هذه الماسة على ابنه حين قدمها له فما زالت أيدى السلاطين المغول بالهند تتداولها حتى سقطت بأيدى البريطانيين

١ برعم ذلك فقد احتال أم السلطان اللودهى على دسر تاج بابر فى طعامة .

بابر نامه ورقة ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

حين دخلوا الهند فزبرها تاج ماكتهم فكتوريا^(١) .
 على أن استيلاء بابر على هذه السكونز الكثيرة وجلسه على
 عرش آكرا لم يكن يعني خضوع سلطنة دهلي لحكمه برغم قضائه
 على السلطان اللودهي وجيوشه . ذلك أن الأمراء الأفغان عن
 حكم الولايات اللودهيّة أدركوا تماما أن البادشاه إنما قد قدم
 إليهم ليغتصب بلادهم لنفسه . وأنه إن بسكت حتى يقضى على
 جميع نفوذهم وسلطانهم . فإذا كانوا بالأمر قد دفعهم اعتدادهم
 إلى الوقوف في وجه السلطان اللودهي ، وهو كيرهم وابن
 جلدتهم على كل حال ، فكيف يرضون اليوم بالخضوع لقادم
 غريب عليهم . فمنهم من شاع أهير بهار جلال الدين بن درياخان
 فالتفوا حوله ونادوا به سلطانا عليهم . ومنهم من سار إلى
 الراجپوتانا فانضم إلى جبهة الأمراء الهندكة بها . وسهل لهؤلاء
 النافرين تحصين مراكزهم ما تهيأ لهم من وقت كاف .
 كان فاتح الهند مشتغلا فيه بتقسيم ما وقع بأيديه من الأموال
 والأسلاب . حتى إذا ما فرغ من أمر غنائمه ، وجد ما حول
 آكرا من دساكر وقرى قد هجرها أغلب أهلها وتركوها خرابا .

يباها حتى كاد لا يجد الطعام الكافي لجوده والملف لدوا .
وأشاعت قصود الصيف الهندي روح القلق والتذمر بين
صفوف القوات الغازية فقد حسبوا . بعد أن أصابوا من
الغنائم والأموال فوق ما كانوا يأملون . أن أميرهم ما يلبث أن
يعود بهم إلى ديارهم بعد أن تم له هزيمة عدوه والاستيلاء على ما وجدته
عنده من أموال طائلة وكثيرة .

ولم يكن بابر ليخضع لرأى رجاله فيرتد عن أرض الهند ، كما
ارتد الإسكندر ويحمود الغزنوي وتبهمور عنها من قبل ، والفرصة
بمواتبة له لإقامة دولة كبيرة قريبة له هناك . لما زال بقواده
وأمره جيشه يذكرهم بمبالغ ما صادفهم من متاعب وصعاب
تغلبوا عليها آخر الأمر فجنوا ثمار جهودهم بالفوز والغلبة . كما
بين لهم أن الدول لا تقوم إلا على ركوب الأخطار ومواجهتها ،
وأن الملك لا يكون إلا بالرعيّة المخلصة والآفاق المفتوحة ،
وهام قد تيسر لهم ، بعد كفاح طويل وجهاد شاق ، الاستحواذ
على بلاد عريضة ، فليس للمتاعب والصعاب مهما كان من شأنها
أن تغلبهم اليوم على أمرهم فينكسروا عن الهدف الذي غدوا على
قارب قوسين أو أدنى من تحقيقه وبلوغه ويرتدوا على أعقابهم

وكانهم جند منهزم طحنته المعركة وأذله الإنكسار^(١).

هكذا تم لبار بشجاعته وقوة عزمته وإصراره القضاء على روح التمرد والتذمر بين جنوده ليوجه فريقا كبيرا منهم ، يأمره ابنه همايون ، إلى الولايات الهندية الشرقية ويتجه هو بنفسه من بعد ذلك إلى بيانه وگواليار التي تجاور عاصمته فيضمها إلى ملكه .

ذلك أنه برغم قدوم كثير من شيوخ القبائل الأفغانية في الدواب إلى السلاطنة الجديدة ومعهم قواتهم وانضمامهم إلى صفوفه ، فقد ذهب أميران من كبار الأفغان ، هما نصير لوحاني ومعروف فرمولى ، يجمعان الجند حتى صار لهما أربعون ألفا منهم فاستولوا بهم على قنوج ثم اتخذوا طريقهما إلى آگرا . وطلق همايون بطارد قوات الثوار فانتزع منهم جونپور وغازيپور وكالي وخير آباد . حتى إذا ما شرع يتعقبهم بإقليم خريد ، عند حدود البنغال ، بعث إليه أبوه يأمره بالعودة إليه على عجل ليعاونه بقواته على دفع خطر الراجپوتين الذي كان قد استشرى حتى امتد إلى كافة المناطق القريبة من دهلي .

معركة خانوه : انتهر الأمراء الراجپوتيون فرصة الضعف الذى أصاب الدولة أيام السلطان إبراهيم اللودهى فمقدوا بينهم حلفاً لمناهضة الحكم الإسلامى فى الهند نزعمه رانا سنگرام سنگت المعروف رانا سنگا صاحب موار وراجا أداپور . وكان نجم هذا الأمير الهدوى قد بدأ يعلو أيام السلطان سكندر لودهى حين فر من أمامه صاحباً مالود والكجيرات وبلغت قواته مشارف دهلى . ومازال القصص بالهند بروى عن طولته حتى اليوم .

وعظم شأن هذا الأمير أواخر أيام الدولة اللودهى حتى اتسعت روعة أراضيه ودخل فى نطاقها بهيلسة وسرنكپور وچندرى ورتنپور ، وحتى صار له من الجند مائة وعشرون ألفاً ومعهم خمسمائة من الأفيال ^(١) .

وانتهز رانا سنگا فرصة اشتغال صاحب آگرا الجديد بالقضاء على الفتن فى المناطق الشرقية وفيما حول عاصمته ، فاستولى على حصن گهندار وراح يهاجم بيانه ودهلىشپور وكالبي من جديد ، ثم شرع يؤلب الأمراء الأفغان على فاتح الهندستان ويدعوهم للانضمام

١ — Prasad Muslimi Rule, pp 258, 71, 74 . هذا وقد سبق لهذا

الراجا الاتصال بإمبر بدوره فى كابل قبل زحفه على الهند وتعهد له بمساندة . p 272

لى جهته ، حتى استجاب له فريق منهم ، وفيهم حسن خان صاحب
برات ومحمد خان أخو إبراهيم اللودهى الذى نودى به سلطانا على
نومه . فأخذوا جميعاً يعدون العدة لالزحف على آكر (١) .

ولم يكن باير ليسكت عن هذا الخطر الداهم الذى قد ينتهى
بالتقصاء على كل ما جنى من فتوح ، فبرز من عاصمته فى جمادى
الأول من عام ١٢٣٣ هـ حتى بلغ سيكرى فأقام بها معسكره ،
وأخذ يحصن مواقعه . فمبشت عربات الحرب والمدفعية وحفرت
الخنادق وأقيمت المتاريس .

وإن هذا المكان أذاع الپادشاه فى قومه وكأنه أنحاء بلاده
مشهوراً أعلن فيه عزمه على الجهاد فى سبيل الله بمحاربة الهنادكة ،
وربعه ضريبة النخعة عن كامل رعاياه ، وإقلاعه عن مقسارية
الشراب توبة إلى الله وتقرباً إليه منه ، فأغرق ما بالمدائن من
النبيذ على الأرض وحطمت أدوات الشراب من ذهب وفضة
إلى قطع صغيرة كانت من نصيب الفقراء والمساكين صدقه (٢):
« نحمد توأبا بحب، التوآبين والمتطهرين ونشكر ديتانا يهدى

١ — منتخب التواريخ أول س ٣٣٨

٢ — باير نامه ٣١٢—٣١٤ وقد أذيع هذا المنشور فى سيرة باير الجنتائيه
بواسطة العارسية لأنها كانت اللغة الغالبة فى هذه البلاد .

المذنبين والمستغفرين... وبعد فإن طبيعة الإنسان على مقتضى
الطبيعة تميل إلى لذات النفس البشرية ، فهي ليست بمنجاة عن
ارتكاب الآثام ، وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا
ما رحم ربى وإن ربي غفور رحيم .

« وما هي التوبة عن الشراب قد آن أراها في هذه الأوقات
المباركة التي أعيدت فيها للجهاد في سبيل الله ، وقد اجتمع
عساكر الإسلام لحرب الكفار... أم يأن للذين آمنوا أن
تخضع قلوبهم لذكر الله ، (٢) فأتلعنا أسبب المعصية بقرع أبواب
الإثابة - ذ من قرع بابا وليج واج - وافتتحا هذا الجاد بالجداد
الأكبر ، هو مجاهدة النفس ، ربنا طلبنا أنفسنا ، (٣) ، وإني
تبت إليك وإني من المسلمين ، : فأعلننا جميعا توبتنا عن
الشراب وأمرنا بأدواته من كؤوس البضة والذهب... زينة
مجلس الضلالة... وألقيت إلى الفقراء والمساكين والمعسر-وزين
صدقة... »

١ - سورة - ٥٣/١٢

٢ - سورة - ١٦/٥٧

٣ - سورة ٢٣/٧

٤ - سورة ١٥/٤٦

، هذا ولما كان الناس على دين ملوكهم فقد أقبل كثير من
مقرئين لدينا فالوا في المجالس شرف الإنابة والتوبة عن تعاطى
الشراب مطيعين للأوامر معرضين عن النواهي . ولما كان الدال
على الخير كماعله ، فترجو الله أن يكون لنا من ثواب هذه
الأعمال نصيب ، وأن تكون لنا ذللا طيبا يتزايد بسعادة الفتح
والنصر يوما فيوما .

وغايتنا من هذا المرسوم أن يقابل بالطاعة والخضوع ،
فيغذ ما ينص عليه من تحريم تعاطى الشراب وصناعته في كافة
أجزاء بلادنا المحروسة ، حرسها الله من الآفات والمخوفات
، فاجتنبوه لعلكم تُمنّوا بحول ، (١) .

وشكراً لله على هذه الفتوح وتصدقا بالقبول ، قد جاد البادشاه،
من فيض كرمه ، برفع التبعة [الماكوس] عن كاهل المسلمين جريا
على ضوابط شريعة سيد المرسلين . وصدرت الأوامر بمنع
جمعها أو تحصيلها في أى بلد أو ثغر أو طريق أو درب . وفن
بدله من بعد ما سمعه فإنما إثم على الذين يُسبدّ لونه ، (٢) .

١ - سورة ٥ / ٩٠

٢ - سورة ٢ / ١٨١ . هذا وتعد منشورات بابر عموما من الشواهد القوية
على تمكنه وكثير من خاصته من الآداب العربية والفارسية والتركية .

وعلى الجند الذين يعيشون في ظل العطف الشاهاني : من ترك
وتاجيك. (١) وعرب وعجم وهنود : وعلى المدنيين والعسكريين
وأبناء كل ملة ودين، أن يقوموا جنداً لله الحى القيوم على تنفيذ
ما جاء بهذا المرسوم دون انحراف عن مقاصده ، مبادرين إلى
ذلك حال وصوله إليهم مهوراً بالخاتم الرفيع الأشرفى الأعلى .
كتب بالامر العالى... فى ٢٤ جمادى الأولى من عام ٨٩٣٣ هـ .

ورأى بابر الخوف يشيع فى رجاله من قتال الهنادكة ولم يكن
لهم بلقائهم عهد من قبل ، وقد تصدى لقيادتهم راناسنكا أعظم
أبطالهم ، وتشهد على جرأته وبطولته عين فقائها السهام وذراع
بترتها السيوف ومانون طعنة تناثرت آثارها فى جسده . وهاهو
فريق من أمراء الأفغان المسلمين أنفسهم يؤثر الانضمام إليه على
جانب سلطانهم ، فى حين طفق فريق آخر منهم بالدواب ، وما حولها
يرتد إلى حصونه القديمة فينتزعها عنوة من أيدي حماة الجدد .
هنالك أخذ الپادشاه يستنهض همم رجاله ويقوى من روحهم
المعنوية ، فخطبهم قائلاً بأن المرء مهما طال به الأجل فقصيره إلى
الفناء ، فما أشرف له أن يستشهد فى ميدان الجهاد فيخلد ذكره
عن أن يموت خاملاً حثف أنفه .

« ولقد أراد الله القدير أن يمتحننا بهذه المحنة ، فإن نسقط في ميدان الجهاد فقد كُتبت لنا الشهادة وإن ننتصر فقد أعزينا كلمته تعالى » .

وجيء بالكتاب فأقسم كل فرد منهم على ألا يلوى وجهه عن القتال أو يتخلى عن أصحابه طالما كان فيه نفس يتردد بين حديد^(١) .

لم يفت في تضد الجند الباري مارأوه من انسحاب كثير من أمراء البلاد من صفوفهم ، وما بلغهم من مهاجمة الهنادكة لگواليار ، ونشوب القتلى في «الدوآب» ، فزحفوا إلى أرض خانوه عند مشارف الراجيو تانا يتقدمهم أصحاب آلا تهم الحربية من رجال المدفعية وحمل البنادق حتى يقيموا من نيرانهم ، إذا لزم الأمر ، ستاراً يهيء لهم الفرصة لتشكيل صفوفهم للقتال في اطمئنان .

والتقى الجمعان قبيل ضحى يوم السبت الموافق ١٣ جمادى الآخر ١٩٣٣ هـ / ١٦ مارس ١٩٢٧ م ليخوضوا غمار حرب تعد من أهم الوقائع الحاسمة في تاريخ الهند كلها .

وتحوى سيرة بابر وصفها دقيقاً قيماً لهذه الواقعة ونقل عنه

ما يلي (١)

« الحمد لله الذى صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم
الاحزاب وحده... وصلى الله على خير خلقه محمد سيد الغزاة
والمجاهدين... وبعد؛ فما من نعمة تستوجب الشكر أعظم من
النصر على الكفار، ففى فى نظر أهل البصيرة أعلى درجات
السعادة . والمنّة لله وحده الذى حقق لنا من مكنونات نعمه ،
النصر والغلبة ، فكتبنا عنده فى سجل المجاهدين لإعلاء كلمته... ،
« وتفصيل الأمر فى مصدر هذه السعادة وظهور هذه الدولة ،
أنه لما أضاءت ومضات سيوف فرسان الإسلام من جنودنا
بلهعات أنوار الفتح والظفر ، وأتت أيدى التوفيق الربانى على
رفع رايات النصر فى بمالك دهلى وآگر ا . وجونپور وخرید وبهار
وغسیرها من البلدان بما سبق تفصيله ، سارع بالانضواء تحت
لوائنا والخضوع لسلطاننا كثير من طوائف القوم من أصحاب
الكفر وأرباب الإسلام على السواء .
أما رانا سنگا فقد تظاهر بطاعتنا بادىء الأمر ثم ما لبث أن

١ — بابر نامه ٣١٧ ب — ٣٢٤ ب . وهو المنيشور الذى عهد بابر بصياغته إلى
قاضيه زين الدين خوافى ، غوى بالفارسية أدق تفاصيل القتال وخططه ونتائجه ،
ليذاع فى كافة أنحاء المملكة .

أظهر ما بطن : فأبى واستكبر ورفع رأس الفتنة وقاد جيوشها ،
 واجتمع حوله طوائف فيها من تمنطق بالزناز وفيها من ارتدى
 ثياب الكفر والانتدراذ (١)

« هذا وكان سلطان ذلك الكافر اللعين قد اتسع بالهند قبل أن
 أن تبزغ شمس دولة الپادشاه بها ، ولكن لم يحدث قبل هذه الحرب
 أن شاركه أحد من الراجاوات والحكام حروبه أو خرج معه فيها .
 أما السلاطين الأقوياء من أمثال أصحاب دهلى والكجرات
 ومالوه ومن إليهم ، ممن كانوا فى حالة تسمح لهم بمعارضته
 والوقوف فى وجهه ، فقد عجزوا عن أن يتكلموا ضده دون اتفاق
 الكفار وإياهم ، فعدوا لذلك يداهنونه بدورهم ويدارونه اتقاء
 لخطرة ودفعاً لشره .

« وهكذا باتت بنود الكفر ترفرف على قرابة مائتى مدينة
 من مدن الإسلام التى خرب ما بها من مساجد وسبى ما بها من
 نساء المسلمين وقتل أطفالهم فيها .

« أما مدى قوته ومباغ عدته ، فعلى حساب أهل الهند وجريا
 على قواعدهم ، فإن كل إقليم خواجه لكا (أى مائة ألف) يستطيع

١ — أصحاب الزناز هم الهنادكة ، أما المرتدون فهم الأمراء المسلمون الذين ظهروا
 فى صفوف الهنادكة .

أن يقدم مائة فارس ، وما يكون خراج كرورا (عشرة ملايين)
يقدم عشرة آلاف فارس . ولما كان خراج ولاياته جميعا يصل
إلى عشر كرورق فقد كان في وسعه أن يجتمع له مائة ألف من الفرسان .
هذا وقد أقبل عدد من أمراء الكفار يقدمون العون له
لأول مرة ، بدافع من عداوتهم للمسلمين . وكان هؤلاء إقطاعات
واسعة ؛ فهذا صلاح الدين أمير بهيلسه ورازن وسارنگبور ، كان
له ثلاثون ألفا من الفرسان ، وهذا راول أودى سنك ، صاحب
دنگر پور ، كان له اثنا عشر ألفا ، ثم حسن خان ميواتى وكان له
اثنا عشر ألفا ، وبارمل عدرى وكان له أربعة آلاف ، ونربت
هاره ، وكان له سبعة آلاف ، ومندنى راى ، وكان له اثنا عشر ألفا ،
وستروى كچى ، وله ستة آلاف ، وهرم دوى ، وله أربعة آلاف ،
وبرسنگ دوى وله مثلهم ، وأخيرا محمود خان بن السلطان
سكندر خان ، فبرغم أنه لم يكن له من الملك نصيب فقد تم له
جمع عشرة آلاف فارس أمل أن يصل بهم إلى العرش (١) .

١ — لم تزد عدد قوات هؤلاء الحلفاء في هذه القائمة على مائة وعشرين ألف
فارس Prasad 274 في حين لم تكن قوات بابر تزيد على ما اشترك به في واقعة
بانى بت . هذا وقد كشفنا في الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١١٤ عن السر
الغالب في انهزام جوع الهنادكة على كثرتهم أمام الغزاة المسلمين على قلمهم ، وإن زاد
على ذلك استخدام بابر المدفعية والبنادق التي لم تكن الهند تعرفها من قبل .

« هكذا ائتلفت جموع أولئك الكفار معاً ، كظلمات بعضها فوق بعض ، في حرب أهل الإسلام والعمل على هدم شريعة سيد الأنام ، لكن المجاهدين انتصروا عليهم طلباً للشهادة في جهاد الكفار المنافقين .

« وفي يوم السبت المبارك الثالث عشر من جمادى الثانى من عام ٩٣٣ هـ أقام جيش الإسلام المظفر مضارب خيامه على تل بجزار خانوه إحدى مناطق بيانه . حتى إذا ما قدم الكفار بأفياهم - كأصحاب الفيل - برز لهم عساكر المسلمين - رياحين الجنة - يقاتلون في سبيله صفا صفا كالبنيان المرصوص .

« أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ، (١)
« هنالك أجمع أهل الخبرة على تغطية ووضع حملة البنادق وستر مكانهم ، وكانوا في الجبهة ، فنهجوا في ذلك نهج مجاهدى الروم (٢) ، فصفت العربات أمامهم وقد شُدد بعضها إلى البعض الآخر بالسلاسل . »

« وكانت جيوش الاسلام تنتظم في إحكام تام ، والحرس الشاهانى قد د توسط الجناحين منها ، وقامت فرق المناوشة

١ — سورة ٥/٢

٢ — أى العثمانيون

بأقصى الجناحين . .

« وحين تقابل الجيشان، وكأنهما الليل والنهار، بدأ الاشتباك عند الجناحين، واشتد أوار الحرب حتى كأنما الأرض قد زلزل زلزالها، وباعضج ضجيج قعقة السلاح عنان السماء. حتى إذا ما اقتحم جناح الأشقياء الأيسر ميمنة المسلمين. سارعت نجاتنا إليهم، فلم تكف بردهم حتى ظلت تطاردهم إلى قلب جيشهم. »
« وألهم بالتوفيق، نادرة عصره «مصطفى الرومي» وكان في القلب في إمرة ابنائه محمد همايون، فتقدم، بمدفعه، وبناقه وقذائفه، فخطم صفوف الكفار.

« حتى إذا ما زحفت أفواجهم من جديد ترى لنجدة رجالهم فكروا على جناح المسلمين الأيسر في عنف وشدة، طفق الغزاة ذؤوا نجا، يستقبلونهم في كل مرة بالسهم فيبعثون بهم إلى دار البوار، أو يرغمونهم على الفرار، وهم يرددون قوله تعالى «قل هل ترّبصون بنا إلاّ إحدى الحسنيين» (١)

« وحين حمى وطلس الحسرب صدرت الأوامر إلى رجال الحرس الشاهاني بالبروز للقتال، وكانوا في مواقعهم من وراء المدفعية كالأسود في أقفاصها، فاندفعوا من يمين القلب ويساره

بطلمعة أصبح صادق أطلّ من وراء الأفق ، فضر جوا الكفار في
ماء بلون الشفق وأطاحوا برءوس الكثيرين منهم .
« هذا كما طفق ، نادرة العصر ، الأستاذ عليقلي يقذفهم^(١)
وأتباعه من وسط الجهة . بقذائف تحيل الجبال الراسيات
تكالهن المنفوش . ولو كوفيء الواحد منا بثقلها أعمالاً طيبة لنقلت
نوازينه ، فهو في عيشة راضية » فحصد بها الكثير من الكفار
حصداً ...

« كذلك سقى حملة البنادق - من وراء المدفعية - كثيراً
من الأعداء كأس الحمام في الميدان ، وظهر المشاة من
ضروب المخاطرة ما يتخذ أسماءهم مع أسد الغاب الصيد والابطال
الصناديد. »

« وفيما الحال يجرى على هذا المنوال ، صدرت الأوامر بتقدم
المدفعية من مواقعها إلى الأمام ، وبدأت الحضرة الخاقانية
بدورها في تقدّمها ، والفتح في ركبها والظفر واليّن ، فزحفت على
فرق الكفار . »

« واختلط الضارب بالمضروب ، والغالب بالمغلوب ، وانعقدت

١ - كان البابر إلى جانب مدفعية قطع صغيرة أخرى يسميها فرنكية عدا بنادة
لتي تعرف باسمها التركي « تنك » . هذا وكانت عرباته الخريية تصل إلى ثمانمائة .

تحب الغبار فوق الرؤوس وقد حُجبت الشمس عنهم حتى توارت
المرئيات . فلم يكن يضيء هذا الليل الألمعات السيوف وومضاتها،
وما ينبعث من الشرر حين تضرب الخيل الأرض بحوافرها في
الكركر والفرة .

« وهتف الهائف بالغزاة المجاهدين أن ، لا تهنوا ولا تحزنوا
وأنتم الأعلون » (١) وأنه « نصر من الله وفتح قريب » (٢).
فأقبلوا فرحين مستبشرين يقاتلون في طلب الشهادة . وبلغت
المعركة أوجها بين الصلاة الأولى والثانية . ليفلح المسلمون
من بعد ذلك في تطويق جيوش الكفار وحصرهم بمكان
واحد .

« حتى إذا ما رأى هؤلاء الأشرار الملحدون أنه قد
أحيط بهم ، انطلقوا مستبشرين يهاجمون من جديد على طول
الجهة حتى كاد النصر يواتيهم عند الخناج الأيسر ، لولا أن
أطبق المجاهدون عليهم فافتلعوهم من أماكنهم وألزمهم طريق
الفرار قسرا .

« هنالك أقبلت نسائم النصر على بستان حظنا ومعها مدد من

١ — سورة ٣ / ١٣٩

٢ — سورة ٦١ / ١٣

قوله تعالى « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » (١). وتجلى لأعيننا الإقبال والسعادة في كلامه عز وجل « وينصرك الله نصراً عزيزاً » (٢).

« وهكذا انفرط عقد الهنادكة فتناثروا كالعين المنفوش ، فمنهم من سقط في حومة الوغى ، ومنهم من هلك في تيه الخراب فصار طعاماً لجوارح الطير ، حتى تكدست أجسادهم بعضها فوق بعض كالهضبة الرابية وتكوّمت رؤوسهم كالمناثر العالية . » (٣)

« وكان من بين القتلى حسن خان ميواتى وكثيرون من أمراء الكفار وأصحاب الشوكة والأعيان الذين بعثت بهم السهام ونيران البنادق إلى سقر .

« أما دار الحرب فقد غصت بالجرحى منهم ، فكانت كجهم حين يتلقى خزنتها المنافقين فتمتلئ بهم ، كما لم يكن هناك موطن . لقدم الا وفيه صرعى من عليائهم . » وما النصر إلا من عند الله

١ — سورة ٤٨ / ١

٢ — سورة ٤٨ / ٣

٣ — من تقاليد التيموريين أنهم كانوا ، على أثر كل نصر ، يقيمون من رؤوس القتلى من أعدائهم على هيئة أهرامات ومناثر .

العزیز الحکیم ، (١) ،

هكذا استمرت معركة خانوه من الضحى حتى الغروب لتنتهى
بهزيمة عصابة الراجپوتيين هزيمة حاسمة ، وهروب رانا سنگازعيمهم
إلى أحد حصونه بالجبال منفلا بجراحه ، فلم يمتد به إلا لجل
إلا عاما وبعض عام (٢) .

وبهذا أتيح للغازی (٣) التيمورى أن ينزل بأعدائه بالهند ضربتين
حاسمتين : فى مدى عام واحد ، ضعفتا من كيانهن وقضتا على قواتهن .
وإئن مكن للبادشاه انتصاره عند پانى پت من الجلوس على عرش
آگرا ، فقد تم له فى وقعة خانوه القضاء التام على الخطر الراجپوتى
الذى ظل يتهدد سلطان المسلمين بالهند قرونا كثيرة فلم تقم لهم
قائمة من بعد ذلك أبدا (٤)

وبهذا النصر ، الذى لم يؤته أحد من سلاطين الهند المسلمين منذ أيام

١ - سورة ١٢٦/٣ . حافظنا فى نقل هذا الوصف إلى العربية على أسلوب
الأصل وصورته الأدبية ما وسعنا ذاك ، ولم نرفع منه إلا أسماء القوادى الكثيرة .

٢ - Havell, p 425

٣ - اتخذ باير نفسه هذا اللقب على أثر انتصاره فى هذه الوقعة . تاريخ

رشيدى ٤٠٩

٤ - Lane - Poole 210

محمود الغزنوى ومحمد الغورى ، طارصيت بابر ، وازدادت هيئته ببر المسلمين فى الهند ، وتوطد مركزه على عرش آگرا ، وأرسى الأساس الذى قامت عليه الدولة المغولية ، فلم يعدي حارب دفاعاً عز عرشه وتثبيتاً له ، فصار خروجه لتوسيع رقعة ملكه وبسط نفوذ وسلطانه فى الغالب .

الغلاقل الشرقية :

كان على بابر لىكى يغدو سيد الهندستان كله ، بعد أن تم له القضاء على عصبة الراجپوتيين وأمنت أراضيه حول دهم وآگرا ، أن يستولى على بعض الحصون الكبرى التى مايزا يعتصم بها أمراء من الهنادكة . ويقضى على نفوذ الأمراء الأفغا فى الماعاق الشرقية ، ويخمد ما يشيرونه من فتن هناك فقد كان يعلم أنه لا سبيل إلى مهادتهم فى الغالب ، وهم الذين أدى به كبرياتهم إلى تقويض عرش السلطان اللودهى ، زعيمهم وإجلدتهم ، من قبل .

وسارت جند آگرا صوب الشرق بطريق تنوح ، فى حين قه البابا شاه ، على رأس فريق آخر من قواته ، حصن چندرى أقصى الجنوب من گواليار ، وكان عليه أمير هندوكى قوى ، ميمىدى راو .

وبرغم امتناع أسوار الحصن على مدفعية المسلمين ، إذ كانت من الحجر الصلب ، فضلا عن موقعها بأعلى التلال ، فإن الجند استطاعوا تسلق هذه الأسوار والتسرب إلى داخلها ليشتركوا مع الحامية في قتال وحشى عنيف ردّ فيه فريق منهم عن أماكنه .

ذلك أن رجال الحصن حين أيقنوا بضياح قلعتهم من أيديهم ، قتلوا نساءهم بأيديهم ، ثم انطلقوا يعرضون أنفسهم على سيوف الغزاة مقاتلين في ضراوة وشدة بأس ، في حين كان أميرهم ونفر من خلصائه يتبادلون فيما بينهم الطعنات حتى قُتِل أولئك وهؤلاء جميعا عن آخرهم (١) .

وكان في خطة بابر ، بعد الفراغ من الاستيلاء على هذا الحصن ، أن يخضع بعض حصون أخرى بمالوه ثم يسير إلى الراجپوتانا من جديد ليقبض على عاصمة مواري ومقر خصمه المهزوم رانا سنگا ، لولا ما بلغه من ارتداد قواته في الشرق إلى قنوج بعد أن أرغمت على إخلاء لكتاوا ، فسارع إليها بنفسه .

وبانح بابر قنوج أيدى به رحاله چمنه تحت ستار من نيران

التي فعية والبنادق فيلتحموا في قتال عنيف مع ثوار بهار الذين قد عاد
 إليهم تزعيمهم السلطان محمود بن سكندر لودهي بعد هزيمته في خانوه .
 ونولا تريت الپادشاه في مطاردتهم لآمكن له من فوره القضاء
 عليهم قضاء تاما .

وعوق حلول فصل الأمطار القوات الغازية من الاستيلاء
 على إقليم بهار كله بعد ما بلغت أوده ، مما أناح الفرصة للثوار
 ليعودوا إلى إشعال نيران فتنة عارمة في العام التالي استنفد
 القضاء عليها كثيرا من جهود بابر وكادت تقضى إلى اشتباكه في
 الحرب مع البنغال .

ذلك أن محمود لودهي كان قد اجتمع له مائة ألف من الجند
 استخلص بهم إقليم بهار كله وبعض الأراضى المحيطة به : حتى
 إذا ما سير إليه الپادشاه ابنه عسكرى ، أول الأمر ثم لحق به من
 بعد ذلك بنفسه فدخل د الله آباد ، وچنار وبنارس فأقبل عليه
 الأمراء الأفغان مستسلمين بعد أن انفضوا من حول الثائر
 اللودهي ، رابه التجاء بقية الثوار إلى إقليم خريد برغم تأكيد
 نصرت خان ، صاحب البنغال ، له بنزوعه إلى المسالمة وحرصه
 على اليرلاء (١) .

هنالك رأى بابر أن يحزم أمره مع قوات البنغال التى تشد من أزر الثوار ، إذ كانت فى مراتعها ، عند التقاء الكنج برافده كـگـگـر ، تعوق من تحركات جند آگرا فى مطاردتها للثوار .

وتيسر لـعسكرى أن يعبر ببعض قواته الملتقى الأعلى لكـگـگـر والكنج ، فطفق يناوش البنغاليين ويشاغلمهم ، حتى تم عبور المدفعية ورجال البنادق مع بقية الجيش عند الملتقى الأدنى للنهرين ، فوق الأعداء بذلك بين فسكى الكماشة ، فلم يغنهم فنيلا تفوقهم العددي وإحكامهم فى التصويب ومهارتهم فى استخدام الأسلحة النارية إذ دارت الدائرة عليهم فركنوا إلى الفرار . وهكذا انتهت معركة كـگـگـرا إلى القضاء التام على الثوار الأفغان وإعلان صاحب البنغال ولائه للإدشاه .

وبهذه الواقعة التى تعد ثالث معركة حاسمة خاضها بابر فى الهند ، بعد معركة پانى پت وخانوه ، غدا ذلك الأمير التيمورى صاحب السلطان المطلق فى الهندستان ، وغدت دولته تمتد فى رقعتها المترامية الأطراف من جيحون إلى البنغال ومن الهملايا إلى چندرى وگواليار (١) .

وآب بابر إلى عاصمته في شوال من عام ٩٣٥ هـ فلبث بها
 قسراً ، ليخرج منها من بعد ذلك إلى البنجاب وفي نيته أن يواصل
 سيره إلى بدخشان ، فيدفع عنها الأوزبكي الذين استفحل
 خطرهم من جديد برغم ما أنزله بهم طهما سب ، شاه الفرس ،
 من ضربات قاصمة .

ولعل خوفه من قيام القلاقل بالهند في غيبته ، وبداية
 انهيار صحته نتيجة للجهود المضنية المتواصلة التي بذلها في
 حروبه ، قد منعه حتى من الشخوص إلى كابل ، وكان غير بعيد
 منها ، وهى التي طالما ردد اعتزازه بها وشوقه إليها .

وقدم على بابر ، بلاهور ، ولده الأكبر همايون فصاحبه إلى
 آگرا ، وكأن القدر قد استجاب للباد شاه حين اشتد الداء بابنه
 هذا ، فتمنى على الله أن يجعله فداءه ، فلم يبرأ همايون من
 علته حتى رقد بابر مكانه فلم يغادر فراشه من بعد ذلك إلا
 إلى لحده (١) .

١ — كان مما عجل في نهايته في الغالب إيمانه كذلك على تعاطي المجنون
 (الأفيون) وإن أقام عن تناول الشراب تماماً عند حربه مع راناسنكا في معركة
 مننوم . تاريخ رشيدى ٤٦٩

حين شعر بابر بدنو أجله دعا إليه رجال دولته ، فأخذ منهم البيعة لولده همايون بعد أن أوصاه بهم وبأهل بيته وإخوته ونصحه باصطناع الحلم والتذرع بالحزم في حكمه .

وحاول بعض رجال الدولة ، والبادشاه يعاني سكرات الموت ، أن يعدلوا عن وصية أميرهم فيعهدوا بالملك إلى أحد أنسباء بابر ، وكان يدعى سيد مهدي خواجة ، لتكشف لهم المصادقات عندئذ عما كان ينتويه لهم مرشحهم هذا من أذى وشرّ فيعودوا إلى سيرتهم الأولى .

ومضى بابر في السادس من جمادى الأولى من عام ٩٣٧ هـ ١٥٣٠ م وهو في الخمسين من عمره والعام الثامن والثلاثين من حكمه ، فنوى في بستان نور أفشان على چمنه ثم نقل جثمانه من بعد ذلك إلى كابل فدفن بربوة تطل على هذه المدينة التي كانت أحب بقاع الدنيا إلى قلبه ، والتي خرج منها فتم له إقامة ملك عريض شمل الشمال الهندي ، وماغدا أولاده يُزيدون فيه حتى خضعت لهم شبه القارة الهندية كلها .

شخصية بابر : لا يعدّ ظهير الدين محمد بابر أعظم حكام المسلمين في عصره فحسب وفيهم اسماعيل الصفوى شاه العرس وسليم الأول

سلطان العثمانيين ، بل هو كذلك من أقدر الرجال الذين عرقهم
العروش في مختلف المصور ، وأحد أعاجيب الزمان همة وطموحا
وصبرا على المسكاره .

وَلِيَّ عرش فرغانة ، تلك الأرض الصغيرة عند سيحون ، وهو
في الثانية عشرة من عمره . وليس له من بين جيرانه أو ذوى قرباه
ناصر أو صديق ، إذ كانوا جميعا بين طامع في ما يملكه أو على عداء
سابق مع أبيه ، فلولا بقية نفر من خلصاء أبيه القدماء لَقُضِيَ عليه
من بادية الأمر وضاع ما ورثه من الملك .

تعرض بابر منذ شبابه لحن ومتاعب جارفه عنيفة ، فلم يعرف
اليأس إلى قلبه سبيلا أبداً ، فكم من مرّة انفض عنه أنصاره وأغلب
رجالها حتى وقف وحيدا شريداً لا أرض له ولا مال ولا رجال ،
فعاود جهاده من جديد ومضى في مغامراته ، حتى رأيناه يذكر
في سيرته أنه منذ ولي العرش عام ٨٩٩ هـ حتى عام ٩٣٣ هـ ، أى
في مدى خمسة وثلاثين عاما ، لم يقض شهر رمضان عامين متتاليين
بمكان واحد . (١)

ولي بابر عرش فرغانة ، كما جلس على عرش جده الأكبر
تيمور لنگ في سمرقند ، فإذا الدوائر تدور عليه فيفقد جميع

أملاكه ببلاد ما وراء النهر ويغدو شريدا طريدا يسير أغلب ليله ويختفي معظم نهاره ، ولا يأمن أن يبيت بمكان واحد ليلتين متعاقبتين حذر الوقوع في يد غريمة شيباني خان الأوزبكي الذي أخذ على نفسه القضاء على البيت التيمورى الذى آواد وآباهه من قبل^(١) .
ويظل بابر يضرب فى الصحراوات والجبال عاما وبعض عام حتى يلتقى ، وهو فى طريقه إلى الخروج من بلاده ، بمجموع من عشائر المغول والأتراك ببدخشان فتسير فى ركابه هربا من وجهه الأوزبكي ومعها الكثير من أموال حصار وبدخشان فيدخل بها أرض كابل وغزنة ويجلس على عرشها وكان فى حوزة التيموريين لسنين طويلة خلت .

ويكسر اسماعيل الصفوى ، شاه الفرس ، شوكة الأوزبكي ويقضى على زعيمهم شيباني خان . فتتجدد الآمال عند بابر لاسترداد بلاده ولاد آبائه بما وراء النهر بمعونة الشاه الفارسى ؛ حتى إذا مارد عنها بعد توغله فيها حين نقض السكان عهدهم معه ، لما أذاقهم حلفاؤه من ويلات لإرغامهم على اعتناق المذهب الشيعى ، ولجوجه قبل الهندستان التى سبقه إليها آبائهم من قبل ، فى عزم وقوة أتيح له فيها أن يقيم مهادولته التى خلدت ذكره فى التاريخ .

وكان لضآلة قواته في بدء حياته ، ثم تدرجها في الزيادة ، بعد ذلك ، أثر كبير فيما تـمرس به من خبرة عسكرية واسعة أفاد منها به اندجعة في حروبه الكبرى بالهندستان .

هذا كما مكنته خبرته الطويلة المكيئة بنفسية جنده ، على اختلاف أجناسهم ، من مغول وترك وأفغان وغور ، من أن يسيطر عليهم سيطرة تامة ويئد كل تذر أو فتن تشيع بينهم في مهدها ، حتى قضى بقوة شخصيته على تمردهم حين ضاقوا بجرّ الهند وفاض بهم الحنين إلى ديارهم بعد ما أصابوا الكثير من غنائم الفتح في آكرا عقب دخولهم فيها ، وأستنهض همهم فأعاد الثقة إلى نفوسهم حين شاع فيهم الخوف قبيل لقاء الراجپوتيين في معركة خانوه .

على أن بابر ورث عن أجداده ، من المغول والأتراك على السواء ، إلى جانب صفات الجنديّة ، ميلهم إلى الأمعان في تقتيل أعدائهم وتفآخرهم بعظم الأكداس التي كانوا يقيمونها من رءوس القتلى على هيئة المنائر والاهرامات ، وانتهابهم لديار أعدائهم إشعال النار فيها مالم يبادروا إلى الاستسلام لهم والاعتراف بسلاطنتهم .

وثمة خصال غير حميدة ورثها بابر عن آبائه وورثها

وكان لضالة قواته في بدء حياته ، ثم تدرجها في الزيادة ، بعد ذلك ، أثر كبير فيما تدرس به من خبرة عسكرية واسعة أفاد منها فوائد جمة في حروبه الكبرى بالهندستان .

هذا كما مكنته خبرته الطويلة المكيته بنفسية جنده ، على اختلاف أجناسهم ، من مغول وترك وأفغان وغور ، من أن يسيطر عليهم سيطرة تامة ويبد كل تدمر أو قتل تشيع بينهم في مهدها ، حتى قضى بقوة شخصيته على تمردهم حين ضاقوا بجزء الهند وفاض بهم الحنين إلى ديارهم بعد ما أصابوا الكثير من غنائم الفتح في آكرا عقب دخولهم فيها ، وأستنهض همهم فأعاد الثقة إلى نفوسهم حين شاع فيهم الخوف قبيل لقاء الراجپوتين في معركة خانوه .

على أن بابر ورث عن أجداده ، من المغول والأتراك على السواء ، إلى جانب صفات الجندية ، ميلهم إلى الأمعان في تقتيل أعدائهم وتفاخرهم بعظم الآكداس التي كانوا يقيمونها من رؤوس القتلى على هيئة المنائر والاهرامات ، وانتهاجهم لديار أعدائهم وإشعال النار فيها مالم يبادروا إلى الاستسلام لهم والاعتراف بسلطانهم .

وثمة خصال غير حميدة ورثها بابر عن آبائه وورثها

أبناءه من بعده ، كالإدمان على تناول الشراب الذى لم يقلع عنه عند حربه مع راناسنگا إلاّ ليدمن تعاطى المعجون ذلك المخدر القوى الذى عجل فى الغالب فى نهايته ولمّا يبلغ الخمسين من عمره ، برغم ما اشتهر عنه فى شبابه من قوة جسدية خارقة حتى كان يطوى ذراعيه على الرجلين ويتخطى بها الخنادق قفزاً فى تتابع سريع ، ورغم ممارسته كافة ضروب الرياضة المعروفة فى عصره ، حتى ليذكر فى سيرته أنه سبج فى كل نهر صادفه فى حياته ، وقطع نهر الكنج فى معرض مواضعه فى ثلاثة وثلاثين ضربة ، وهو ما لم يتيسر لغيره من رجاله .^(١)

وعُرفَ هذا السلطان التيمورى ببغضه للتعصب الدينى وبعده عنه ، ونهج أبنائه فى الهند نهجه ، فمارس الهنادكة طقوسهم الدينية فى حرية تامة إبان حكم الدولة المغولية فى الغالب .^(٢) وبلغ من تسامح هذا الجندى الموهوب أنه تغاضى عما أنزله به بعض رجاله وأقاربه من أضرار سالفه ؛ بل لقد عفى عن هؤلاء ، حين وفدوا عليه بالهند ، برغم أن منهم من أبى أن يضيفه وأمه حين ضاق به الحال بيلاد ما وراء النهر ، فقد كان يهدف أبداً إلى

١ — بابرنامه ٣٦٣ ب

٢ — Havell p 426-Prasad pp 286 . 87. —

والئن أبقي البادشاه على هيكل الإدارة الهندية فقد أدخل عليه ، على كل حال ، بعض النظم التيمورية ، فجعل على كل إقليم نائبين له ، يقود أحدهما الجند ويراقب جمع الضرائب ويرعى مصالح السكان ، ويتولى الآخر الإشراف على الإيرادات والمصروفات ويوازن بينهما ، ويدفع للجند والعمال أجورهم ^(١) . كذلك كان من مبادئ التيموريين التي ساروا عليها بالهند ألا يتراخى العمال في جمع الخراج والمكوس ، دون إلحاق الأذى بالناس ، وحض نوابهم على إجراء العدل بين السكان جميعا لا يفرقون في ذلك بين مسلم وهندوكي ^(٢) .

على أن بعثرة بابر لما وقع بأيديه من أموال طائلة وكنوز بآگرا ، وما ذهب إليه من بذخ في العطاء والبذل حتى أطلق عليه أصحابه لفظ « قلندري » ^(٣) ، ثم رفعه التمغه عن رعاياه قبيل

١ --- يقدر بابر في سيرته دخل الهندستان بما يوازي المليونين ونصف المليون من الجنيهاًت بابرنامه ٢٩٢ — ٢٩٣

٢ — The Indian Moslems pp 23 . 24

٣ --- تاريخ فرشته أول ٢٠٦ . وقيل إن « قلندر » كان صاحب طريقه تدعو إلى الزهد في المال والنساء ، والقلندري هو الزاهد في حطام الدنيا حتى ليجود بكل ما اتصل إليه يده

حرب رانا سنكا ، أدى ذلك كله إلى اضطراب ماليته فذهب يفرض على الناس الضرائب من جديد .

هذا ، كما أمر بمسح كثير من الأراضى وشق كثير من الطرق ليربط بها بين مختلف أجزاء بلاده ، وكان أعظمها تعبيد الطريق الطويل فيما بين كابل وآگرا ، وإقامة منائر به ليهتدى بها السابلة ، ومنازل للمسافرين والدواب ^(١) .

ولقد زار بابر بگواليار أنقضى دور الهند فى عصره وهى قصر بکرماجيت وابنه ما نسنک . وبرغم ما ذكره عن التأتق فى بنائهما ونقوشهما ، فقد ضاق ببعدهما عن التناسق مع سوء التهوية و توزيع الضوء بهما

ونسى بابر ، وهو يظهر امتعاضه من هيئة مائى الهند ، ما نزله على الأخص جدّه تیمور من تخريب ودمار بهذه البلاد أدى إلى انهيار كثير من منشآت الغزنويين والغوريين وآثار خلفائهم — الفخمة ، وما ساقه كذلك معه من صفوة رجال المعمار الهندود ليقیموا له منشآت الفخمة ببلاده ، تلك المشآت التى طالما أشاد بذكرها فى سيرته وعظائم من شأنها .

وبلغ من ولع بابر بالعمارة أنه كان يستخدم بضع ألوف (١) من مهرة النحاتين والبنائين ليقيموا له منشآت من قصور ومساجد وحمامات ونافورات وخزانات للمياه، في آگرا وسيكري وبيانه ودهولپور وگواليار وكول.

ومنشآت بابر الباقية حتى اليوم بالهندستان هي مساجده الثلاثة في پانی پت وسنبل وحسن اللودهيين بآگرا.

ويقال أن شغفه بالعمارة، مع ضيقه بمعماري الهند، قد دفعه إلى أن يسأل سنان، معمار العثمانيين الشهير، أن يمدّه ببعض تلاميذه. والغالب أنه لم يجبه إلى طلبه، وآية ذلك عدم ظهور أى أثر لطابع المدرسة السنانية هناك.

وأدى كلف بابر بالطبيعة وما تبذره إلى إقامة طائفة من البساتين والحدائق حاكي بعضها ما غانى كابل التي طالما ترنم بذكرها، ومنها بستان چار باغ بظاهر آگرا الذي جعله نظير سمية الكابلي، وقد جلب إلى رياضته هذه كثيرا من النباتات وأشجار الفاكهة التي لم تكن تعرفها الهند من قبل (٢).

ونجح أبناءه من بعده نهجه الفنى هذا وزادوا عليه، حتى

١ — بابرنامه ٢٩١ ب

٢ — المصدر السابق

لترى اليوم نط الحداثق المغولية الهندية تقوم بطائفة من مدن
ايطاليا وبريطانيا على الأخص (١) ، كما تزخر متاحف العالم
الكبرى بروائع نقوش الهند وتراثها الفنى لعهدهم .

وصف بابر للهندستان : وصف بابر هذه البلاد فى سيرته
التي كتبها بنفسه وصفا دقيقا مفصلا استوعب كل ما وقع عليه
نظره فيها . فقال عنها إنها عالم قائم بذاته يختلف اختلافا تاما عن
كل الأقاليم التي عرفها ، سواء فى طبيعة أرضه أو مناخه وزرعه
وأنواع الحيوان فيه وعروق السكان وطباعهم وعاداتهم وأسنهم
وعقائدهم (٢) :

« إن الإنسان ما يكاد يعبر حدود الهندستان فى ناحية الغرب
حتى يرى معالم هذه البلاد واضحة قوية توحى من فورها بعظم
تباينها عما عند جيرانها . »

« وتعتمد أراضيها وزراعاتها فى السقى على الأنهار وروافدها ،
فلا قنوات عندهم أو ترعا أو مصارف . وقد صدمهم عن إنشاءها طول
الأمطار التي تأتي بها الرياح الموسمية ، فهي عماد سقيهم فى أماكن
شتى ، وهم يختزنون من مائها الكثير . »

ولم يرق بابر هيئة مدن الهند ومظهر ريفها ، ولا حدائقها ، التي لا تنسيق فيها ولا أسوار لها ، فلا وجه لقياسها ببساتين كابل ورياض فرغانة والماء ينساب بين خنائها ،

ولاحظ بابر كذلك وجـود آثار كثيرة لقرى ومدائن مهجورة ، ذلك أنه كان من عادة أهل الهند ، حين يفقد الغزاة على أرضهم : أن يفرّوا من وجههم ويهجروا بلدانهم .

كذلك وصف بابر صنوف الحيوان والطيور وأنواع الثمار والفواكهة بالهند في دقة وتفصيل ، ليتحدث من بعد ذلك عن التقويم الشائع بها وأسماء الشهور وأيام الأسبوع وأقسام الليل والنهار هناك :

« إن حساب الليل والنهار عند الهنود يختلف عن نظيره عند غيرهم من بقية الأمم ، فالشعوب ، فيما عداهم ، يقسمون الليل والنهار إلى أربع وعشرين قسما ، أما هم فيقسمونها إلى ستين قسما ، يُدعى كل واحد منها « غرى » ، وتُقدرُته أربعة وعشرون دقيقة . كذلك يقسمون اليوم إلى أقسام أربعة يُعرف كل قسم منها باسم « پهر » وهو الساعة الزمنية الهندوستانية . »

« وفي كل مدينة من مدن الهند الكبرى طائفة تدعى

« غريالى ، وهم الميقاتيون ، وعدّتهم صفحة من النحاس ومطرقة من الخشب . وهم يلزمون ساعة مائبة بمكان عال مخصوص ، فيقرعون غريالهم ، كلما امتلأ كأس الساعة أو فرغ قرعا سريعا متتابعا تنبئها للناس ، ثم يردفون ذلك بدقات بطيئة تبين الوقت لهم . »

« ووحدة الوزن فى الهندستان هى « الماشة » ، وكل خمس منها تعادل مثقالا واحدا . أما معيار الجواهر والأحجار الكريمة فهو ، نانك ، ويعادل أربع ماشات . »

« وملكة الحساب عند أهل الهندستان قوية واضحة . فكل مائة ألف عندهم هى « لك » ، وكل مائة « لك » هى « كرور » ، وكل مائة « كرور » هى « أرب » ، وكل مائة « أرب » هى « كرب » ، وكل مائة « كرب » هى « نيل » ، وكل مائة « نيل » هى « پدم » وكل مائة « پدم » هى سنيك . وضخامة هذه الأرقام تقوم فى الغالب دليلا على ضخامة ثرواتهم ،

« وأهل الهندستان تنفر النفس منهم ولا تطيب إلى معاشرتهم ، ولا تقوم فيما بينهم صداقة أو يضمهم مجتمع . وهم ليسوا على شيء من صفاء العقل أو حميد العادات والخصال ، فلا إنسانية عندهم ولا أثارة من عبقرية أو ميل للاختراع

أو مهارة في المهن والحرف أو خبرة بالمعمار والنقش
والزخرفة .

« كذلك تراهم لا يعرفون الخيل المطهمة ، والطعام الطيب
والقواكه الجيدة والماء المثلج ، وليس لديهم حمامات أو مغاسل
أو مدارس . ولا يعرفون الشموع ، فيستضيئون بمسارج
الزيت القذرة فتعج بيوت كبرائهم وسرراتهم بمئات منها »
« أما أبنتهم ، فضلا عن رداءة تصميمها وتجردها من الجمال ،
فهي لا تتواءم مع بيتها أبداً . وهم لا يمدون الماء إلى دورهم في
القنات ولا يجرونه كذلك إلى الحدائق ، نخلت قصورهم
وبساتينهم من ذلك كله »

« ويسير عامة الفلاحين ورجال الطبقة العاملة شبه عراة ،
إلا مما يستر عوراتهم ، وهو « لنگوتی » يشدون حوله
وسطهم . ويعلم عند النساء حتى يستر الصدر فيُدعى
« لنگی » . »

« وفيما عدا ذلك فيزة الهندستان الكبرى أنها بلاد مترامية
الأطراف ، يتوفر الذهب والفضة فيها بكثرة »
« ومناخ الهندستان في فصل الأمطار لطيف . وأما أمطارها
فغزيرة جدا ، حتى لتفيض سيولها كالأنهار وتجري في الأراضي

التي ليس بها للماء عيون أو مجار . وتشكف الرطوبة في هذا
الفصل فتصيب كلَّ ما تصادفه بالتلف ، سواء في ذلك الأبنية
أو الأثاث والملابس والأوراق .

« ويتخلل فصل الأمطار هبوبٌ شديدٌ يحمل بالأتربة يسمونه
« آندهى » ، وتؤدي شدته في بعض الأحيان إلى تعذر
الرؤيا . »

« ولا يخلو الشتاء والصيف من أوقات لطيفة . إلا أن حر
الصيف الهندي ، حين يشتد ، لا يطاق ، ولا يقارن بغيره في
البلاد المجاورة »

« والأيدى العاملة العادية متوافرة في كل مهنة وحرقة
إلى درجة بعيدة ، وهم يتوارثون الحِرْفَ والمِهْن عن آبائهم
ويورثونها أبناءهم بدورهم .

وقد استخدم تيمور لنگ فئة كبيرة من النحاتين الهنود في
بناء مسجده الكبير بمدينة سمرقند .

كذلك تحدث بابر عن حدود الهندستان وموقعها الجغرافي ،
وما بها من ولايات ، فذكر ما هو منها بأيدي المسلمين وما هو
بأيدي الهنادكة ، كما فصل خراج كل ولاية ونصيب صاحب
دهلي منه .

والغالب أن الأجل لو كان قد امتدّ به فطالت حياته بالهندستان ، لعدّل كثيرا فيما كتب عنها ، ولم يقصر ميزاتها على أنها إقليم كبير فيه فضة وذهب كثير (١) .

بابرنامه : خلف بابر وراءه ثروة أدبية في الشعر والنثر ضمنت له شهرة الأديب المطبوع ، إلى جانب صيت الجندي الموهوب (٢) .

وفضلا عما حوته سيرته بين دفتيها من شعر تركي كثير، كان ينشده في مناسباته ، فقد ترك ديوانا له بالتركية (٣) وأشعارا أخرى كثيرة فارسية وأصواتا في الغناء والموسيقى (٤) وتعدّ سيرته المعروفة باسم « بابرنامه » أعظم آثاره الأدبية على الإطلاق ، وهي كتاب النثر التركي التقليدي بحق حتى اليوم . وقد كتبها بنفسه في لغة تركية (چغتائية) سهلة وأسلوب يدل على ذوق أدبي رفيع ، ويتم عن تمكن صاحبه من أصول

١ — ذكر بابر نفسه في ختام حديثه عن الهندستان أنه لا ييغل أن يثبت من جديد ما قد يسمعه أو يلاحظه من أمور هذه البلاد .

٢ — تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١١٢ ، ١١٣ .

٣ — نشر ما عثر عليه منه دينون روس J. R. A. S. B. 1910

٤ — أكبر شاه ٥٢

ثقافة الإسلامية وآداب العربية والفارسية تمكنا تاما .
لم يذكر لنا بابر في سيرته التاريخ الذي بدأ عنده كتابته لها .
تلى أن إشاراته في أوراقها الأولى . إلى رجاله ، من كانوا معه
بهندستان ، وإلى زيج كان يستخدّم بالهند ، يقطع بمراجعته لها
هناك ، حتى ذكر في أوراقها الأخيرة أنه أمر بنسخ أجزاء منها
وإعادتها إلى بعض الأمراء الذين طلبوها منه .

وأغلب الظن أن الأجل لو كان قد امتد به لنقح فيها كثيرا
وإصاغ أجزاءها الأخيرة على الخصوص في أسلوب يتمشى مع
رصانة الأسلوب في أقسامها الأولى ، فلا تبقى أشبه بيوميات
تبعث الملل عند قارئها .

ومن أسف أن الأصل الأول لهذه السيرة قد فُقد . وأكمل
مخطوطاتها التي بين أيدينا والتي يرجع تاريخها إلى عام ١١١٢هـ ،
١٧٠٠م (١) به ثغرات خمس تتضمن حوادث تسع عشرة عاما
بها كالآتي :-

١ — من أواخر عام ٩٠٨ هـ إلى نهاية عام ٩٠٩ هـ .

٢ — من أوائل عام ٩١٤ هـ إلى نهاية عام ٩٢٤ هـ .

١ وهو المعروف بمخطوط حيدرآباد ، وقد نشرته السيدة أنيتا بفريدج في
مجموعة جيب التذكارية عام ١٩٠٥ .

٣- من أوائل عام ٩٢٦ هـ إلى أوائل عام ٩٣٢ هـ .

٤- من رجب عام ٩٣٤ هـ إلى آخر هذه السنة .

٥- من المحرم عام ٩٣٦ هـ حتى وفاة الپادشاه في جمادى الأولى

من عام ٩٣٧ هـ .

وقد نقلت هذه السيرة إلى الفارسية في عهد أكبر ، حفيد بابر ،
في نهاية القرن العاشر الهجرى ، كما نقلت إلى بعض اللغات
الأوربية في العصر الحديث . ونرجو أن يتهياً لهذه السيرة القيمة
المتعة من ينقلها بدوره إلى العربية .

إن التقارب الكبير عند الذين أرخوا لباير وعصره وما
وصل إلى أيدينا من سيرته ليجعلنا نميل إلى تصديق حديثه
حين يقول بأنه لا يهدف في كتابته إلا إلى الصدق ولا يجرى
قلبه بغير الحق ، فهو حين يذكر بالخير أو السوء عدواً أو
صديقاً ، أو يشيد بفضائل واحد منهم أو يعيب عليه رذائله ،
إنما يبغي إقرار الواقع فحسب دون ميل أو هوى ^(١) .

والحق أنه في حديثه عن نفسه أو غيره لم يحاول أن يخفى
رذيلة أو ينكر فضيلة ، فصورَ النفس الإنسانية على طبيعتها
بما فيها من خير وشر .

فهو لا يتردد مثلاً عن أن يذكر كلفه ذات مرة بغلام حسن الصورة صادقه بمسكركه ، وقد بلغ به الوجد يوماً أنه كاد يسقط عن دابته حين طلع عليه في طريقه فجأة . ولكنه يقف عند هذا الحد فلا ينغمس في هذه الرذيلة التي شاعت عند عمه السلطان محمود ميرزا صاحب سمرقند ورجاله حتى كثرت اعتداءاتهم على الأهلين بسببها ^(١) .

وهو حين يحمل على عمه هذا ، لفرط عنفه مع رعاياه ، لا ينكر حسن إدارته لشئون بلاده وحرصه على أموالها .

كذلك نراه لا يخفى ولعه بالشراب ، حتى كان نبينذ كابل يحمل إليه بالهندستان ، ويفصل لنا ما كان يجري في مجالس شرابه من عبث ولهو وتطارح بالأشعار . ولم يترك هذا كله ، وهو مقدم على حربه مع الراجپوتين ، إلا ليقبل على تعاطي المعجون في إدمان شديد ، حتى لا تكاد الصفحات الأخيرة من سيرته تخلو من ذكر تناوله له كل يوم .

وهو إلى ذلك يتفاخر في سيرته بأكداس القتلى في معاركه الكثيرة التي خاضها ، فوصفها وصفاً دقيقاً حتى فصل من ضروب

الشجاعة التي كان يظهرها كل فرد من أبطاله. ولا يكتفى بذلك حتى يقارن بين فتحه لسمرقند وفتح السلطان حسين بيقرا المدينة هرات ، كما يقارن كذلك بين فتحه للهندستان وفتوحات من سبقوه إليها من الغزنويين والغوريين وغيرهم ، مع ضآله قواته بالنسبة لعظم جيوشهم فضلا عن كثافة جند الهند نفسها .

وهو إلى جانب تفصيله لانتصاراته يذكر هزائمه في صراحة تامة، ويبين ما صادفه من محن ومتاعب شردته في الأرض وقد انصرف رجاله عنه وتنكر أقاربه له . حتى إذا ما أقبلت الدنيا عليه لم ين عن وصل هؤلاء جميعا ، وفيهم من ركن إلى التآمر عليه من جديد برغم إحسانه إليه ، وفيهم من قتل ذوى قرباه وسمل عيونهم بل وتعرض لآله وآله بالمهانة والسوء . وهو حين يذكر ذلك كله تفيض عليه مسحة من التواضع فيقول بأنه إنما يشبهه تقريراً للحقيقة والواقع فحسب ^(١) .

ويذكر بابر في سيرته جدّه الأكبر تيمور شجوراً بأعماله ومنشأته وآثاره ، كما يفصّل من سيرة أغلب أبنائه وأحفاده ورجالهم . حتى إذا ما بلغ بحديثه السلطان التيمورى حسين بيقرا

إفاض إفاضة عليم متمكن في العلوم والفنون والآداب ، فذكر
من كان يزدهمهم بلاط هذا الأمير ، بهرات ، من الفقهاء والمحدثين
والدعاة والموسيقين ، حتى البهلوانين . عرّف بكل واحد منهم
في إلهاب . فصور للناس بصنيعة هذا صورة شاملة لما كان
لغروب المعرفة من ازدهار كبير يأخذى مراكز الثقافة الإسلامية
الكبرى في عصره . (١)

وأدّى ببابر سعة اطلاعه ، التي تشيع في سيرته ، إلى اقتناء
مكتبة قيمة خاصة به ، كان عليها قيم له يدعى عبد الله كتابدار .
وقد ضم إليها كذلك قسما من مكتبة غازي خان لودهي حين
استولى على حصنه بابلنجاب ، وبعث بالقسم الآخر إلى ابنه
شايون الذي كان يحرص على تنشئته تنشئة طيبة . (٢)

هذا كما كان يرسل أساطين العلماء في عصره ويستقبل الكثير
منهم ببلاطه ، وكان من بينهم الشاعر المشهور علي شير نوائ
والقرخان خواند أهير ، صاحب حبيب السير ، وميرزا محمد حيدر
دوغلات صاحب تاريخ رشیدی .

أما وصف بابر لبلاده والبلاد التي دخلها ، فحسبه أن يذكر

فريق من المؤرخين ، الذين زاروا هذه الأماكن ، أن أغلب ما أورده عن بلاد ما وراء النهر وكابل على الخصوص يصدق عموماً على حالها اليوم . (١)

وهو في وصفه للبلدان لا يدع شيئاً عرفه أو وصل إلى عنه إلا وذكره ، ففي حين يعدد لنا أسماء الرياح التي تهب على كابل ، ويقرر أنه هو أول من أدخل زراعة قصب السكر بها ، إذا هو يذكر لنا أن أهل الهند يطلقون على كل أرض خارج بلادهم اسم خراسان ، مثلما يعرف العرب غيرهم من الأسماء باسم العجم . (٢) وعلى هذا جرى وصفه لسمرقند . فتحدث عن أصل تسميتها وتاريخها ، ووصف وادياها وأسواقها وتجارها وصنائعها وما بها من منشآت ومدارس ومساجد ، كما تحدث عن حكامها وسكانها وما ظهر بها من العلماء والفقهاء ومذاهبهم وفرقهم .

وكذلك ساق الحديث عن خراسان وحاضرتها هرات مقر آل بيقرا ، وفرغانة مسقط رأسه ، ثم الهند التي ذكرنا له قدرا من وصفها تفصيلا فيما سبق .

ولم يكن ظهير الدين بابر في تدوينه لسيرته بدعاً بين أفراد

أسرته على كل حال، فقد سبقه إلى ذلك جدّه الأكبر تيمور، كما
نهج أبناؤه نهجه من بعده .

على أنه يتميز عنهم جميعا بتدوينه لسيرته بنفسه . فلم يكن
ليتأتى لكُتّاب البلاط بداهة ، وهم يدونون سير سلاطينهم ،
أن يذهبوا مذهبه في صراحته التي جرى عليها وصدقه الذي
التزمه في الغالب .

إن بابرنامه قد خلّدت ذكر صاحبها في عالم الأدب والتاريخ ،
كما خلّدت حروبه وفتوحاته في عالم الغزاة والمحاربين . وما من
شك في أن هذه السيرة لتعد من المثل الصالحة التي يستلهمها
أصحاب الطموح على الدوام .

همايون

لم يكن عرش آگرا حين اعتلاه نصير الدين محمد همايون ابن بابر في التاسع من جمادى الأول من عام ٩٢٧ هـ / ١٥٣٠ م ، تحوطة الأزهار والرياحين ، ولم تكن سماء الهند التي تظله تنبئ عن صفو وصفاء .

فقد ترك له أبوه خزانة خاوية استنفدت هباته وعطاياه من أموالها أكثر مما استنفدته حروبه وغزواته . كما ترك له جيشا من أجناس مختلفة ، من الجفتائين والأوزبگك والفرس والمغول ؛ أثارت كثرة الغنائم التي أنجمتهم ، مع اختلاف العرق ؛ شغناء الحسد والخصومات فيما بينهم . أما الأمراء ، أصحاب النفوذ بالبلاد ، وكانوا ما بين خوانين من المغول وميرزاوات من الترك ، فقد ذهبوا بدورهم يؤثرن منافعهم الخاصة على صالح الدولة العام ؛ في حين لم يقنع أبناء بابر الآخرون وأقرباؤه بما أصابوا من ملك حتى ثاروا على أميرهم الجديد فجبرّوا عليه وعلى أنفسهم بذلك كثيرا من المتاعب والمحن .

ولم يكن ذلك هو كل ما تعرض له سلطان الهندستان الجديد

عن مشكلات : فقد كان الهنادكة بدورهم ، وهم غالبية السكان .
يرتفع في الأحكام المسلمين عموما مغتصبين بلادهم وغزاة دخلاء
عنهم . كما كان هناك بقية من الأمراء الأفغان مازالوا بأطراف
البلاد يتربصون بغزاة الهنادك في انتظار الفرص المراتية ليثبوا
عنهم ويخرجوهم من أرضهم .

وأقوى مراكز هؤلاء الأمراء الأفغان كانت بالأقاليم الشرقية ؛
وأبرز زعمائهم كان السلطان محمود لودهى الذى انطلق يجمع شتات
بنى جلدته من جديد بهار ، وكان بابر قد هزمه من قبل فيمن
هزم من عصابة رانا سنگا بالراجپوتانا ، ثم شير خان سورى
ذلك الداهية المجرب الذى سنراه فيما بعد ينزل بالدولة ضربات
فاحشة .

وكانت البنغال ما تزال بعيدة عن متناول أيدي سلاطين دهلى ؛
وكان يلوذ بها أعداؤهم بالمناطق الشرقية فى الغالب . وكذلك كان
تأان الكيجرات التى طفق أصحابها ، وهم سدة باب التجارة
الهندية الأكبر ، يبدلون من فيض بلادهم الغنية لتقوية جيشهم
يستمدون الأسلحة الحديثة من البرتغاليين الذين كان لهم
تمه أطعمهم منازل أشرفنا إليها من قبل ، حتى باتوا يتطلعون إلى
ميرش الهند ، ولم يدخلوا عن مديد العون لأولئك الذين

يناهضون الدولة المغولية الجديدة .

وإئن كانت المدة القصيرة التي استقر فيها بابر بأغرا لم
تيسر له القضاء التام على الخسارجين على سلطانه وتدعيم أسس
دولته الهندية الجديدة : فإن همايون ، وهو الذي تمرّس بأعباء
الحكم حين أتى إليه بمقاليد بدخشان وشارك في بعض وقائع
أبيه الهندية فأظهر من ضروب البسالة والفروسية التي اشتهر
بها الأمراء التيموريون " . كان كفيلا بترسم خطا أبيه
وإتمام ما بدأه من عمل ، لولا تراخيه في كسب ودّ رجال بابر
وخلصائه ، ثم فتور همته وخور عزيمته ، فتراه لا يكاد يمشى في
الإجهاز على أحد خصوصه والقضاء عليه حتى ينصرف عنه
جأه إلى عدو آخر غيره . وهو حتى حين يبالغ غايته في القضاء
على واحد من أعدائه ، كان يستخفه الطرب فينصرف إلى متعة عابرة
غير منتبه إلى وجوب تدعيم ما أحرزه من توفيق أو مستمع
إلى نصح القادة المجريين الذين قادوا جيوش أبيه من نصر
إلى نصر .

بهذا أتيحت لأعدائه فُرَص متكررة لجمع صفوفهم وضمهم

منهم من جديد حتى بلغوا إلى إخراجهم من الهند كلها والقضاء على ما بذله أبوه من جهود .

عمل همايون بوصية أبيه ، فولى أخاه كامران إقليم سي كابل و قندهار ، كما أقطع أخاه عسكري ولاية سنهـل ، في حين أعطى أخاه هندال أوار وموات (١) . أما إقليم بدخشان فقد جعل عليه ابن عمه سليمان ميرزا .

على أن كامران لم يقنع بأرضه ، فاستخلف أخاه عسكري عليها ثم اقتحم مشارف البنجاب بدعوى سيره لتهنئة همايون . ولم يثـنة عن غايته ماعرضه عليه أخوه السلطان من ضم لمغان وبشاور إلى حوزته ، حتى انقض على لاهور واعترف له همايون بسيادته على البنجاب كله .

وأدت سيادة كامران على البنجاب إلى قطع كل صلة بين دهلي وبين البلاد الواقعة فيما وراء الهندكوش ، وهي التي كانت تمد حكام الهند المسلمين دوما بإمدادات لا تنفد من أسـداء المقاتلين .

وتدبر همايون موقفه بين أعدائه من بعد ذلك ، فرأى أن يبدأ بثوار الأفغان الذين عادوا إلى عصيانهم السابق بإقليم

بهار . حتى إذا بلغ لاسكهنساقى اكتفى بضرب قواتهم عندها دون أن يكلف نفسه عناء مطاردتها ، وقد كان ذلك فى متناول يده . وسلك شبه هذا المسلك مع شيرخان سورى صاحب حصن چنار إذ قنع منه بالولاء الإسمى ، مؤثرا أن ينصرف عنه إلى حرب الكجرات ، دون أن يُلْقى بالا إلى خطورة هذا الشئ .

غزو الكجرات : وكان بهادر خان ، أحد سلاطين الكجرات الكبار ، قد أخضع لسلطانه أصحاب أحمد نگر وبار وگواليار ، ووثق علاقاته بالبرتغاليين الذين كانت لهم مستعمرات بشواطئ بلاده ذات المركز التجارى الممتاز ، هذا كما اقتحم إقليم مالوه مع رانا موار بدعوى استضافة صاحبه محمود الخلقى لأخيه جندخان وكان ينافسه العرش ، فصار بذلك يتآخم سلطنة دهلى فى مواضع كثيرة ، وغدت آگرا نفسها غير بعيدة .

وأدى ازدياد نفوذ هذا السلطان إلى أن لجأ إلى بلاده فريق من الخارجين على صاحب آكرا الجديد ، وفيهم علم خان عم إبراهيم آخر سلاطين اللودهيين ، وزمرة من رجال بابر السابقين الذين زينوا له التطلع إلى عرش الهند والسعى

متخـلصـه لنفسه^(١)

وحين كتب همايون إليه يسأله إخراج هؤلاء اللاجئين من بلاده فرفض الاستجابة إلى طلبه ، لم يكن من الحرب بينهما تـد ذلك مناص .

هنالك بادر صاحب آگرا بالارتداد سريعا من المناطق الشرقية ، ولما يتجن بعد ثمار انتصاراته هناك ، حتى إذا ما بلغ مالوه فوجد بهادر خان منهمكا في حربه مع صاحب چتور ، أبت عليه شهامته إلا أن يمهل خصمه فلا يهاجمه حتى يفرغ من اشتبا كاته مع الأمير الراجپوتى^(٢) .

وبرغم ما كان عند بهادر خان صاحب الكجرات بدوره من مدافع أمده بها أصحابه البرتغاليون ، فقد أرغمته قوات همايون على الامتناع فى حصونه ليتسلل من بعد ذلك منها فى نفر قليل من رجاله حين أيقن بانهميار مقاومة قواته لطول الحصار وعنق المجاعة التى بدأ شبحها يخيم عليهم .

وظفق البادشاه يطارد خصمه بنفسه فتبعه إلى ماندو ، ثم چمپنير فأحمد آباد حتى بلغ كمباى فوجده قد لاذ بجزيرة ديو

١ - منتخب التواريخ أول ٣٤٦

٢ - طبقات أكبرى ١٩١

يُحْدِي حصون البرتغاليين حتى اليوم .

وما غدا بهادر خان أن تم له ، بعونٍ من البرتغاليين ، جمع قوات جديدة استطاع بها أن يسترد أغلب أراضيه . ويسر له بلوغ هدفه ما كان من فشل ميرزا عسكري نائب همايون هناك في تصريف شؤون حكومته وانغماسه في الدس والتآمر ، وانصراف أغلب رجاله إلى حياة الترف التي كفلها لهم ما وقع بأيديهم من غنائم هذا الإقليم ذي الثراء الباطل .

على أن سلطان الكجرات لم يكتب له الاستمتاع بثمار انتصاراته هذه ؛ إذ سقط في البحر غدراً بتدبير من البرتغاليين ، وهو في طريقه للتفاوض معهم ، برغم شدة حذره وفرط تحوطه .

وما غدا أصحاب الكجرات أن أعادوا مالوه بدورها إلى حظيرتهم ، وذلك حين خرج همايون من جديد للقضاء على لقلقل الشرقية التي طفقت تهدد ملكه تهديداً خطيراً .

البنغال وبهار : كان شيرخان سوري ، وهو من أقدر الزعماء الأفغان وأوفرهم شجاعة وعلماً ، قد استخلص لنفسه إقاييم بهار . توغل بقواته في البنغال من بعد ذلك فلم تصادفه بها مقاومة تذكر (١)

وما إن توجه همايون إلى البنغال فاسترد إقليم غور حتى
أرشد هذا الشائر الأفغانى إلى إقليم بهار فطفق ورجاله
ينتهبون كافة الأراضى التى تمتد بين بهار وقنوج وجو بنور .
وقضى السلطان شهوراً ستة بالبنغال وقد ظن أن الأمر قد دان
له فى الغالب بالأقاليم الشرقية ، ولم يكن يدرك ، وهو
يطيل فترة استجهامه هناك ، أن عدوه إنما تركه يوغل فيها
ليقطع خط الرجعة عليه ويقضى على ملكه قضاء تاماً بالتالى . حتى
إذا ما تنبه إلى هذا التدبير ، بعد فوات الوقت ، فاستدار إلى
حصمه والأمطار الموسمية على أشدها ، استطاع شيرخان
بدهائه ومناوراته المحكمة أن ينزل بقوات دهلى ضربة حاسمة
أنت عليها جميعا .

فقد جاءت الأنباء إلى همايون ، وهو بالبنغال ، بخروج أخيه
هندال عليه بتحريض من بعض أعيان الأفغان حتى دعى له
مساجد العاصمة ، فبادر فزعا بالارتداد إلى آگرا فى طريق
طويل تعرض فيه جنده لعنف الأمطار الموسمية وأوبئتها حتى
هلك منهم خلق كثير .

هنالك عمد شيرخان إلى خداع السلطان ، وقد علم بتمرد
إخوته عليه ، فأوفد إليه من يؤكد له طاعته وولائه له حتى

إذا ما اطمئن همايون إلى تلك العمود فعرض على عدوه إمارتي البنغال وبهارثما لخضوعه له ، إذا بذلك القائد الأفغانى يهبط في الفجر على معسكره بأرض چوسا ويحيط برجاله ، فمنهم من لفظ أنفاسه وهو يغط في نومه ، ومنهم من لقي حتفه في اليم غرقا . ومنهم من وقع في الأسر . وبرغم ما بذله الساطان همايون نفسه من جهد وما أظهر من جلد في القتال شديد فقد كاد هو نفسه يبتلعه الماء لولا سقاء يدعى نظام أبصر به فحمله على زنته . (١) »

واتخذ هذا الثائر الأفغانى لنفسه ، على أثر انتصاره في معركة چوسا هذه ، لقب شاه وأمر أن تضرب السكة باسمه وتجرى الخطبة بالثناء له . (٢) وأردف ما أحرزه من فوز بتحالفه مع أصحاب السجرات ومالوه على محاربة همايون .

تدبر همايون موقفه فاستبان له أنه لن يكون له قبل بالقضاء على خصمه حتى يمد له أخوته يد العون ويلتف رجاله حوله مخلصين . وعما أمر أن لم تحالفه الظروف على تحقيقها .

١ - تذكرة الواقعات أو همايوننامه جواهر ص ١٤٣ - وقد وقعت زيجة همايون أسيرة بأيدي شيرشاه في هذه الحرب .

٢ - ريان السلاطين ١٤٧ وما بعدها

من ذلك أن أخاه كامران حين انتوى العودة من آگرا إلى
لاهور ، فعزم على ترك أغلب قواته لتشد من عضد أخيه ، أصابه
مرض مفاجئ ، ليُسَلِّقَ أحدهُ رجاله ، عند ذلك ، في روعه باحتمال
دس أخيه السم له ، فيعدل عن وعده ، فلا يسير بأغلب جنده
خشب ، حتى طفق يحرّض فريقا من جند دهلي نفسها بالذهاب معه .
ولم يكن شيرشاه ليعلم ذلك كله ، من أحوال غريمه ، فلا يفيد
من هذه الفرصة التي سنحت له ليقضى عليه . فعبر السكنج في
خمسين ألف من الجند لاقي بهم مائة ألف من جند همايون عند
قنوج . وادّى تراخي جند السلطان في القتال ، حين رأوا كثيرا
من الأمراء الكبار ينسحبون بقواتهم من الميدان مع بدء الأمطار ،
إلى انتصار جموع الأفعان انتصارا ساحقا كان من أثره أن
أُخرج همايون من الهندستان كلها ، وبهذا ذهب كل الجهود التي
بذلها أبوه بابر في فتوحاته أدراج الرياح .

وكاد همايون أن يلقي حتفه في هذه الوقعة غرقا كذلك ، لولا
أن بصر به قائده شمس الدين محمد غزنوى الذى وزر لابنه أكبر
من بعد ، فأنقذه (١) ليعود إلى الهند من جديد بعد خمسة عشر عاما

قضاها في المنفى .

شير شاه

هذا الزعيم الأفغاني ، الذي استطاع بشدة مراسه
وقوة عزيمته أن يخرج الأمراء التيموريين من الهند ، والذي
ينتسب إلى بيت سور الغوري ، كان جده إبراهيم قد قدم
الهندستان في عهد السلطان بهلول اللودهي فنال الخطوة عنده حتى
ولى ابنه حسن إقليم سهرام .

وكان أن أهمل حسن هذا شأن ابنه الأكبر فريد بتحريض
من صُغرى زوجاته ، لينفر الولد من بعد ذلك إلى جونپور ، منتدي
الصفوة من رجال المعرفة بالهندستان إذ ذاك ، ثم يتركها إلى
آگرا فيصادف قبولا وترحيبا ببلال السلطان إبراهيم اللودهي
الذي وهبه إقطاع أبيه عقب وفاته .

ولجأ فريد عقب دخول بابر الهندستان إلى بهار فالتحق
بخدمة صاحبه محمد بن درياخان لوحاني . وفيما كان الأمير في
المصطاد إذ وثب عليه نمر فائق كاد يقضى عليه لولا شجاعة فريد
الذي بادر بالقضاء عليه بسيفه ليدشهر من بعد ذلك باسم شير شاه^(١)

وما غدا طموحه أن دفعه إلى الالتحاق بخدمة جنيد برلاس نائب ناز علي جوناپور ، ثم أتيح له من بعد ذلك أن يظهر بيلال بابر فاتح الهندستان الجديد وينال الحظوة عنده .

وحين عهد بابر إلى جلال خان لودهي بأقليم بهار ، سار معه شير شاه ، ولكنه ما لبث أن انضم إلى عصبة الثائرين التي كان يتزعّمها السلطان محمود لودهي . حتى إذا ما هُزم ههنا الأخير بأقليم خريد ، على ما ذكرنا من قبل ، أقبل ذلك القائد السوري يستتيب بابر من جديد فعفا عنه ، ليسقط على بهار من جديد عقب وفاته ويستخلصها لنفسه ، ثم ما يزال بهمايون حتى يخرجهم من الهند كلها .

ورأى شير شاه ، بعد أن جلس على عرش آكرا ، أنه لا سبيل إلى تأمين حدوده إلا بالقضاء على الأمراء البابر بين الذين ما برحوا يحكمون بأرض كابل وكشمير . فلم يبلغ البنجاب حتى اضطرت ثورته حاكم البنغال إلى الارتداد مسرعا إلى دهلي بعد أن عهد إلى خمسين ألف من جنده بإقرار الأمن عند حدوده الشمالية الغربية منفذ الغزاة إلى سهول الهند منذ القدم .

وأتيح لسلطان الهندستان الجديد هذا أن يثبت نفوذه في البنغال ويخضع السند والمثلثان وما لوه له ، كما أنزل ضربات

شديدة كذلك بالأمراء الهنداكة وبالراجپوتانا برغم استيانتهم في القتال ورغم الخسائر التي لحقت بالجند الأفغان . وتم له كذلك انتزاع حصن كلنجر من أصحابه الراجپوتيين ، لكنه أصيب في معمران المعركة بشظية من قذيفة ، لم يكتب له النجاة من أثرها ، فقضى بعد قليل في عام ٩٥٢ هـ / ١٥٤٥ م بعد أن حكم الهند قرابة سنوات خمسة ^(١) . ولبثت أسرته من بعده تحكم هذه البلاد عشر سنوات استطاع همايون من بعدهما أن ينتزع الملك منهم مرة ثانية بمساعدة طهماسب شاه الفرس الذي آواه في محنته .

هــذا وبعد شير شاه من بين أمراء المسلمين العظام الذين عرقهم الهند . فقد التفت بهمة عالية إلى تنظيم أداة الحكم ، ونهض باقتصاديات البلاد وتعمير الأرض ، وأصلح نظام الضرائب بعد أن أمر بمسح الأرض الزراعية وحصر زراعاتها على اختلاف أنواعها . وقسم أراضى الدولة إلى سبع وأربعين ولاية تضم كل واحدة مراكز عدة جعل عليها عمالا له الزمهم بالسهر على مصالح السكان وجمع الخراج دون تعسف أو حيف .

كما اهتم بأمر الجيش اهتماما بالغا مسترشدا بما سبقه إليه

علا تدين الخاجى من نُظُم فى ذلك. فجعل تحت إمرته المباشرة جيشاً قويا قوامه مائى الف من الجند التزم بدفع نفقاتهم من بيت الإيالة. وكان العرف يجرى من قبل على أن يمد الأمراء وزعماء القبائل السلطان برجالهم فى الحروب على إقطاعات واسعة تقطع لهم وأنصبه من الغنائم والمتاع. وبهذا أراح الناس فى الغالب من تسف أصحاب الإقطاعات وابتزازهم المتواصل لأموالهم وما يملكون.

ونشر شير شاه جنده فى كافة أنحاء البلاد، وعهد إليهم بحراسة الحقول والحفاظة على أرواح الناس ومتاعهم من اعتداءات اللصوص وقطاع الطرق الذين كان لهم فى بعض العصور نشاط ملحوظ وخطر شديد.

وامتدت يده كذلك إلى النهوض بالبريد وتنظيمه، وتحسين الطرق حتى أنشأ منها ما يزيد طوله على الألفين من الأميال المعبدة، وأنشأ على جانبيها الأشجار ذات الظلال، وأنشأها الكثير من محطات المسافرين ومنازل الدواب، وأباحها للمسلمين والهنادكة على تسوية.

وأدى قيام محطات المسافرين هذه إلى تجمع ما يشبه الأسواق الصغيرة من حولها، مما ساعد على رواج أحوال أواسط

التجار وعامتهم^(١).

ولم تكن عناية هذا الأمير السورى (٢) بالعلم والعلماء بأقل من عنايته بتعمير بلاده والنهوض بحكومتها. فقد أنشأ كثيرا من المدارس والمساجد، ورتب الأجور للطلبة والمعلمين على السواء، وحرصهم تحريضا شديدا على طلب العلم والاستزادة منه. كما فتح كثيرا من المطاعم فى أنحاء متفرقة بالهند وأباحها بالمجان للفقراء والمعدمين من أهل البلاد جميعا، مسلمين وهنادكة، فساهم بذلك، فى الغالب، فى تخفيف وطأة المجاعات المعروفة التى كانت تحتاج بعض مناطق الهند من حين إلى حين.

وبلغ من برّه برعاياه والتزامه إقامة العدل فى ربوع دولته، أنه كان لا يتردد فى إنزال أشد العقاب بمن تحدّثه نفسه من رجاله وجنده بالاعتداء على الأهلىين أو السطو على حاصلاتهم وأملأكمهم، فلا تشفع له عنده مكانة المعتدى أو حسبه ونسبه (٣).

همايون فى منفاه: طفق همايون، بعد أن دحره شيرشاه، يُطوف بالسند فى حالة شديدة من البؤس والشقاء، وإخوته

١ — Prasad Muslim. Rule pp 301,2

٢ — نبة إلى آل سور

٣ — Lane-Poole 233-36.

ما زالون يسكيدون له ، وأغلب رجاله قد تخلوا عنه . بل إن صديقه القديم مل ديو ، صاحب جُده هپور ، حاول وفريقه من أمراء الهنادكة أن يوقعوه في أسرهم ، حين دعوه للنزول عندهم ، على اتفاق سابق فيما بينهم وبين شير شاه .
وبنى همايون في تجواله هذا بحميدة بانو ابنة الشيخ على أكبر جاجى فرُزق منها بابنه أكبر (١) .

وانتهى المطاف به إلى قندهار فترك بها ابنه الذى لم يكن يعدو العام الأول من عمره إذ ذاك ، وقد عقد العزم على السير إلى العراق ومعه قائده بيرم خان الذى وفد إليه من الكجرات فلازمه مخلصا طول محنته .

وبلغ همايون سيستان فاستقبله نائب طهماسب ، شاه الفرس ، بها فى ترحيب وتوقير . وكذلك فعل محمود ميرزا أكبر أولاد العاهل الفارسى حين بلغ العاهل النيمورى مقر حكمه بهرات . وظل نواب طهماسب يبالغون فى الحفاوة بسلاطان الهند الشديد على طول الطريق حتى بلغ مقام سيدهم . وراحى قزوين .

وكان أن أفاض همايون فى بيان ما لقيه من محن ألمت

به بسبب تذكر إخوته له ، حتى خشي بهرام أخو طهماسب أن
أن تذهب الظنون بالشاه بديره إلى القضاء على إخوته .
هنالك حاول بهرام هذا أن يزين لأخيه العاهل الفارسي قتل صفيه
التيمورى ، بحجة الانتقام منه لتقاعس أبيه بابر عن نصرة
جند فارس فى قتالهم الأوزبكيك عند نخشب أيام إسماعيل
الصفوى ، لولا أخت طهماسب ، تدعى سلطانة خانيم ،
استطاعت بحكمتها ونفاذ كلمتها أن تحبط هذا التدبير كله (١) .
وأكره همايون على التظاهر بالتشيع جلبا لمعونة الشاه
الفارسي الذى أمده بأربعة عشر ألفا من الجند ليغزو بهم
بخارى وكابل وقندهار ، على أن يصبح إقليم قندهار بعد فتحه
من أملاك الدولة الفارسية .

واقترح همايون بجنده القزلباش أراضى أخيه كامران ،
فبعد فتحه لقندهار كثيرا فى عزمته ، وبُيعت بذلك الآمال
العريضة فى نفسه من جديد .

وصدق همايون ما عاهد عليه الشاه طهماسب فسلم المدينة
إلى ابنه مراد خان . على أنه حين طلب أن يأويه وجنده
القليل إبان الشتاء فرفض ، دفعته قسوة البرد ورجاله إلى

اقتحام المدينة على صاحبها عذوة على أن يردّها له ثانية إذا ما تمّ لهم دخول بدخشان وكابل . وما غدا الأُمير الفارسي أن وافته منيته بعد قليل ، فبقيت المدينة بيد همايون . وطمق جند كثير من قوات كامران تفد إلى همايون في مقامه هذا بعد أن هجروا مضارب أميرهم ، فدخل بهم كابل حبت التقى بابنه أكبر ، وقد بلغ الخامسة من عمره ، وكان قد تركه دون الفطام بقدهار كما ذكرنا من قبل .

وتبادل الأخوان المدينة مرات عدة حتى انتهى الأمر بكامران إلى الفرار منها ليلتجأ من بعد ذلك عند السلطان سليم شاه سور خليفة شيرشاه . حتى إذا ما اضطره ما قوبل به من جناء عنده للزوح إلى السند فاستقر بمنازل البجكر ، بادر ضميمهم بتسليمه إلى أخيه . ومنع همايون من التذكيل بكامران ما عساه به أبوه بابر ، من قبل ، من الرقيق بإخوته ، فسمح له تنسیر إلى مكة المكرمة والاعتكاف بها ، بعد أن سمحت عيناه . وما لبث عسكري أن سار في أثر كامران إلى الحجاز كذلك ، أن وقع بدوره في الأسر ، لكن الأجل وافاه ، في طريقه ، من الشام . أما هندال ، فكان قد لقي حتفه بأرض كابل حين

كانت قوات همايون تطارده وأخاه كامران (١) .
وهكذا نفّض همايون يده من إخوته جميعا الذين أدوا ،
بتخليهم عن نصرته ومداديتهم على الكيد له ، إلى أخرجه
من الهند وضياع كافة الجهود المضنية التي بذلها أبوهم من
قبل في فتح هذه البلاد أدرج الرياح .
وحين أطل على سهول الهندستان من جديد ، آثر أن
يتريث قليلا فلا ينحدر إليها قبل أن يطلع اطلعا صحيحا على
ما صارت إليه أحوالها .

خلفاء شيرشاه : غدت سلطنة دهلـى تضطرب أمورها
اضطرابا شديداً عقب وفاة شيرشاه . ذلك أن ابنه جلال الذي
خلفه باسم السلطان سليم (إسلام) شرع منذ مستهل حكمه
يسلك طريق العنف مع الأمراء الأفغان ، فقتل فريقا منهم
وألقى بفريق آخر في الحبس ، وبث عيونه وجواسيسه في طول البلاد
وعرضها لينبئونه بكل ما يحدث فيها ، فيتخذ من أنبائهم دون تحرر
أو روية وتدقيق ، وسيلة للعسف بالقوم والتنكيل بهم .
وهكذا أعاد هذا السلطان سيرة إبراهيم اللودهي مع رجاله من

جذب . حتى إذا ما ثار عليه عظيم همايون نائبه على البنغال ، لما بلغه من إيقاعه بالقائد القدير شجاعت خان نائب أبيه على مالوه ، فغلب البنغالي على أمره ، خرج السلطان من نصره هذا ليعن في ارتكاب المظالم ، حتى صار يتصرف في أموال الدولة وفق هواه المطلق ويعطل أغلب السنن الحسنة التي جرى عليها أبوه من قبل .

وخلفه ابنه الصبي فيروز شاه فوثب عليه خاله مبارز خان ، ولما يئس إلاّ أياماً قليلة على العرش ، ليقتله وبسطلع بشئون الحكم باسم السلطان محمد عادل شاه (عدلى) .

واستوزر هذا السلطان هندوكيا على الهمة يُدعى هيمو (هيمون) . لكن كفاءة هذا الوزير لم تستطع أن تُحد من ثورات الأمراء الأفغان التي أخذت تحتاح البلاد في عنف بالغ ، وكان من أخطر نتائجها استيلاء إبراهيم شاه سور على عدلى وآگرا ليطرده منها بعد قليل سكندر شاه سور ويضع يده على الأقليم الواقع بين السند والكنج كله .

وما غدا هيمو أن استرد آگرا لسيده ، فصارت الهندستان ذلك نهبا لسلطين ثلاثة . فهذا عادل شاه بحكم آگرا ومالوه و جونپور ، وإلى جانبه سكندر شاه تخضع له دهلي والبنجاب ، في حين كان إبراهيم شاه يسيطر على رقعة من الأرض تمتد من

نيانه إلى حدود كواليار^(١).

عودة همايون : رأى همايون في هذه الاضطرابات الفرصة المواتية لاسترداد بلاده ، فانتحم لاهور في ربيع الأول من عام ٩٦٣هـ / ١٥٥٥م دون مقاومة تذكر . ليهزم من بعد ذلك جيوش سكندر شاد سوري عند سرهند هزيمة حاسمة^(٢) ويدخل دهلي بعد أن اتخذ أميرها سبيله إلى جبال البنجاب فرارا .

ويرد الفضل في انتصارات همايون هذه كلها إلى قائده بيرم خان التركماني الذي أبى دون أغلب رجاله أن يتخلى عنه في محنته ، وقد كافأه أميره على وفائه هذا بأن ولاه البنجاب مع ابنه أكبر وعهد إليهما بمطاردة ذلك الأمير السورى .

ولم يطل الأجل بهمايون ليحظى ثمار جهاده الطويل الشاق ، فقد انزلت به عصاه وهو يصعد درج مكتبته بدهلي ، وكان من المرمر الخالص ، ففضى بعد قليل في ربيع الأول من عام ٩٦٣هـ ١٥٦٦م ، وهو في الحادية والخسين من عمره ، ولما يمض بالهند ،

١ — تاريخ سلاطين أفغانى ٤٥

٢ — طبقات أكبرى ٢٣٨ — وفي هذه الواقعة ، التي بلغت فيها قوات اسكندر سوري أربعة أمثال قوات همايون . شارك أكبر أباه الحرب الأولى مرة .

وقد آب إليها بعد غياب طويل ، سوى شهور ستة .
لم يكن همايون دون أسلافه التيموريين في الشجاعة
والجرأة ، فقد شارك أباه أغلب حروبه وترسم خطاه في التجمّل
بالصبر واحتمال الشدائد ، فلم يفارقه جدّه وثباته طيلة محنة المنفى ،
إنتى بلغت خمسة عشر عاما ، لولا ما كان يداخله من الغرور
وينقصه من مضاء العزم الذى قعد به فى الغالب عن المضى فى
مطاردة أعدائه والإجهاز عليهم ، فكان يقنع بأول ضربة ينزلها
بهم ولا يزيد .

كذلك عُرف عن همايون شغفه ، كآبيه وأجداده ، بالفنون
والعلوم والآداب . وقد ترك ، فيما ترك ، مكتبة عامرة بالمؤلفات
القيمة لا يزال بناؤها قائما بدهلى حتى اليوم . ولولا المنية التى
عاجلته لأتمّ بناء المرصد الذى كان قد شرع فى إقامته هناك .
ومن أسف أنه ورث عن أبيه عادة تعاظم المعجون
(الأفيون) الذى بكسر بنهاية الأب وهذ من كيان الإبن .

أكبر

وصلت أخبار وفاة همايون إلى ابنه أكبر وهو في كلاتور بالپنجاب يطارد الثائر سكندر سوري ، فبادر مرافقه القائد الشيخ بيرم خان إلى المناذاة به سلطانا على الهند، باسم جلال الدين محمد أكبر (١) ، ولم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشرة من عمره . ويُقسّم المؤرخون مدة حكم أكبر إلى امتدت من عام ٩٦٣ هـ / ١٥٥٦ م حتى عام ١٠١٣ هـ / ١٦٠٥ م إلى فترات ثلاث : فالفترة الأولى هي التي كان زمام الحكم الفعلي فيها بأيدي الوزير الشيعي المجرب بيرم خان الذي كان خير معين لهمايون في منفاه . وأما الفترة الثانية فهي التي حاول فيها بعض نساء القصر إملاء رغباتهن على السلطان الشاب، وذلك بعد أن أفلحن ، بالدس والوقعة والخداع ، في إبعاد بيرم خان من منصبه بسبب تشييعه وتقويض ما كان له من نفوذ بالغ . وكانت الفترة الثالثة ، وهي التي انفرد فيها أكبر بالأمر كله ، أطول هذه الفترات

١ — كان ذلك في يوم الجمعة الثاني من ربيع الأول عام ٩٦٣ هـ / مارس ١٥٥٦ م. منتخب التواريخ ثلث ص ٨

جميعها إذ امتدت من عام ٩٦٩ هـ / ١٥٦٢ م حتى وفاته
عام ١٠١٣ هـ / ١٦٠٥ م .

وتتعد هذه الفترة الثالثة كذلك من أزهر عصور الهند
التاريخية . ومن أجلها اعتبر المؤرخون القدامى من هنادكة وغيرهم ،
السلطان أكبر أعظم عاهل عرفته الهند منذ أيام آشوك (آزوكا)
حامى البوذية في القديم ، كما سلكه المحدثون من كتّاب التاريخ في
عصاف أعظم الملوك الذين عرفهم العالم في عصره طُوراً .^(١)
وكما يقسّم المؤرخون مدة حكم هذا السلطان إلى فترات ثلاث
نذلك يسلكون غرواته وفتوحاته في أدوار ثلاثة :

الدور الأول ، ويبدأ من عام ٩٦٥ هـ / ١٥٥٨ م حتى
عام ٩٨٣ هـ / ١٥٧٦ م .

وفيه بسط أكبر سلطانه على الهندستان كلها .

الدور الثاني ، ويبدأ من عام ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م حتى

عام ١٠٠٤ هـ / ١٥٩٦ م .

وفيه تم له تأمين حدوده الشمالية الغربية ومناطقها التي تعدد
أخطر أبواب الهند ، فهي منفذ الغزاة الفاتحين إلى سهول السند
والسنج منذ القدم .

الدور الثالث ، ويبدأ من عام ١٠٠٦ هـ / ١٥٥٨ م حتى عام ١٠٠٩ هـ / ١٦٠١ م وهو الذى طفق أكبر يتوغل إبانته بالدكن حتى تم له ضم أغلب مناطقه للملكة .

والواقع أن الهندستان ، حين جلس أكبر على عرشها ، كانت تفيض بالاضطرابات . فأمرأ أسرة سوري ، خلفاء سيرشاه ، كان منهم سكندر شاه بالپنجاب يتحفز للأنتقاض على دهلي وآگرا واسترداد الأراضى التى أخرجهم همايون منها ، فى حين استقر محمد عادل شاه سوري فى چنار بعد أن أخرجهم ابراهيم خان سوري من دهلي ، وبعث بقائده الهندوكى هيمون على رأس قوات كثيفة وقف بها غير بعيد من العاصمة فى ارتقاب الفرصة المواتية لاستردادها من جديد ، هذا كما كان هناك أمراء آخرون من آل سور يستأثرون كذلك بالأمر كله فى البنغال .

ولم تكن أسرة سور هذه هى وحدها التى تهدد سلطان أكبر بالهند ، فإن ميرزا حكيم ، أخا أكبر ، كان قد أعلن استقلاله بكابل ، أرض الرجعة لسلاطين المسلمين بالهند وطريق الإمدادات إليهم التى كانت تمدهم بحاربى بلاد ماوراء النهر الأشداء ، ثم أخذ من بعد ذلك يرنو ببصره إلى أرض الهند نفسها

ويستأج إلى الجلوس على عرشها .
وكانت ولايات السند والمثلث وكشمير قد انفصلت عن
سند دهلئ بدورها لستين خلت ، في حين راح الأمراء
الراجپوتون ، في موار وحسالمير وبوندي وجندهور ، يغتمون
ما اتاحه لهم اضطراب الأحوال من فرص لاستعادة الكثير
من سلطانهم القديم ونفوذهم ، واستردت مالوه والكجرات
استقلالهما الضائع وثبتت أمراء الدكن المسلمون أقدامهم في
بلادهم من جديد ، في خاندش ، وبرار وييدر وأحمد نگر
وبيجاپور وغولكونده .

ومن وراء أولئك وهؤلاء جميعاً كان الأمراء الهنادكة ،
أصحاب إمارة ثيايانگر في الجنوب ، يجهدون في المحافظة على
استقلالهم من إعتداءات جيرانهم أمراء الدكن المسلمين .

وكان البرتغاليون بدورهم يقيمون في حصونهم القوية في جوا
وبرا على شاطئ الهند الغربي بعد أن خاضوا غمار معارك
بينة عنيفة ضد سلاطين الكجرات المسلمين وأعوانهم من
سلاطين الممالك المصرية والعثمانيين .

ونتيجة عن انتصار هؤلاء المستعمرين أن اشتد خطرهم وتفاقم
في مناطق الخليج العربي وبحر العرب والمحيط الهندي

وعند منافذ البحر الأحمر حتى اقتربوا من شواطئ الحجاز
وراجوا يهددون طرق التجارة الهندية والحجّ الإسلامي إلى
البيت الحرام (١).

حرب آل سور : رسم أكبر ورجاله خطتهم على أن يعملوا
أولا على التخلص من آل سور ، خلفاء شير شاه ، الذين كانوا
يحجّدون لاسترداد عرش الهند . وفيما كان جند الدولة يحشد في
في مطاردة سكندر شادسور بالپنجاب هاجم هيمون قائد محمد عادل
شاه سور مدينة آگرا في خمسين ألف من الخيل وخمسمائة من
الفيول .

وكان هذا القائد الهندوكي ، الذي يشتهر في كتب التاريخ باسم
البقال (٢) ، قد تم له من قبل دحر إبراهيم شاه سور ، بالقرب من
دهلي ، وكاد يقتحم عليه مقله في بيّانه لولا ما كان من زحف
سكندر خان صاحب البنغال على أملاك عادل شاه في جونپور

١ — انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٢١١ ، ٢١٢ .

٢ — كان هيمون في أول أمره بقالا بمدينة روارى باقليم موات ثم عهد إليه
بمراقبة الأسواق حتى صار مديرا لإمدادات الجيش ، غير أن لقب بقال لصق به طول
حياته . ومازك يرتق حتى بلغ مرتبة القيادة وصار وكيلا (وزيرا) للسلطان محمد
عادل شاه الذي كان يشتهر ببين العامة باسم عدلي (طبقات أكبري ص ٢٤١)

وكالبي . وما إن تم هيمون دفعُ قوات البنغال عن أراضي أميره
حتى اقتحم حصن آگرا وأرغم سكندر أوزبگك قائد أكبر
هناك على الارتداد إلى دهلي .

هنالك بادر أكبر من فوره بتسيير قائده عليقلي خان زمان
إلى دهلي لمؤازرة تردى ببيگخان ورجاله في الدفاع عن هذه المدينة
وصد جحافل هيمون عنها ، فلم تبلغ الإمدادات مكان المعركة
إلا بعد فوات الفرصة .

فلقد تمكن رجال الميمنة المغولية من دفع جناح العدو المقابل
لهم أول الأمر ، إلا أن هيمون استطاع بقواته الرئيسية في القلب
أن يدحر القائد المغولي تردى خان حتى بادر بالانسحاب من
الميدان دون أن يفتن إلى عدول خصمه عن مطاردته ، فقد فتَّ
في عضده تأخر وصول الإمدادات إليه من جهة ، وعظم قوة
عدوه من جهة أخرى .

واتخذ هيمون لنفسه على أثر هذا النصر لقب بكرماديت
(شكرماديت) (١) الهندوكي القديم ليعلن بذلك عزمه على

١ — وهو من الأبطال الذين يمجدهم تاريخ الهند القديمة وأساطيرها على السواء .
وكان قد أخرج السيث والسكا من الهند ووحدها تحت حكمه (الجزء الأول ص ٣٢ ، ٣٣)

إحياء أجداد أمته القديمة ومناهضته للإسلام والمسلمين . فلم يكتب بإهمال شأن سيده عادل شاه، حتى راح يضرب السكة باسمه ويولى خاصته ورجاله مناصب الدولة وشئون الولايات .

وبرغم عنف المجاعة التي كانت ما تزال تجثم على دهلي وآگرا وبيانه وماحولها حتى طعم الناس الجشيفَ وهلك خلق كثير ، فإن هيمون لم يتردد عن مطاردة قوات أكبر حتى ميدان پانی پت ، وهو الميدان الذي انتصر فيه ظهير الدين محمد بابر بقواته القليلة على حشود الهند الكشيفة لثلاثين عام خلت .

وهال رجال أكبر كثرة قوات هيمون ، التي كانت تبلغ مائة ألف من الجنـد وخمسمائة من الفيول ، بالقياس إلى ضالة قواهم التي لم تكن تعدو عشرين ألفا مابين فرسان ومشاة ، حتى أشار أغلبهم بالارتداد إلى أرض كابل . لولا إصرار السلطان ووزيره بيرم خان على القتال .

هنالك عهد أكبر إلى صهره خضر خان بمواصلة قتال سكندر سور . ثم خرج هو على رأس قواته للقاء الأمير الهند وكى وعصبتة . استطاع هيمون أول الأمر أن يكتسح جنـاحي جيش أكبر ، برغم سقوط مدفيعته بأيدي عدوه ، غير أن سهماً أصابه فألقى به من فوق فيله الذي كان يدعى « الهوا » ، تخنقه حركته البالغة .

وحين طلب إلى فيّاله أن يسير به وبدابته إلى خارج الميدان توهم
خطه وقوع الهزيمة بهم ، فانفرط عقدهم لساعتهم وتفرق شملهم
بوقع هيمون نفسه في الأسر . وفي هذه الوقعة لقي كثير من
الأمراء الأفغان حتوفهم .

وأبت على أكبر شهادته أن يستجيب لوزيره بيرم خان ، حين
أشار عليه بقتل أسيره ، محتجا بأنه ليس من المروءة التنكيل
بأعزل جريح " ، غير أن الوزير وثب على هيمون وقتله ، ثم بعث
برأسه إلى كابل وبجنته إلى دهلي ليرى العصاة في مصير صاحبها عبرة
لهم وعظة .

ودخل السلطان المنتصر دهلي من جديد ، فاستقبله الأهليون
على اختلاف طبقاتهم بحفاوة بالغة . وما غدا أن أقبل عليه
پير محمد شرواني ومعه أموال هيمون وما كان بخزائنه في مِوات
من نفائس ، وفي ركابه خاصة أتباعه وأهل بيته .

وفتت هزيمة ذلك القائد الهندو كي الكبير ومقتله في عضد
أمراء أسرة سور ، ونال اليأس من نفوسهم منالا شديدا ، فما
إن خرج أكبر إلى لا هور فبلغ جالندهر حتى رجع سكندر سور
من تلال سيوالك إلى حصن ما نكُت فاعتصم فيه . حتى إذا

ما قدم أكبر ومدفعيته فشدد الحصار عليه ، لم يجد بُدّاً من طلب الصلح ، مع التعهد بالولاء التام للسلطان ، على أن يُسمح له بالمسير إلى البنغال في أمان .

وحفظ أكبر على هذا الأمير كرامته فولّاه بهار وخريد في الشرق ؛ فلبث بها حتى وافته منيته بعد عامين .

أما عادل شاه سور فقد اقتحم عليه مقرّه في چنار ، خضر خان وإخوته فدحروا قواته وقتلوه انتقاماً منه لمقتل أبيهم محمد خان بنغالي بظاهر آگرا .

وحاول شیر شاه الثاني بن عادل شاه هذا أن يستحوز على جونپور بعد مقتل أبيه ، لكن خانزمان قائد أكبر تصدى له ودحره وضم كل أراضيه إلى أملاك الدولة .

أما إبراهيم شاه سور فقد زينت له بعض القبائل الأفغانية الإستيلاء على ولاية مالوه . حتى إذا أخفق في هذا الأمر انطلق إلى ولاية أوريسه في إقليم البنغال فبقى بها حتى عام ٩٧٥ هـ / ١٥٦٨ م حيث ألقى مصرعه على أيدي القائد المغولي سليمان كيراني . (١)

وعرف الپادشاه لوزيره بيرم خان همته وحزمه في القضاء على آل سور . خلفاء شیرشاه ، على الخصوص ، فأنعم عليه بلقب خان

حانان (أمير الأمراء) وجعله وكيلا للسلطنة وزوجه ابنة أخته .

والحق أن هذا الوزير المجرّب بذل جهدا صادقا في تصريف شؤون الدولة على أحسن وجه ، كما نظم الإدارة ، وبعث بالجند ففتحت گواليار وآچمير واقتحمت جونپور وأمنت الحدود الشمالية الغربية ، فأمكن بذلك لسلطنة دهلي أن تستعيد أغلب الأراضى التى كانت لها أيام بابر . وعمل كذلك ، وهو فى غمرة مشاغله الكثيرة ، على تثقيف السلطان الشاب ، وحثه دواما على طلب العلم والتزود بالمعرفة .

غير أن هذا الوزير الشيعى طفق يحابى أبناء مذهبه ويخصهم بالمناصب الرفيعة فى الدولة ويمعن فى اضطهاد السنّيين جملة ، أصحاب الغالبية بين مسلمى الهند ، مستغلا فى ذلك حادث اندحار القائد السنّى تردى بگخان أمام القائد الهند وكى هيمون فى معركة دهلي ، حتى فاضت النفوس بالسخط الشديد عليه .^(١)

واستغلّ نساء القصر ، وعلى رأسهن حميدة بانوييگيم

١ — ليس هناك ما يؤيد ماذهب إليه بداونى « منتخب التواريخ نان ص ١٤ » من حصول بيرم خات على أمر صريح بقتل تردى بك بسبب هزيمته . وقد أثارت فتنة بيرم خان هذه نفوس رجال البلاط Muslim Rule. 316

أم السلطان وما هم أنكه مرضته ، ما كان من تصنيق الوزير على السلطان في النفقات وما أشيع من ميله سرّاً إلى أبي القاسم ابن كامران ^(١) ، الذي كان يطمع في الجلوس على عرش الهند ، فرّحن يحرّضن أئبر على إبعاد مستشاره الداهية عن منصبه .

وأحسنّ بيرم خان بدوره بنفور أكبر منه ففقد النيّة على الابتعاد عن البلاط بالسير إلى البيت الحرام . حتى إذا ما بلغه تسيير السلطان الجند في أثره ، خافه أن يستحوذ على البنجاب ، على مادمس الدساسون ، استبد به الغضب فأعان عزمه على مناهضة قوات الدولة ، غير أنه وقع في الأسر . وقد عفى عنه أكبر على كل حال وذلك لسابق أياديه وعظيم خدماته ، وسمح له بالانطلاق إلى الحج .

وفيما كان بيرم خان يجتاز الكجرات عام ٩٦٨ هـ ، في طريقه إلى البيت الحرام ، اغتاله أفعانى ، يدعى مبارك خان لوحانى ، كان أبوه قد لقي مصرعه على يديه . وعلى أثر مقتله

١ - هو ابن عبدالكبير

٢ - منتخب التواريخ ثان ص ٣٣

احتضن أكبر ابنه عبد الرحيم بيلاطه وكان إذ ذاك في الرابعة من عمره ، فإزال يرعاه حتى بلغ أكبر مناصب الدولة .

هكذا تخلص أكبر من نفوذ وزيره الشيخ ليتع تحت تأثير حاضنته الداهية ، على الأخص ، حتى كان لا يرم في الغالب أمرا دون رأيها . وطفقت هذه السيدة تعهد بمناصب الدولة إلى أتباعها وفق هواها وترفع من مقام ابنها أدهم خان ، وإن لم تستطع أن تباع به الوزارة على كل حال .

على أن أكبر ما غدا أن تكشف له خطورتها بمد قليل عليه فأخذ يراقب ساوكها وعصبتها بعين اليقظة والحذر . فحين بعث بأدهم خان ومعه پير محمد شرواني لفتح مالوه فدخلها عام ٩٦٧ هـ / ١٥٦٠ م ، بعد أن هزما بازبهدر بن شيناعت خان خاصة خيل نائب شيرشاه السابق عليها ، فلم يصل إلى آگرا من غنائم الفتح إلا القليل ، دفعته الريبة في سلوك قائده هذا إلى أن يفاجئه بظهوره هناك ليطلع بنفسه على ما بحوزته من أسلاب ضخمة ، ولم يملك أدهم خان عند ذاك إلا أن يدعى بأنه كان بسبيل إرسالها إلى العاصمة .

وانفرد پير محمد شرواني بالحكم في مالوه على أثر استدعاء أدهم خان إلى آگرا لينطلق من بعد ذلك إلى أعمال السلب

والنهب والتخريب في كافة المناطق المجاورة لإمارته حتى شواطئ نهر زربدا الجنوبية ، فلم ينج من أذاه مسلم أو هندوكي أو مسجد أو معبد ، حتى اجتمع الأهلون عليه ليتاح لأميرهم السابق وأصحابه استرداد بلادهم بمعونتهم من جديد ، وما زالوا يطاردون نائب أكبر هذا حتى لقي حتفه غرقا في نهر زربدا وهو في طريقه إلى ماندو فرارا (١) .

وما غدا الپادشاه أن بعث بقائده عبد الله خان أوزبگك بعد قليل فاسترد هذه الولاية من جديد . وقد لاذ بازبهادر بيلاط أداى سنغ ، أحد امراء مروار ، ثم ما لبث أن سعى إلى التماس الصفح من الپادشاه فأجيب إليه .

كذلك لم يمنع حرّ الهند أكبر أن يسير إلى جونپور فيفاجىء عامله هناك عليقلی خان الاوزبگى بدوره ، كما فاجأ أدهم خان بمالوه من قبل ، ويردّه إلى طاعته .

ذلك أن هذا القائد ، بعد أن تم له رد جموع الأفغان التي التفتت حول شيره شاه الثانى بن عادل شاه سور بمحصن چنار نخرجت تبغى الاستيلاء على جونپور ، بدا من تصرفاته وعصبته من الاوزبگك ، الذين كانوا في رعاية بيرم خان من

فيل ، ما أثار الريب في نفس الپادشاه حتى خرج إليهم بنفسه .
ثما إن غادر كالبي فباع قره حتى جاء إليه عليقلی خان وأخوه .
هادر خان فجدد له الولاء وإن عاود العصيان بعد ذلك
بيضع سنين .

بالغ أكبر في هذه الأثناء مبلغ الرجال ، وغدا يدرك مدى
خطورة المسؤوليات التي يلقيها عليه منصبه ، فاتخذ له وزيرا من
رجال أبيه الأكفاء المخلصين ، هو شمس الدين محمد أتسكه . حتى
إذا ما ثارت عصبه ما هم أتسكه ، مرضعة الپادشاه ، لهذا الإجراء ،
ورأت فيه ما يحمد من نفوذها ، فبرز أدهم خان بن ما هم أتسكه
في زمرة من رجاله فوثب على الوزير وهو يؤدي فريضة الصلاة
بالبلاط فقتله ، باغت أكبر القاتل وقبض عليه بنفسه ثم أمر
فقُذِف به من حالق حتى هلك ، وماغدت أمه أن لحقت به كمدا
بعد قليل .^(١)

تقريب الهنداكة : هكذا قضى أكبر القضاء التام على
دسائس نساء القصر ومن سار سيرتهم إثر مقتل وزيره ليبدأ

بذلك عهداً جديداً في حكم الهند . ذلك أن بصيرته قد هدته إلى وجوب العمل على توحيد سكان الهند جميعاً مسلمين وهنالك تحت رايته ، فطلق في سبيل تحقيق هذا الأمر ، يقرّب زعماء الهنداكّة وأمراءهم منه ويفتح لهم أبواب بلاطه ويعمد إليهم بالمناصب الرفيعة مدنية وعسكرية على السواء : فكان من أشهر إليهم من كبارهم راجا بيهر مل أمير جايبور الراجبوتي ، كما كان من قديم المناصب الهامة راجا تُدر مَلّ ، الذي خلف خواجه ملك اعتماد خان ، فسار في شئون الدولة المالية على الخطّة الحسنة التي كان اختطها شير شاه في إصلاحاته . من قبل ، بعد أدخل عليها قدرا من التعديلات والتحسينات .

كذلك رفع أكبر الجزية ، التي كانت تُفرض على الهنداكّة والرسوم التي كانوا يلزمون بها عند الحجيج إلى مقدساتهم ، فغدا رعاياه جميعاً على قدم المساواة فيما يلزمون به من واجبات وما يتمتعون به من حقوق . وكان صنيعه هذا كله هو البداية العملية لتحويل الهنداكّة وأمراءهم من أعداء للدولة إلى خدام لها وحياة لأراضيها .

حروب الشمال والوسط : التفت أكبر إلى الفتوحات على نهج أجداده ، فاندفع في حروب وغزوات تكاد حلقاتها

تتصل حتى عام ١٠٠٩ هـ / ١٦٠١ م لينتهى بذلك إلى تدعيم ملكة من جهة وتوسيع رقعة دولته من جهة أخرى :

غوندوانا : تبدأ هذه الفتوحات بغزو غوندوانا إحدى إمارات الوسط ، وكانت تحكمها ملكة هندوكية تدعى راني درگاوتي وصية على ابنها الصغير برنرايان ، وقد اشتهر اسم هذه المملكة في التاريخ لاستماتتها في الدفاع عن بلادها حتى سقطت في ميدان الشرف .

و حين استبان لابنها الصغير بدوره استحالة الوقوف في وجه أصاف خان قائد القوات المغولية آثر تناول السم (الجواهر) على التسليم لأعدائه فلحق بأمه .

وعوق من خطة أكبر في الفتوح ، بعد ما أصابت قواته أسلابة كثيرة في غوندوانا ، ما كان من انتفاض الأوزبك ، رجال ييرم خان القدامى عليه . ولئن انتهى الأمر سريعا بعبدالله خان الأوزبكي إلى طرده من مالوه بعد هزيمته حتى لجأ إلى الكجرات ، فإن عصيان أخيه عليقلي خان زمان في جونپور وما حولها ، حتى جهر بخلع طاعة أكبر والدعاء لأخيه حكيم مكانه ، قد اقتضى من السلطان الكثير من الوقت والجهد لئلا يكلفه القضاء عليه .

ذلك أن أكبر لم يسكد يمضى فى مطاردة قوات الثائر
الأوزبكي ، حتى بلغه مهاجمة أخيه للنجاب ، بتحريض من
الأوزبكي بعد أن طرده سليمان شاه صاحب بدخشان من
كابل ، مستعينا فى ذلك بالقوات التى كان أخوه قد بعث
بها إليه لتجده .

ولم يكن الپادشاه ليغفل عن أهمية المركز الاستراتيجى لمنطقة
الحدود الشمالية الغربية التى تعتبر باب الهند ، فبادر من فوره بـرد
أخيه وقواته عنها كلها بعد أن كانوا قد دخلوا لاهور .

وما غدا حكيم خان أن استرد حاضرتة كابل من أيدي
سليمان شاه واستقر بها ، ليعود أكبر من بعد ذلك مسرعا إلى
المناطق الشرقية ثانية ، فايزال يطارد الثائر الأوزبكي وعصبته حتى
التجم بهم عند ما نيسكپور حيث سقط خانزمان فى الميدان ، فى
حين استسلم أخوه بهادر خان وفريق كبير من بنى جلدتهم فأوردوا
جميعا مؤرد الردى ^(۱)

واستبان لأكبر أنه لن يصير له السيادة على الهندستان كله
إلا إذا تم له اخضاع حصونه الكبرى التى ما يزال فريق من

الأمراء الراجپوتين يسيطرون عليها ويعتصمون بها .
 چتور : يُعد حصن چتور أَمْنَعَ هذه المعاقل جميعا ، إذ
 كان يقوم على سلسلة من الاستحكامات القوية تمتد لمسافة أميال
 ثمانية على نُتوء من الصخر يبرز على ارتفاع شاهق في السهل .
 وكان صاحبه أوداي سنغ رائا موار قد غدا يأوى عنده فريقا
 من الخارجين على سلطان أكبر من أمثال بهادرخان أمير مالوه
 السابق ، فضلا عما كان يسديه من العون ويذله من التضديد
 لأبناء عمومة الپادشاه من الطامعين في ملكه .^(١)

ولم تمتنع هذه المعاقل على جند الدولة برغم وعورة إمساكها
 واستماتة جاي مل وفتح (بتا) سنغ قائدی الأمير الراجپوتي
 ورجالهما في الدفاع عنها بعد أن لازم سيدهم وأسرتهم بالجبال . فقد بلغ
 من عزم المدافعين حين رأوا زمام الأمر يقلت من أيديهم ، أن
 عمدنساؤهم وشيوخهم إلى قتل أنفسهم بأيديهم ، فمهم من جرع السم ،
 ومنهم من عرض نفسه على نيران المواقد . ثم فُتحت أبواب
 الحصن من بعد ذلك لتتطابق الحامية منه فتشتبك مع مهاجميها في قتال
 وحشي عنيف قى فيه أغلبها .^(٢)

١ — تاريخ الی ١٧٠ — ١٧٤

٢ — منتخب التواريخ ثان ١٠٤

وأثار ما أظهره الراجپوتيون من ضروب البسالة إعجاب أكبر حتى احتفظ بتمثالين قيل إنهما للقائدين الهندوكيين (۱) . والحق أن هذا البادشاہ المغولی كان ممن يقدرُون شجاعة الشجعان حق قدرها حتى رأيناه في مواقف كثيرة يحفظ على الأبطال من أعدائه ، حياتهم ويحيطهم بالرعاية والإكرام .

وكان من أثر حسن صنيع أكبر هذا ، لا سيما مع الأمراء الراجپوتيين ، أن طفق كثير منهم ينضم إلى صفوفه ويوثق من صلاته معه . وكان من بين هؤلاء راجا بيكانير وجيسلمير ثم بها رمل راجا أمبر وابنه بهگوان داس وحفيده من سنغ وقد صحبوه جميعا إلى آگرا وأصهر إليهم فيما بعد .

على أن رأى براتاب ، حين خاف أباه أودای سنغ في إقايِم موار ، عاد يرى في توثيق الصلات بين الأمراء الراجپوتيين وسلطان المغول خطرا شديدا قد يؤدي إلى القضاء التام على أمجاد بني جنسهم وما بذله أسلافهم من أمثال جدّه رانا سنكا من تضحيات وما خلّده من صفحات البطولة الرائعة دفاعا عن شرف عنصرهم . فنصّب نفسه للدفاع عن تراث الهنداكة وماضيهم التليد ، ومن ثم طفق يستنهض من همم أقرانه ويعمل على إثارتهم

وتحرى بعضهم على مناهضة الدولة . وقد بنى خطته على تحصين حدوده و حدود حلفائه ثم إطلاق عصابتهم جميعا من بعد ذلك لتقض من مضاجع صاحب آگرا .

ولئن كان أكبر قد سير قوات كثيفة من جنده لتكتسح إقليم مواركله ، فإنه لم يتيسر له تحقيق غايته على التمام برغم ما أحرزه من انتصارات متكررة على رانا براتاب وابنه أمر سنغ .

رنتنبهور : لم يكد الپادشاه يفرغ من حرب چتور عام ١٥٦٧/٥٩٧٥ م حتى أخذ يعد العدة لافتحام حصن رنتنبهور ثانی قلاع الهندستان الكبرى ، فسارت قواته إلى هناك في العام التالى ليلحق هو بها بنفسه في رمضان من نفس السنة .

وحين رأى راي سورجانا ، صاحب الحصن ، أعداءه يبلغون بمدافعهم أعلا تل يواجه معقله المنيع فتنهال قذائفهم عليه ، بادر ، بوساطة من بهگوان داس ومن سنغ اللذين كانا في صحبة الپادشاه ، إلى إعلان خضوعه واستسلامه ، فخلع أكبر عليه وعلى ولديه ، وما غدا بعد قليل أن أقامه على إقليم بنارس ، كما عهد إليه بقلعه چتور .

وأدى سقوط حصنى چتور ورنتنبهور إلى تيسير مهمة الحملة التى كان السلطان قد بعث بها للاستيلاء على حصن كلنجري في

بند لخاند وهو فى طريقه إلى ثانى القلعتين سالفى الذكر . وصار أمر راجا چندرا صاحب هذا الحصن إلى أن أقطع إقطاعا على مقربة من أحمد آباد .

وباستيلاء أكبر على هذه الحصون الثلاثة المنيعة رست أقدامه وتعززت حدوده . وأدى ما سلكه مع أصحاب هذه الحصون، حين استسلموا إليه ، من طريق المودة والرفق، فصحبهم إلى بلاطه فى الغالب وأجرى عليهم رزقا حسنا وعهد إليهم بقدر من مناصب الدولة ، إلى أن ركن أغلب الامراء الهنادكة إلى السلم وطفقوا يساهمون معه فى بناء الدولة بهمة بالغة وإخلاص (۱).

وفى ذلك الوقت رُزق أكبر بابنه وولى عهده الامير سليم ، الذى يُعرف فى التاريخ باسم جهانگیر ، من أم هندوكية هى ابنة بهار مل راجا جيبور وكان قد بنى بها عام ۹۶۹هـ / ۱۵۶۲ م .

وعلى أثر مولدهذا الأمير عام ۹۷۷هـ / ۱۵۷۹ م انتقل الپادشاه بحكومته إلى مدينة سكرى ، عند حدود الراجپوتانا من ناحية آگرا ، فاتخذها حاضرة له وسماها فتجپور ، فلم يجرها إلى آگرا

إلا حين انهيار خزان المياه بها عام ١٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م
غمرها الماء .

وكان مما حجب إلى أكبر النزوح إلى هذا المكان ، قيام
ولى صالح به يدعى سليم چشتى كان قد بشره وتنبأ له بمولد ابنه
هذا بعد أن مات له الأطفال كثيرون من قبل . وبلغ من تعلق
السلطان بهذا الشيخ أن بعث بزوجه هذه حين إظهارت عليها بوادر
الحمل فأقامت إلى جواره ، حتى إذا وضعت حملها أطلق على
المولود اسم الولى تبركا . وفى رحاب هذا الشيخ ولد أكثر
نولاد البادشاه .

وعنى أكبر بتعمير هذه المدينة عناية بالغة حتى لتعد
منشآته بها من أروع نماذج العمارة الهندية الإسلامية . وكان من
بين هذه المنشآت الفخمة المسجد الجامع ، الذى أقيم على طراز
بيت الحرام ، ثم ضريح الولى سليم چشتى ، وجملة من القصور أجاد
المعماريون فى تصميمها كما أبدع النقاشون فى زخرفتها وترصيعها
بمختلف الزخارف والتصاوير (١) .

وأعظم آثار أكبر بهذه المدينة هى مسجد دروازه (البوابة

الكبيرة) التي أقامها تذكارا لانتصاراته في الكجرات ، ذلك الإقليم الذي تم لآييه همايون إخضاعه لسلطانه قبل إخراجيه من الهند ، والذي يعد ، إلى جانب خصب تربته ووفرة زراعته ، عظم مراكز التجارة الهندية . فن موانيه ، بروج وسورات وكبای ، كانت السفن تبخر وعليها منتجات الهند التي كان يتهاوت عليها سكان العالم منذ القدم ، حتى لم يقتحم غاز من الغزاة أسوار الهند إلا وكان في حسابه دخول هذا الإقليم . ومن بين هؤلاء كان محمود الغزنوي الذي أسراه موقعه وطيب هوائه حتى جرى بخاطره أن يتخذة مقاما دائما له وقاعدة يدير منها دولته الهندية الجديدة .

فتح الكجرات : كان مظفر شاه الثاني آخر سلاطين الكجرات ، الذي خرج إليه أكبر في ربيع الثاني من عام ٩٨٠ هـ / ١٥٧٢ م ، ضعيفا خاملا ، اجتمع عليه نفر من رجاله فسلبوه كل نفوذ ، ثم ما غدا نفر منهم أن انتهز فرصة الفوضى التي كانت تسود الدولة في عهد فراح يسعى إلى الاستقلال بما بأيديه من إقطاعات .

واستسلم سلطان الكجرات من فوره للبادشاه الذي أجرى عليه رزقا حسنا . وحذا حذوه كثير من رجال الكجرات ،

لينطلق أعظم عزيز كوكا قائد أكبر ، من بعد ذلك ، ومعه إمدادات من مالوه وچندري ، فبطارد إبراهيم حسين ميرزا ابن عم الپادشاه وفريق من الأمراء التيموريين العصاة الذين كانوا يقيمون هناك ، فما زال بهم حتى أخرجهم من سورات . على أن أكبر لم يكده يعود إلى سيكري فتحپور حتى ارتد الكجراتيون إلى العصيان من جديد ، فلم يرجع عنهم هذه المرة إلا بعد أن استخلص من أيديهم مدينة أحمد آباد ودخل كباي وبارودا ، كما اقتحم حصن سورات المنيع الذي طالما استعصى على البرتغاليين ودفع خطرهم عن المنطقة كلها .

وفي هذا الحصن ، الذي كانت أسواره يصل سمكها إلى ما يزيد على أمتار أربعة مسلحة بالحديد ، عثر الپادشاه على قطع من المدفعية تحمل اسم السلطان العثماني سليمان القانوني ، فهي بقايا من آلات أسطوله البحري الذي كان قد بعث به لمعاونه سلاطين الكجرات في دفع خطر البرتغاليين عنهم ^(١) .

ورجع أكبر من هناك في منتصف عام ٩٨١ / ١٥٧٣ م بعد أن عهد إلى وزيره تدرمل ثم شهاب الدين أحمد خان من بعده بتنظيم شئون هذا الإقليم الغني الذي كان خراجة يُعَدُّ

من أهم موارء الدولة .

وظلت الأمور فى هذا الإقليم تميل إلى الاستقرار حتى أتى سىء لمظفر خان أن يجمع قوات جديدة سقط بها عام ٩٩١ هـ / ١٥٨٣ م على أحمد آباد فدخلها كما استولى على كىبى وباردوا قتم له بذلك السيطرة على أغلب السكجرات ، حتى سىر إليه الپادشاه قائءه عبد الرحىم خان خانان بن بىرم خان فرءه عن كثر مما وقع باىءه من أرضىن ، وما زالت قوات آكرا تطارءه من بعد ذلك حتى استسلم إليها عام ١٠٠٠ هـ / ١٥٩٢ م لىقتل نفسه من بعد ذلك بموسى كان يخفىها فى ثىابه .

وقء عهد أكبر إلى ثانى أبناؤه مراد بشتون هذه الولاية التى صارت جزءا من أراضى الدولة وبقيت فى حوزة السلاطين المغول قرابة قرنىن من الزمان .

هذا وكان الباءشاه قء صاءف بالسكجرات البرتغالىىن لأول مرة . وكانوا فئة قليلة قءمت لشد أزر مظفر خان فى حربءه معه ، فلم يتعرض لهم بسوء ، واكتفى بأن أخذ عليهم موثقا بالآء يتعرضوا لحىاج البيت الحرام حين يخرجون من موافى الهند التى كانوا يسيطرون على مسالك أغلبها (١) .

وقد أشرنا من قبل إلى صلة البرتغاليين بالسكجرات وكيف
نسربوا إلى بعض موانئها بعد معارك بحرية شديدة ساهم فيها
ناصريون والعثمانيون بنصيب كبير (١).

غزو البنغال: يَدِّنا فيما سلف كيف اتخذ شير شاه من البنغال وما
جاورها قاعدة لحملاته التي انتهت إلى إخراج همايون شاه من
الهند. ولبث هذا الأقليم في حوزة أمراء من الأفغان حتى انتزعه
من أيديهم سليم خان كراتي صاحب بهار في عهد سليم شاه
سوري. وجرى هذا الأمير على إعلان ولائه الإسمى للدولة
المغولية، حتى إذا ما خلفه ابنه بايزيد فقتله وزراؤه بعد قليل،
جاء أخوه وخلفه داود ليغريه ما بخزائن من أموال كثيرة وما
تهياً له من جند كثيف على مهاجمة أراضى الدولة المغولية الشرقية
وتخفيفها حتى بلغ بقتة وخرّبها.

ولئن كان أكبر قد خرج إلى هذا النائر بنفسه عام ٩٨٢ هـ /
١٥٧٥ م حتى بلغ بنارس فافتحمها على صاحبها كما استولت قواته
بدورها على بقتة، فإن قائده منعم خان رضى آخر الأمر بالصلح
مع خصمه بفعل ما كان بينه وبين أبيه من صداقة قديمة؛ وأقطعه

إقليم أوريסה برغم معارضة زميله تدرمل . وما غدا داود ، حين بلغه وفاة نائب أكبر هناك بالهيفة ، أن انطلق يسترد أراضيه السابقة ، حتى أوقع به خان جهان نائب السلطنة الجديد فقضى عليه في ساحة راجا محل في ربيع الثاني من عام ٩٨٤ هـ / ١٥٧٦ م . وبمقتله قضى على استقلال البنغال الذي لبثت تنعم به قرابة قرنين ونصف القرن .

على أن خان جهان لم يكذب يقضى عام ٩٨٧ هـ / ١٥٧٩ م . حتى خلفه مظفر خان تربي ليؤدي ما فرضه على أصحاب الأراضي من ضرائب عالية لصالح بيت المال إلى ثورة هؤلاء الملاك . وأدى إلى اتساع نطاق الفتن ، حتى شملت البنغال وجوهور كلها ، نفور أغلب العلماء ورجال الدين المحافظين هناك من الدراسات الفلسفية واللاهوتية التي كان البادشاه يمارسها وما بلغهم من انصرافه إلى التفكير في ابتداع مذهب جديد يذيب فيه عقائد الهند كلها ويجمعها على التوحيد ؛ حتى لم يتردد سلطان محمد يزدى ، قاضى جوهور ، أن ينفي بوجوب حرب السلطان لما استجدته من يدع تزعم بناء الإسلام في الهند .

وبلغ من عنف الثورة هناك أن قُتل ظفر خان نفسه نائب أكبر هناك كما اضطرت قوات البادشاه التي كانت قد قدمت من

يهلى إلى الاعتصام وقائدها تُدرمل في حصن مسنفر ، حتى جاء
ميرزا عزيز كوكا ففضى على تمرد باب خان وعشاره الجغتائية
بالبنغال ، لينطلق من بعد ذلك قائده بازخان إلى بهار فيرغم معصوم
في نخودی زعيم الثوار هناك على الفرار إلى تلال سوا لك بالبنجاب
ثورة ميرزا حكيم : كان من نهج ثوار المناطق الشرقية من
افغان وأوزبك أن يعمدوا في الغالب ، وهم في غمرة العصيان ،
إلى إثارة القلاقل والفتن بأيدي أبناء جلدتهم عند حدود الدولة
العربية والشمالية الغربية تخفيفا لضغط قوات السلطان عليهم .
ولم يكن ميرزا حكيم خان ليقعد بدوره عن الاستجابة لهؤلاء
الثوارين ، وهم الذين دأبوا على التاويج له بعرش آگرا إذا
ما تعاونهم على التخلص من نير أخيه الجالس عليه . وقوى في
تضاد هذا الأمير هذه المرة . على ما عرف وعنه من خور في
تسمية وانكباب على الشراب . ما كان من انضمام فريق من
ثقة أكبر من طلاب المغامرات إلى صفوفه ، حتى خرج عام
١٥٨٣ م . إلى البنجاب فدخل لا هور وانهب ما حولها
من أرضسين .

وما غدا أكبر أن أسرع إلى هناك في خمسين ألف من الفرسان
وخمسة من فيول الحرب وجميع كثيفة من المشاة ومعه ولداه

سليم ومراد ؛ فتقدم سليم إلى جلال آباد بعد أن عبر مر خير ،
في حين اتجه مراد إلى كابل فالتجّم بقوات عمّه وأرغمه على الفرار .
على أن الپادشاه ما لبث أن ردّ أخاه إلى إمارته بعد أن عفى عنه
خوف انضمامه إلى أعدائه الأوزبگك ببلاد ما وراء النهر (١) .
وهلك في حملة الپنجاب هذه خواجه شاه منصور ، ديوان (٢)
السلطان وأحد مستشاريه الذين ساهموا مساهمة قوية في إقرار
الأُمور في الجهة الشرقية من قبل ، إذ دسّ عليه راجا مان سمنغ
بضع رسائل قيل أنه كان يتبادلها مع ميرزا حكيم فأمر أكبر من
فوره بشنقه دون تثبيت من أمره ، وقد ندم على فعلته هذه من بعد . (٣)
ولئن كان من المعروف أن منطقة الحدود الشمالية الغربية
هي منذ القدم باب الهند الأعظم الذي ينفذ منه الغزاة إلى هذه
البلاد ، فإن اهتمام سلاطين الهند الجديّ بتحصين هذه المنطقة
لم يبدأ إلا غداة غزو چنگيزخان وأبنائه من بعده للهند ؛
حتى رأينا آل بلبن والحلجيين ثم آل تغلق من بعدهم
يقيمون بها سلسلة من المعقل والحصون القوية حبسوا بها

١ — طبقات أكبرى ٢٥ :

٢ — الديوان هو التّيم على شؤون المال ، وهو وزير عادة

٣ — Muslim Rule 432-33

قوات كثيرة العدد والعُدد .

وأتيح لتيمور لنگك اجتياح أغلب هذه الحصون حين
فتر الإهتمام بها ودب الإهمال إليها لما كان عليه آخر
سلاطين آل تغلق من الضعف . حتى جاء أكبر
فعمرها من جديد لتدفع عنه أخطار الأوزبكيك ، أصحاب بلاد
ماوراء النهر والد أعداء الأمراء التيموريين وأشدّهم مراسا ،
ومعهم القبائل التي تقطن أرض كابل وغرنة من الأفغان وغيرهم
الذين طالما أضرّاهم ثراء الهند جاريتهم ، بالقياس إلى جذب أراضيهم
وفقر بلادهم ، بالسقوط عليها وتخطف أراضيها وانتهاك أرزاقها ،
بل والتوغل فيها ما سنحت لهم الفرصة بذلك وغفلت عنهم
أعين نواب دهلي على البنجاب .

وكان من أثر مبادرة الپادشاه إلى إرسال قواته لاحتلال إقليم
كابل عقب وفاة أخيه ميرزا حكيم في شعبان من عام ٩٩٢ هـ .
١٥٨٥ م وضمه إلى أراضيه ، وما أنزله قواده من أمثال راجا من
سنغ وزين خان وراجا بيربل ، بعبد الله خان الأوزبكيك وقبائل
يوسفزاي الأفغانية من الهزائم الحاسمة ، أن أمنت حدود الدولة
في المناطق الغربية والشمالية الغربية ، لتتجه قوات آكرا من بعد
ذلك بقياده راجا بهگوان داس لغزو كشمير فتضمها إلى أملاك

الدولة عام ٩٩٥ هـ / ١٥٨٧ م .

كذلك دخلت جيوش الپادشاه إقليم أوريسه كما سيطرت على
السند والمثلثان ومنازل البطهان لتظل من بعد ذلك على قندهار التي
كان أكبر معنى النفس منذ أمد بعيد باسترجاعها من الفرس ، فهي
مفتاح الطريق إلى حدوده الشمالية الغربية .

واتهمز السلطان الهندي فرصة اشتغال عباس الصفوى شاه
بالفرس بحربه مع العثمانيين والأوزبك فدفع بقواته عام ٩٩٨ هـ /
١٥٩٠ م إلى هذه الآيالة ، فلم يهلّ عام ١٠٠٣ هـ حتى صارت في
حوزته دون قتال ، إذ وصل إلى غرضة في مهارة سياسية فائقة
لتمت على علاقات المودة بينه وبين جارة (١) .

وهكذا صار لا أكبر ، ولما ينصرم القرن العاشر الهجرى بعد .
نأسكه متسعة الأرجاء امتدت من آخر حدود البنغال الشرقية
إلى ماوراء الهندكوش وأرض كابل وغزنة وقندهار في الغرب ،
ومن جبال الهملايا في الشمال إلى نهر سربدا في الجنوب . ولما تمته
توضيحه بعد

فخرج الدكن : لبث سلاطين المسلمين في الهندستان يرون ،
في الدكن وما وراءها جنوبا بلادا غريبة عنهم ، في الغالب ، بأهلها

وبماداتها ورسومها . على أن أطباعهم ، حين كان يستتب لهم الأمر في الشمال الهندى كله ، كثيرا ما أغرتهم بالنفوذ إلى ذلك الجنوب الذى كشفت لهم حملات علاء الدين الخلجى عما به من قوة . والذى قامت به دويلات وإمارات إسلامية أبى أصحابها بترى اعتراف بسيادة دهلى عليها طواعية .

وكان من الطبيعى أن يتطاع أكبر بدوره إلى هذا الجنوب ، وهو الخارب الطموح ، بعد أن ساد سلطانه الشمال وعظم شأنه بأمنت حدوده .

واستعصت إمارة أحمد نگر أول الأمر على الأمير مراد بن أكبر وقائده عبدالرحيم خان لحسن دفاع الأميرة الشجاعة چندبى عنها ، فلم تسفر جهود هذين القائدين بالدكن إلا عن ضم إمارته إلى أملاك الدولة (١) .

١ --- هذه الأميرة هى ابنة حسن نظام شاعى وأرملة إبراهيم عادل شاه . الذى صاحب بيجابور . وقد رجعت إلى مسقط رأسها في أحمد نكر بعد موت . جيا لتقف إلى جانب الصغير بهادر نظام شاهى صاحب الحق الشرعى في الإمارة . ثم أدى بالوزير ميان منجهو ، وكان يناصر أمير آخر يدعى محمد خدابنده ، إلى الاستيلاء بمراد بن أكبر الذى كاث يحكم بالسكجرات . وبزغم نجاح هذه الأميرة في إقرار الأمير بهادر على بلاده ، فما شدا انصاره من الاحباش =

كذلك لم يفلح قواد الپادشاه فى حسم موقفهم مع قوات
أحمد نگر و بیجاپور وغولکوندہ بمجتمعہ حین التقوا بهم من جدید،
حتى جاء الوزير أبو الفضل بن المبارك بنفسه إلى الدکن فى جند
کشیف، وما عدا أن لحق به أكبر بنفسه بعد أن عهد بأمر حکومتہ
إلى ابنه سلیم .

وكان مما أدى بالسلطان إلى السير بنفسه إلى هناك ، موت
ابنه مراد من جهة وأنضمام أمير خاندش إلى الخارجین علیه من
جهة أخرى .

وسیر أكبر ابنه دانیل إلى أحمد نگر فى حین قصد هو
إلى خاندش ، فما إن دخل عاصمتها برهانپور ثم شرع من بعد ذلك
فى حصار عسیر ، أقوى حصونها ، وكان یمتنع فیہ صاحبہ میران
بہادر ، حتى وافته الأنباء بخروج ابنه سلیم علیه وتنصيبه لنفسه
سلطانا فى مدینة الله آباد بأدنی الدواب (١) ، فلم یثنه ذلك عن المضى
فى خطتہ حتى سقط الحصن فى یدہ وتبعه استسلام إمارة أحمد نگر

== والدکشیبن أن انقلبوا علیها حتى ضیعوها وضيعوا إمارتهم .

هذا وفى الجزء الأول من هذا الكتاب س ٢١٩ — ٢٦ تفصیل لنشأة
إمارات الدکن جمیعاً .

١ — عنی أكبر عن ابنه حین عاد إلى آکرا فولاه البنغال وإن لبنت العلاقات
متوترة بین البادشاه وابنه إلى آخر أيامه .

ببذورها .

وبسقوط هذه الإمارات في مستهل القرن الحادى عشر
المجرى ، وختام القرن السادس عشر الميلادى ، تم لأ كبر
السيطرة على الدكن التى استمرت حروبه بها سنوات خمسة (١) ،
وصارت الدولة المغولية ، أعظم الدول لعصرها وأقواها وأكثرها
زماً و غنى (٢) ، بما دخل فى حوزتها من أراضين وما انطوى
تحت لوائها من الأمراء وما عمرت به خزائنها من أموال
الفتح وغنائمه وكنوزه .

ولم يطل الأجل بأ كبر حتى يُتم فتح جنوب شبه القارة
الهندية بأ كمله بعد أن شرع فيه ، وقد كان بوسعه تحقيق هذا
الامر فى أمد قصير بعد أن أقر الأحوال فى الشمال كله بقضائه
على أسرة سور وكبحه جماح الأوزبك وفتح له للبنغال واقتحامه
حصون الراجبوتيين الكبرى وتأمينه حدوده كافة ، لولا
ما تعرض له من ثورات وقتل عتيقه بسبب ما ذاع عنه من

١ - كان من أثر طول مقاومة أمارات الدكن الاسلامية للعول ، ابتعاد
الخُطر إلى حين عن أمارة فيايانكر الهندوكية التى كانت تقع إلى
ما ورائها جنوباً .

أفكار وآراء فلسفية أدت به إلى استنباط مذهب ديني جديد .

المذهب الإلهي :

برغم أن أكبر ينحدر من أسرة امتازت بالثقافة المتوارثة فيها . فقد أدى اضطراب حياة أبيه في الغالب إلى حرمانه من قدر وافر من التعاليم في الصغر ، فشب ولم يكن يحسن القراءة والكتابة . ومع ذلك فقد فاضت حياته الطويلة بالنشاط المتقلى . إذ كان قوياً بالملاحظة كلماً بالمعرفة ، فتعلم عن طريق التلقين مكشفاً بالإصغاء والتأمل . وكانت ذاكرته القوية تستوعب كل ما كان يقرئ في حضرته من الكتب القيمة التي جاوز عددها في مكتبته الخاصة أربعاً وعشرين ألفاً . ولقد ولد أكبر عن أب سنى المذهب وأم شيعية ، وبني بوضع أميرات من الهنادكة . وطلق لا يشغل نفسه إلا بعلوم أهل السنة حتى التقى بالشيخ مبارك ناغورى وولديه فبضى وإلى الفضل . وكان ثلاثتهم من المشتغلين بعلوم الحكمة ، ففتحت ، عيناه على كثير من المسائل الفلسفية والأسرار الصوفية ، ودفعوه معهم في طريقهم ، طريق البحث عن الحقيقة ومحاولة الوصول إلى الحق المجرد .

وأدى به شغفه بهذه المسائل إلى إقامة دار للعبادة

« تبادتخانه » ، بمدينة فتحپور حاضرتة الجديدة . تم بناؤها عام ٩٨٣ هـ / ١٥٧٥ م لتكون منتدى للفقهاء والمتصوفة ورجال الدين وصفوة رجال الدولة يتدارسون فيها كتاب الله الكريم وعلوم التفسير والحديث ومسائل الفقه والتصوف والفلسفة .

ودرج أكبر على الحضور إلى هذه الدار عقب صلاة الجمعة عند انصرافه من خانقاه شيخ الإسلام . هذا كما كان يتعبد كذلك في كهف غير بعيد من قصره ويضئ ليلًا بكلمها يناجي ربه برموز الصوفية واصطلاحاتها .

كان هذا السلطان يرى في الملك نعمة من نعم الله العظمى ، يتجلى العرفان بها في حسن إدارة الحاكم لحكومته على وجه يجعل رعاياه جميعا يتفانون في طاعته وتلجج السنتهم بالشناء عليه .

وعلى هدى هذه الغاية حاول أن يمزج نفسه بالهند وشعوبها من مسلمين وهنالك مزجا عميقا لينقلب هو وبلاده آخر الأمر إلى وحدة لا تنقسم أو تتجزأ . فضى يعمل على انضواء سنادة جميعا تحت راية الحكم الإسلامى عن رضى وقبول بتألف قلوبهم ، وفتح أبواب بلاطه لهم حتى بلغ كثير من منهم أعلى

مناصب الوزارة والقيادة (١) ، كما أصهر إلى كثير منهم كذلك ، وإن أدى سلوكه هذا إلى نفور طائفة من العلماء ورجال الدين الذين كانوا ينكرون قيام المساواة بين المسلمين ومن خالفهم في دينهم .

وكان من ثمرة نهجه هذا الذي انتهجه أن طفق فريق من الأمراء الراجپوتيين يوالونه حتى ساروا معه بقواتهم لتحقيق أهدافه في الفتوح والقضاء على الفتن التي كانت تنشب من حين لآخر في أنحاء بلاده الواسعة .

وكان من بين هؤلاء راجا بهگوان داس وابنه مَن سنغ اللذان ظاهراه في حصاره لحصن چتور أقوى قلاع الهند ، ثم راجا بيرمل الذي لاقى حتفه وهو يدافع عن حدود الدولة الشمالية الغربية .

ولعل تدر مل هو أبرز هندوكي قام على خدمة أكبر في إخلاص بدت آثاره العظيمة واضحة جلية في تاريخ الهند . فهذا الوزير الذي كان قد نشأ عند السلطان القدير شيرشاه

١ - بلغ عدد المناصب الكبرى في الدولة أيام أكبر ١٥٠ ، كان الهنادكة يشغلون منها ٥١ منصبا .

بالم الكثير من اتجاهاته السديدة في شئون الإدارة والحكومة ،
شارك بنجاح في حملات البادشاه البنغالية ، كما أظهر كفاءة
وبراية كبيرة حين عُهد إليه بتنظيم شئون حكومة السكجرات ،
أثنى إمارات الهند ، وتنسيق مواردها المالية ، حتى صار من
جد ذلك خير مشير لأكبر فيما شرع فيه من إصلاحات شملت
إقامة نظم الحكم وشئون الدولة (١) .

لقد أدرك أكبر أن بلاده الواسعة لا يمكن حكمها وإقرار
الأمور فيها أقراراً حقيقياً إلا بقيام المؤاخاة والألفة بين أهلها على
اختلاف مللهم وتباين عروقهم ونحلهم . وهو حين قرّب إليه
المناذكة ، دفعه شغفه بالمعرفة إلى التطلع إلى ما عندهم من
ثقافات ورسوم قديمة ومعتقدات ، فعهد إلى فريق من العلماء
بنقل عيون الكتب الهندوكية القديمة من السنسكريتية إلى
إلى الفارسية ، لسان العصر بالهندستان ، ومن بينها الرامايانا (٢) ،

١ - 62 - 260 Lane-Poole

٢ - قام المؤرخ بداوني بنقل الرامايانا إلى الفارسية فأتمها في أربع سنوات
هي تحصى خمس وعشرين ألف بيت ، يتركب كل بيت منها من خمس وستين
حرف وبطلها رام جند ، وكان مسقط رأسه مدينة أوده . وقد زينت هي
بأبهارتا التي قام فريق من علماء المناذكة وأدباء المسلمين بنقلها إلى الفارسية
نقوش كيسار النقاشين في بلاط السلطان . منتخب التواريخ ثامن ٣٢٠ ، ٣٣٦ .

ثم المهابهارتا ، كتاب الهند القديمة الأقدس ، التي يُسعد قراءة قدر منها مجلبة للرحمة والمغفرة ، كما يقرء المسلمون القرآن . وأتباع المسيح الإنجيل ، وتحوى ربع المليون بيت من الشعر ، في حين لا تعدو إلاذاة هو ميروس ، نظيرتها عند اليونان القديمة ، خمسة وعشرين ألف بيت .

ولم يكتف البادشاه بقراءة هذه الأسفار حتى راح في سبيل دراساته ، يستدعى إليه ، في دار العبادة وفي قصره شيوخ العقائد من برهمية وبوذية وجينية وويشية وزرادشتية ونصرانية (١) ، ليعرضوا عليه بضاعتهم — له يبلغ إلى علة الفروق بينها حين تكفر كل فرقة اختها وتحرم على أتباعها أن يطاعوا غيرهم أو يخالطوهم .

ولم يكن أكبر ، وهو المفكر المسلم الحرّ ، ليحجم عن إعلان إعجابه بما يُعرض عليه من نواحي الخير والمبادئ الإنسانية في هذه العقائد ؛ بل لقد بلغ من تلمقة مع أصحاب هذه المائل وحدبه على استمالهم إليه أن ارتدى مسوح الهنداكة وجرب معهم طقوسهم (٢)

١ — قل الإنجيل إلى الفارسية كذلك على يد الوزير أبي الفضل بن المبارك
مستخب التواريخ ٣٦٠هـ

٢ — من ذلك أنه رتل معهم الإتهالات الدينية البرهمية التي زعموا له بأنها

وكتب عن استخدام الثوم والبصل في أطعمته وتقديم اللحوم
تحت مائدته .

ولقد كان أكبر في الواقع لايهم أبدأ بأصناف الطعام ، فنشأ منذ
صغره على غير ميل إلى تناول اللحم حتى حرّمه على نفسه محتجاً
بأنه لا يليق بالإنسان أن يجعل من جوفة مقبرة للحيوان ، وإن
لم يحرّمه على رعاياه .

كذلك كان يمكن كراهية شديدة للقصاصين والصيادين الذين
كان يرى فيهم أناساً وقفوا حياتهم على قتل الحيوان (١) . هذا كما
مع اقتناء الطيور وأطلق ما كان منها جيبس الأقفاص .

لجعل الشمس وفق هواه . ولم تقف تجاربه عند هذا الحد حتى راح يحاول اختبار
محنة الإنسانية في أطفال عزلهم بقصره عن الناس بعد أن رتب لهم المراضع ،
وعلى مبادئ الأديان كلها حين يشبوا عن الطوق ويرى ما عسى أن تهديم
له فطرتهم . لكنه فشل في تجربته إذ استبان له بهم جميعاً بسبب عزلتهم
اخترع التواريخ ثمان ٢٨٨٨ .

لا يتفق تحريم اللحوم هنا ومقاطعة الجزارين ومن إليهم بما ادعاه بدائني
منحة السلطان للحوم الثمرة وأقنائه للخنازير والكلاب بقصره . وقد أفصح هذا
نوع عن وجه الحق في إتهاماته هذه وغيرها بما كان يحز في نفسه هو ومن كانوا
هواه حين كانوا يرون السلطان يقرب الهنادكة إليه ويعاملهم بالتسامح والتكريم
نصدر السابق ٣١٤ .

ولم يكن أكبر كذلك يتناول سوى الماء القراح ، وإن كان قد عكف في شبابه على تناول النبيذ بعض الوقت .

كذلك اجتبي الپادشاه اليسوعيين الذين وفدوا إلى بلاطه ليستمع إلى بيان النصرانية من أفواههم لا من بطون كتبهم ، فأكرمهم ، وكانت لهم بعوث تبشيرية تلتشر في مستعمرات البرتغاليين بالهند ، حتى حملوا على تحمل رعبته في التنصير ما أظهره من التبجيل والتوقير للإنجيل حين رفعوه إليه ، ولأيقونة المسيح وأمه البتول حين أطلعهوه عليها ، وما كان من رده المذهب عليهم ، حين عرضوا عليه الدخول في ملتهم ، فقال لهم بأن الأمور كلها تجري وفق المشيئة الإلهية . وقد تجاهلوا موقفه منهم حين كانوا ينجحون إلى التحامل على الإسلام فيردهم عن ذلك بما أثر عنه من رفق ولطف .

استمع أكبر إلى هؤلاء جميعا في حرية وتسامح ديني مطلق وقت أن كانت أوروبا تحتاجها موجات مدمرة من التعصب ، فالكاثوليك كانوا يفتككون بالبروتستانت في فرنسا ، والبروتستانت كانوا يذبجون الكاثوليك في إنجلترا ، ومحاكم التفتيش كانت تنكل ببقايا المسلمين واليهود في إسبانيا ، ورجال الكنيسة بإيطاليا كانوا يحرقون بشهمة الهرطقة جمهرة من العلماء

تدين لهم المدنية والحضارة الحديثة بالكثير .
 والمعروف أن هذا الأمير التيمورى الذى كان يعمل ، فى
 سبيل بلوغ الحقيقة ، على استخلاص الحسن من الآراء المختلفة
 التى قد تنتهى به إلى غايته ، هداه تفكيره الفلسفى وبصيرته النفاذة
 إلى أن يرى الديانات عموما ، بعد اطلاعه عليها ، كأنها رموز
 مختلفة تمثل الأسرار التى تحيط بالكون وأهله . لذا ودّ لو أنه
 استطاع إزالتها فى مذهب جديد يقوم على التوحيد ، ويجمع ما فى
 هذه العقائد من فضائل ، ويقضى على الخلاف بينها . ويزيل ما بين
 الناس من فوارق ، ويدعم أخوة الإنسان لأخيه الإنسان
 ليبلغ بذلك كله إلى قيام التجانس التام فى مجتمع بلاده .
 إلا أن مسعاه لم يتكلل بالنجاح فى مؤتمر الأديان الذى عقده
 فى « عباد تخانه » ، وحشد له الصفوة من رجال الأديان وشيوخ
 للعقائد على اختلاف مللهم ونحلهم . ذلك أن هؤلاء الأعلام لم
 يتبادلوا فيما بينهم إلا أفطع النشائم وأخفشت الشتمات^(١) .

١ — اقترح أحد المناظرين ، وكان يدعى شيخ قطب جليسى ، أن تختبر المسيحية
 بزاء الإسلام بمحنة النار ، وذلك بأن يخوض وأحد القساوسة الباب ، فمن خرج منه
 سالما كانت فرقته صوت الحق فى الأرض ، لكن اليسوعيين رفضوا ذلك وخافوه
 « منتخب التواريخ ثلث ٢٩٩ » .

وعلى ذلك فقد أدرك أكبر ، قبل أن يأتى الفلاسفة المحدثون
بمن طويل ويقرروا ، على وجه التحقيق ، أن المعتقدات مستقلة
تمام الاستقلال عن العقل الصرف ^(١) .

ورغم سخريه البادشاه من هؤلاء جميعا فقد راح أصحاب كل
مذهب وعقيدة يدعيه بدوره لنفسه في غير تورع ولا استحياء
ادّعاءه الزرادشتيون حين وضع علاماتهم على ثيابه ،
وادّعاء الهنداكة حين رأوه يمتنع عن أكل اللحم ويحرم الصيد
واستخدام البصل والثوم في طعامه ، ويحض الناس من حوله على
ذلك . ونسوا تشدده المطلق في محاربة عادة الساقى الخاصة بهم -
حيث تقبل الأيّم التى ليس لها ولد على حرق نفسها مع جثمان
زوجها - حتى تدخل بنفسه لإنقاذ إحدى نساء الأشراف ومنع
عشيرتها من إرغامها على ذلك ^(٢) . كما أباح زواج الأرامل
وحضّ عليه ، على خلاف شرائعهم .

وادّعاء النصراني حين أمر وزيره أبا الفضل بترجمة الإنجيل

١ — اختلال التوازن العالمى لجوستانف لوبين ص ٣٥١

٢ — هي ابنة أداى سنغ وأرملة جاي مل أحد أبناء عمومة راجا بهكوان داس
من زعماء الهنداكة المقربين من البادشاه . وقد ركب أكبر بنفسه لإنقاذ هذه الأميرة .

وَأَدْخَلَ دِرَاسَةَ النِّصْرَانِيَّةِ فِي تَعْلِيمِ ابْنِهِ ، وَلَمْ يَمَانَعِ — عَلَى حَدِّ قَوْلِهِمْ — فِي تَنْصِيرِ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْهِنْدِ ، عَلَى الْإِخْتِيَارِ .
رَزَعُوا أَنَّهُ ، بِفَضْلِ تَعَالِيمِهِمْ ، أَحَالَ الْمَسَاجِدَ فِي حَاضِرَتِهِ إِلَى مُسْطَبَلَاتٍ لِلْخَيْلِ وَالْفِيلَةِ ، بِدَعْوَى الْإِسْتِعْدَادِ لِلْحَرْبِ ، وَأَمَرَ بِحَرْقِ الْمَصَاحِفِ وَحَرَّمَ ذِكْرَ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ بِيَلَاطِهِ وَاقْتَصَرَ عَلَى زَوْجَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَحَرَّمَ عَلَى أَتْبَاعِهِ الْمُسْلِمِينَ خِتَانِ أَوْلَادِهِمُ الذَّكَوْرَ حَتَّى يَبْلُغُوا الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِمْ فَتَكُونَ لَهُمْ الْخَيْرَةُ فِيْمَا يَعْتَنِقُونَهُ مِنَ الْأَدْيَانِ (١) .

وعلى هدى نشأه اللغة الأوردوية فى الغالب - وهى مزيج من لغات الفاتحين المسلمين ولغات الهند ، نشأت نشوءاً عزيزاً من اختلاط هؤلاء الشعوب بعضها ببعض ، حتى غدت بالكاد لغة الهند القومية - هدت أكبر قريحته ، بمعاونة وزرده أبى تفضل وأخيه فيضى ، إلى ابتكار مذهب جديد يتألف كل ما هو حسن فى سائر العقائد على وجه يقضى ، فيما ظنه ، على تناحر الفرق الأديان ويهيه السلام للناس والأمن للدولة .

وهذا المذهب الذى يُعرف فى التاريخ باسم « دين إلهى » والذى يقوم على تمجيد الله وينادى بوحدة الوجود ويمتزج فيه

التصوف والفلسفة بالعبادات : فيه البادشاه هو الإمام العادل^(١) ظل الله على الأرض ، والمجتهد الأكبر ، من أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد خسر الدنيا والآخرة .

وكان من رسوم هذه العقيدة الجديدة ، التي رمى أصحابها فيها إلى تمثيل عقائد الهند كافة أحسن تمثيل ، أن يقر المؤمن بها باستعداداته لتضحية أملاكه وشرفه وحياته وعقيدته في سبيل البادشاه ، وأن يقتصر في غذائه على النبات ، ويمتنع عن تناول اللحم أياما كثيرة مرسومة ، ولا يجالس الجزارين والصيادين وغيرهم من قتله الحيوان ، ولا يحبس حيوانا أو طيرا عنده ، ويتجنب البصل والثوم ، وأن يبذل الصدقات للفقراء والمعوزين

وكانت تحيتهم فيما بينهم هي : « الله أكبر » وجوابها : « جلّ جلاله » ،^(٢)

-
- ١ — فكرة الإمام العادل هي عند أكبر بتأثير المذهب الشيعي ونظرية 'نهادي' المنتظر ، حتى اضطلع له تقويمها جديدا يبدء من عام ارتقائه للعرش . وهو ما حدث به كذلك في الغالب إلى أن يوحى الفريق من المؤرخين ، وعلى رأسه مولانا أحمد دود بن قاضي تان . بكتابة « تاريخ ألني » الذي يضم تاريخ المسلمين وسلاطينهم إلى العام الألف من تاريخ انتقال النبي الأكرم إلى الرفيق الأعلى .
- ٢ — لم يقل أحد من المؤرخين بدعاء أكبر الألوهية أو النبوة . وما يذكره بداونر في هذا الصدد (منتخب التواريخ ثان ص ٢١٠) — وكان من أشد الناقين على هذا —

وقرن أكبر إعلانه لمذهبه هذا بإصدار طائفة من التشريعات الاجتماعية المفيدة . فمنع عادة الساقى ، وأباح لأرامل الهنادكة الزواج ، وحض الناس على الاكتفاء بزوجة واحدة والابتعاد عن البناء بالأقارب الأقربين لما ينجم عن ذلك من ضعف النسل وفقر في الميل ، ومنع زواج الأطفال دون البلوغ (١) . وزواج النساء المتقدمات في السن بشبان يصغرهن بكثير .

وفرض كذلك عقوبات صارمة على مثيرى الشغب والشجار ، كما منع تعاطى الشراب وتداوله ، وأمر بعقاب شارب الخمر وبأنعها ومشتريها وصانعها ، وقصر بيعها للتداوى على متجر خاص بمقربة من قصره وجعل به سجلا يثبت به اسم كل مريض يتعاطاها واسم أبيه وجده وترخيص الطبيب له بها (٢) .

== المذهب الجديد — أن البادشاه رغب عام ٩٨٣ هـ في ضرب عبارة « الله أكبر » على السكة والغاتم الشاهاني ، فنصحه أحد رجاله بأن يستبدلها بقوله تعالى « وتذكر الله أكبر » حتى لا تجعل الأولى على ادعاء الألوهية ، فاحتج عليه السلطان بأن كل ما في الأمر هو موافقة مقتضى الحال ، فكيف للإنسان أن يرقى إلى ادعاء الألوهية وهو على ما هو عليه من العجز والضعف .

١ — نص هذا التشريع على أنه لا يقل سن الشاب عن ستة عشر عاما وانفاذ عن أربعة عشر .

٢ — يرى بداوني في هذا الإجراء تنظيما غير مباشر لتعاطى الشراب فخب وترخيصا مقنعا به ، وبلغ من فرط تحامله هنا أن صرح بأن النبيذ يدخل لحم الخنزير ==

وأمر كذلك بجمع البغايا في دار تدعى « شيطانپور »
أى محلة الشيطان ، ووكل بهن عاملاً خاصاً يقوم على شئونهن ،
ثم أخذ من بعد ذلك يستدعى إليه كل واحدة منهن فيستوضحها عن
أغواها ودفع بها في طريق الشر والفساد ، لينتهى من ذلك إلى قتل
كل من ثبتت هذه التهمة عليه .

ولم يكتف بتعميم هذه الدور في مناطق كثيرة ببلاده حتى
أمر بأن يساق إليها كل زوجة يثبت إدمانها على الخصاص
والشجار مع زوجها .

هذا كما منع من استرقاق أسرى الحرب ^(١) واختلاط النساء
بالرجال في الأسواق وعند شواطئ الأنهار طلباً للسقى
أو الإغتسال .

وأعفى الهنادكة من ضريبة الرؤوس ورفع عنهم رسوم

== في صناعته «منتخب التواريخ» ثان ٣٠١ »

١ — هذا الإجراء يعد ، على ضوء ملابسات القرن السادس عشر الميلادى ،
من أنبل مآثره ملك ، فضلاً عن تحقيقه لهدف من أهداف الإسلام الإنسانية الكبرى
في الدعوة للتحرير وفك الرقاب . ولا ننسى أن الهنادكة كانوا يسقطون عن الأسرى
قيمتهن الإنسانية فيسلكونهم في عداد المنبوذين . هذا وتجد بيان هذه التمريمات جلياً
في الجزء الثالث من آيين أكبرى لابن الفضل بن المبارك بمواضع عديدة
متفرقة منها .

الحج (١) ، حتى يشعروا بقيام المساواة التامة بينهم وبين مواطنيهم من المسلمين . ولم يكتف بأن يصرح للذين أجبروا في صباهم على الإسلام أن ينظروا متى بلغوا سن الرشد ، في البقاء على إسلامهم أو الرجوع إلى دين آبائهم ، حتى راح ينادى بحرية الناس جميعا في تخيير ما يروقهم من الأديان والعقائد ، ويسدى لهم النصيح بالألا يتعرضوا للذين يخالفونهم في عقيدتهم بسوء أو أذى ، وأن يسلكوا معهم سبيل المودة والرحمة حتى يصلوا وإياهم إلى معرفة الحق .

والحق أن أكبر لم يحاول أن يحمل الناس أبداً على الدخول في مذهبه الجديد هذا . ولم يلق بالآ إلى رفض راجا بهگون داس وراجامن سنغ (٢) إلا استجابة إلى دعوته ولا إلى احتجاج قائده عزيز ككا برغم أنه كان بوسعه . - بطبيعة الحال - أن يحمل كثيرا من رجاله على الانتظام في حزبه .

١ — كان يجي من الهنادكة رسوم معينة نظير السماح لهم بالحجيج إلى أماكنهم المقدسة ، وهذه هي التي رفعها أكبر عن كاهلهم — هذا وكان أكبر هو كذلك أول من سير المحمل الهندي إلى الأراضي المقدسة.

٢ — كان من رد مان ستغ على البادشاه أنه يعرض حياته دائماً للموت في سبيل السلطان ، وأنه على دين الهنادكة ، فإذا ما طلب إليه أن يسلم فقد يفعل ذلك . - وهو لا يعترف بغير هاتين الملتين على كل حال .

وإثن التف فريق من الناس حول المذهب الجديد جلبها
للنفع وطمعا في اكتساب الحظوة في الغالب ، فإن الفشل التام
قد أصاب الپادشاه في ،شروعه هذا الذي لم يكن ليقوى أبدا على
هدم التقاليد الموروثة ، فلبثت الغالبية العظمى على استمساكها
بعقائدها ومذاهبها .

ولم تكن حركة أكبر هذه إلا واحدة من المحاولات
القوية التي اضطلع بها نفر من المسلمين والهنداكة ، من قبله ومن
بعده ، للتقريب بين الإسلام والهندوكية وتضييق شقة الخلاف
بينهما وإحلال التفاهم وتحقيق الوحدة بينهما .

وهذه التعاليم ، التي اضطلع بها كيتانيا ونانك وكبير
وداراشكوه ، يلاحظ فيها تأثير التوحيد الإسلامي تأثيرا
كبيرا ، حتى اترى فرقة السيک الهندوكية تجهر صراحة بتعظيم
النبي الأكرم على الخصوص ، وتمجيد القرآن الكريم .

وأدت هذه الحركات في الغالب إلى إضعاف روح التعصب
الديني والعِرقي وأوهنت من ضغط نظام الطبقات إلى
حد كبير .

وبنح أكبر بتسامحه الشديد على كل حال إلى كسب ولاء
الهنداكة حتى أولئك الذين لم يعتنقوا مذهبه الجديد ، واستطاع

نعموما أن يحقق لبلاده الوحدة السياسية التي كان يهدف إليها
ويعمل في سبيلها (١) .

نظام الدولة : لئن كان أكبر بوصفه البادشاه هو صاحب
السلطان المطلق في الدولة الذي يوجه أمورها وفق هواه ، إلا
أنه سار في حكمه على مقتضى العدل والتسامح المطلق ، فنظر إلى
رعاياه دون أدنى تفرقة في الدين أو الجنس ، فمارسوا جميعا
حقوقهم الدينية على اختلاف مللهم ونحلهم في حرية تامة ، في
الوقت الذي كان فيه ملوك أوروبا ينسكتون أعصاب المذاهب

.....

١ - لم يصرح أكبر في الواقع بشكره للإسلام أو خروجه عليه وإن اضطلع
جملة من شيوخ المسلمين . ومع ذلك فلا نستطيع أن نقول بتمسكه بدينه ، فقد
كانت السياسة هي دينه ، ووحدة أهل الهند تحت سلطانه هي عقيدته . وما
ذهب إليه السيد أمير علي ، العلامة الهندي ، من أن أكبر لم يغل في حياته
باعتبار لرسول والأئمة (Islamic culture. October 1927) إنما كان
لتمسكه حقيقة بفضائل الإسلام الكبرى ، وإن لم ينف ذلك عنه ورعته
الجوش في بعض مسائل الفروض والعبادات بما يخالف الشرع ، فضلا عن تأثره بفكرة
التسامح عند الهنود وإعجابه بما تدعوا إليه الويشنوية من إعادة اكتشاف
الإنسان لنفسه وإدراك شخصيته خارج الحدود التي يفرضها العرف وترسمها التقاليد
الدينية ، واقتناعه بأراء اليوبانشاد في القول بأن كل إنسان إنما يسمى الكائن
الإنساني باسم يلائم وجهة نظره .

التي تغاير مذاهبهم في المسيحية على ما كان يفعل الألبانزيون مع
كاثوليكسي أيرلندا، وأصحاب فيليب الثاني ملك أسبانيا مع
البروتستانتين .

كذلك لم يكن هذا الأمير المغولي ليتردد عن مشاوره رجاله
في تصريف شئون الدولة على أحسن وجه يكفل صالح الأهلين ،
حتى بلغ من حرصه على إسعادهم أنه لم يعارض في فرض ضرائب
جديدة عليهم فحسب بل ورفع عنهم كذلك قدرأ مما كان يفرض
عليهم من قبل .

وهذا السلطان، الذي قيل أنه قد أوتي حظاً وافراً من راحة
العقل حتى صار الموجه الفعلي لسكافه المشروعات والإصلاحات
التي تمت في عصره ، كان يعتمد ، أكثر ما يعتمد ، في تصريف
الأمور على طائفة من كبار الرجال في الدولة وعلى رأسهم وكيل
السلطنة ، وكان في أول عهد به بالحكم بيرم خان قائده ومربية .
ويأتى من بعد الوكيل في المرتبة الوزير أو الديوان . وهو القيم على
شئون المال في الدولة ، وكان يشغل في العادة مركزاً كبيراً
في الجيش (منصبدار) شأنه في ذلك شأن جميع أصحاب المناصب
في الدولة ؛ و يليه مير بخشى وهو الذى يقوم بدفع مرتبات الجند
والقادة ويشرف على شئون القوات جميعها ، ويُعد مسئولا

بصفة خاصة عن جيش السلطان الخاص . ويأتى من بعده
خان سامان وهو صاحب شئون البلاط ، وكان يلزم الپادشاه
في حلاله وترحاله ويشرف على شؤنه الخاصة جميعها . ثم قاضى
القضاة وهو الموكل به شئون العدل وإجرائه وفق الشرع .
وأخيرا المحتسب وهو الذى يراقب سلوك الناس ويمنع ممارسة
البدع وارتكاب ما ينافى الشرع والآداب عموما .

وإلى جانب هؤلاء الكبار ، كان هناك فريق آخر من أصحاب
المناصب المهمة ، دونهم فى المنزلة ، مثل المستوفى ، محاسب الدولة
الأول ، والكتّوب وهو بمثابة رئيس الشرطة ، وكان يوكل
إليه حراسة المدينة فى الليل والبحث عن اللصوص وقطاع
الطرق ومراقبة السكان ورقابة الأسواق ، ثم صاحب البريد
: أمير العرض الذى يرفع إلى الپادشاه الالتماسات والشكاوى .

وبلغ من حرص أكبر على ضمان العدل فى دوائه أنه كان
ينظر بنفسه فى القضايا الكبرى التى كان على عماله بولايات
الدولة أن يبدعوا بها إليه ، كما كان يفتح أبواب قصره للناس
حرما معلوما فى كل أسبوع ليتلقى منهم ظلاماتهم بنفسه أو يتلقاها
من ينيية عنه من ثقاته حين كان يتغيب عن مقره .

وكان صدر الصدور (المفتى) وقاضى القضاة ومساعدوهم

يعاونون الپادشاه عادة فى الفصل فى ذلك كله وفق قواعد الشرع الشريف ، مع مراعاة رسوم الهنادكة وشرائعهم فيما يعرض لهم من مشا كل ويقوم بينهم من خصومات .
وقد ألغى أكبر كثيرآ من العقوبات البدنية التى تتنافى مع الإنسانية ، كبت بعض أعضاء البدن ، وأمر أن يكون تنفيذ أحكام الأعدام منوطا بمصادقته شخصيا على الحكم .

هذا ولم تكن الدولة الإسلامية فى الهند ، قبل عصر أكبر ، تعرف التقسيمات الإدارية فى الغالب ، اللهم إلا ماذهب إليه شيرشاه فى هذا الباب من قبل ، إذ كان تحديد الإقطاعات رهنا بمشيئة السلطان وحده .

وانتهى أكبر إلى تقسيم أراضي الدولة إلى ولايات « سِيْپَه » وكل ولاية إلى عدة مراكز (سرکار) وكل مركز إلى جملة دساكر (برگنا) .

وكانت هذه الولايات فى أول أمرها اثنتى عشرة ، حتى إذا ما فُتحت الدكن بلغت خمس عشرة هى : آگرا والله آباد وأوده ودهلى ولاهور والمثلتان وكابل وآچمير والبنگسال وهار

وأحمد آباد ومالوه وموار وخاندش وأحمد نگر (١) .
 ورأس كل ولاية ، في هذا النظام ، يدعى سبها سالار ، أى
 القائد العام ، وهو نائب السلطان بها . ولم يكن له أن
 يتدخل فى حرب أو يبرم التحالف والصالح دون مشورة السلطان
 ورأيه .

وهو المشرف الأول على شئون القوات والقضاء فى إقليمه .
 وله أن يعيّن صغار العمال ويقيلهم . ولم يكن له أن يتدخل فى
 الأمور الشرعية التى هى من اختصاص الصدر وحده ، أو يصدر
 أحكامه بالإعدام دون إذن السلطان نفسه .

ويليه فى المنزلة ثمانية من أصحاب المناصب الكبيرة وهم :
 الديوان ، والصدر ، والعامل ، والبتخشى ، والخزندار ، والقوجدار
 المكتول ووقائع نويس . وبيان وظائفهم هو كالاتى :

الديوان : وبناطبه شئون المال بالولاية ، وهويل السباه سالار
 فى المرتبة . وكان فى أول أمره يعيّن من قبل أمير الأقليم
 نفسه ، حتى رأى السلطان أن يجعله تابعا له ليكون رقيبا من لدنه
 على كل ما يصدر عن الحاكم من تصرفات وأفعال ، ويحسد من

سلطانه كذلك إذا لزم الحال .

الصدر : وهو صاحب الشريعة في الإقليم كله، وكان في العادة من العلماء أصحاب المهابة ، ويأتمر القضاة ورجال العدل بأمره .
العامل : وهو صاحب الخراج ، وكان عليه أن ينظم جباية الضرائب ويراقب عماله جميعا في بقطة تامة وحذر على وجه العدالة ، وأن يجرى تقدير خراج الأرض على درجة خصوبتها وجودتها، وأن يعمل على تأمين الناس على أنفسهم وما يملكون ، ويظهر الطرق والسبل من اللصوص وقطاع الطرق ويراقب البيع والشراء .

البتخشي : وهو المحاسب الذي يراجع أعمال العمال ورجال الدخولية ، ويشترط فيه أن يكون ماهرا في الحسابات ملما بأصول الخراج ونظمه وأسس الإيرادات والمصروفات . وأن يسجل ذلك كله في سجلاته بالتفصيل .

الخزّندار : وهو صاحب الخزانة الحافظ لأموال الدولة ، وعليه أن لا يخرج مالا دون إذن الديوان ، مع إيصال بالتسلم ، ويثبت ذلك كله في دفاتره .

القوجدار : وهو القائد المباشر لقوات الولاية ، وعليه أن يعاون السبّهسالار في إقرار السلام في الإقليم كله ، ويعين العمال

من تحصيل الضرائب من أهل القرى والديساكر الذين يتمتعون
بأدائها ، على أن يكون ذلك بطلب مكتوب وتصريح من
الحاكم وكان هو الذى يطارد بقواته عصابات اللصوص وقطاع
الطريق ويخمد كل عصيان أو فتنة تنشب فى الإقليم .

الكوتوال : وهو صاحب الشرطة والمنوط به مراقبة تنفيذ
الأوامر والقوانين فى المدن .

وقائع نويس : وهو مسجل الوقائع ، وضابط الاتصال بين
الحكومة المركزية والولاية ، والرقب الذى لا تخفى عليه فى الإقليم
كله خافية .

وبواسطة هؤلاء الرقباء كان الپادشاه يقف على كل أمر ،
صغير أو كبير ، يجرى فى كافة نواحي دولته المترامية الأطراف .
وكان ، على كل واحد من هؤلاء أن يحيط أمير الإقليم ورجاله علما بما
يبلغه من الحوادث والوقائع قبل أن يرفع خبرها وتفصيلها
إلى السلطان .

وبرغم أن الپادشاه كان قد أحكم نظام الرقابة على عماله جميعا
فى مختلف أنحاء دولته فأقام من كبارهم رقباء بعضهم على البعض
لآخر ، فإن صعوبة المواصلات وترامى المسافات ، مع اشتغال
الدولة نفسها بالحروب والغزوات المتواصلة فى الغالب ، قد

اضعف من جدوى هذا النظام حتى صار حكام الأقاليم يتصرفون
عموما وفق هواهم وعلى مسئوليتهم الخاصة.

وامتدت إصلاحات أكبر كذلك إلى نظام خراج الأرض
الذى كان يُعد أهم موارد الخزينة بعد رفع ضريبة الرءوس عن
كاهل الهنادكة وإعفائهم من ضريبة الحج .

ولم يكن هذا السلطان هو أول من أجرى ضريبة الأرض
على نظام كفل العدل للمسلمين والهنادكة على السواء ، فقد سبقه
إلى ذلك شير شاه سوري ، وإن كان خلفاؤه قد عدلوا عنه من بعده
فآثروا النهج القديم مع ما كان فيه من إجحاف بالغ الأهلين .
وحين عهد أكبر إلى تدرمل وزير مالهته ديوان أشرف ، بوضع
نظام ثابت لخراج الأرض يوفى للدولة حقوقها ولا يضار
الاهلون به ، عمد هذا الأخير أولا - على ضوء تجاربه السابقة
بالكجرات حين عهد إليه بتنظيم شئونها - إلى مسموح أراضى
الدولة كلها وبيان ما يوجد منها فيُزرع على مدار السنة ،
وما يُزرع منها مرة واحدة في العام ، وما لا يُنسب إلا مرة واحدة
في كل بضعة أعوام ، وما يعتمد منها في السقى على الأمطار ،
وما يسقى منها من الأنهار والينابيع والآبار ، وما هو في حكم

البور ، وما يقع منها في السهل أو يقوم على سفوح الجبال أو تغطيه
الآحراش والغابات (١) .

حتى إذا تم له ذلك كله ربط الضريبة على متوسط الإنتاج
في عشر سنوات ، على أن يكون للدولة ثلث المحصول نقدا في
الغائب ، بعملة العصر ، وكانت دقيقة الصنع مضبوطة الوزن ، مالم
يصب الزرع بآفة أو ينقطع الماء عن الأرض فتجذب .

كذلك حاول أكبر جاهدا أن يدرأ عن بلاده خطر المجاعات
المروعة التي كانت تدهمها حين كالت تجذب الأرض بسبب
انحباس الأمطار الموسمية عنها . فاهتم إهتماما بالغاً باستصلاح
الأراضي البور ، وحضر الأهالي على الاشتغال بالزراعة
وتوسيع رقعة الأراضي المنزرعة ، وأمدهم بما يحتاجونه من البذور
ويعاونهم على زيادة إنتاج الأرض .

وكان من ثمرة هذه الجهود أن نعم الناس في الغالب بحياة طيبة
لم يألفوها منذ زمن بعيد ، وازدهرت عيشتهم ، وصارت الأسعار
في متناول أيديهم جميعا .

وقد اقتبس البريطانيون أغلب نظم أكبر ، الحكومية والإدارية

والإقتصادية ، حين صار إليهم زمام الأمور في الهند .
وثمة إصلاح آخر بالغ الأهمية أجراه الوزير الهندوكي
تدرمل ، بتوجيه من سلاطانه ، حين أمر بتحرير سجلات الدولة
كلها بالفارسية ، لغة المسلمين الرسمية بالهند إذ ذاك ؛ فأقبل
كثير من عمال الدولة من المسلمين الهنود والهنادكة على تعلم هذه
اللغة ، مما أدى إلى رواجها رواجاً كبيراً (١) ، ففي اليوم ثانی
لغات العالم الإسلامي انتشارا بعد العربية .

ومهد هذا الإجراء لظهور الأوردوية المكتوبة ، تلك اللغة التي
هي مزيج من لغات المسلمين ولغات الهند ، والتي نشأت نشوءاً
غريزياً من صلات سكان الهندستان من المسلمين والهنادكة
بعضهم ببعض ، لتأخذ صورتها الأدبية بعد قليل وتعم البلاد كلها .

الجليش : جرى سلاطين المسلمين في الهندستان على الاستعانة
في حروبهم بما كان يمدّهم به أصحاب الإقطاعات من الرجال
في الغالب . وكانت هذه الحشود ، على ضخامة عددها تجمل
أساليب القتال وفنونه عموماً ولا يتيسر لها فرص المران والتدريب .
حتى إذا ما قضى أكبر على نظام الإقطاع وصارت

يُراضى كلها ملكا للدواة ، وغدت ولاياتها تحكم بواسطة
نواب للسلطان يوليهم شئونها على نظام مرسوم ، رأى أن
ينهج في تنظيم قواته الحربية نهج علاء الدين الخلاجي وشيرشاه
سورى من قبل ، فتعدو للدواة قوات نظامية دائمة تقوم بدفع
تجورها من الخزانة العامة .

وكان من بين هذه القوات من يعمل تحت إمرة الپادشاه
نعمه ففى بمثابة حرسه الخاص ، ومنها من كان يعمل تحت
إمرة حكام الولايات . هذا عدا القوات الخاصة التى كان
يحتفظ بها أصحاب المناصب الكبرى فى الدولة (المصبدارية) .
وقضى هذا النظام على كثير من مساوىء سابقة ، ومنها
ما كان يبذله الأمراء عادة من الرشاوى للحصول على إقطاعات
واسعة نظير ما يتعهدون به من إمداد السلطان بالجند والمؤن ،
وما كان يستتبع ذلك من إرهابهم لسكان الإقطاع وابتزازهم
لأقواتهم ومصادرتهم لأموالهم وأملأهم .
هذا وكانت قوات أكبر المسلحة تتألف من المائة والمدفعية
والفرسان والبحرية .

والمشاة ، إذا استثنينا منهم حملة البنادق (بندقجى) وأرباب
السيوف (شمشير باز) ، لم يكن لهم فى المعارك شأن يذكر فى

الغالب . فعامتهم ، على كثرة عددهم ، كانوا يضطلمعون بخدمة القوة العاملة ونقل المؤن ورعاية الدواب وحراسة المعسكرات ليس غير . أمّا سلاح المدفعية ، وهو الذى أتى به ظهير الدين بابر إلى الهند على ما ذكرنا من قبل ، وعرفه السكجراتيون من بعد ذلك على أيدي البرتغاليين الذين كان لهم مستعمرات بشاطئهم فاستخدموه فى حروبهم مع همايون ، فقد كان مناط عناية الپادشاه الكبرى حتى كان يشرف على كل شئونه بنفسه . وأغلب خبراء هذا السلاح كانوا من رجال فرغانة ومن العثمانيين ومولدى البرتغاليين بالهند . وبلغ من اهتمام أكبر بهذا السلاح وحده على إدخال كل تحسين ممكن عليه ، أنه احتال على تيسير استخدام قطعه الثقيلة ، التى كانت تستنفد جهود الرجال عند نقلها من مكان إلى آخر ، بأن وجه مصانعه إلى صنعها من قطع صغيرة يسهل فكها وتركيبها ويهون حملها ونقلها على جنده . وأما سلاح الفرسان فكان هو القوة الضاربة الرئيسية فى الجيش ، حتى كان الپادشاه يوالى بنفسه التفتيش عليه ويختبر خيوله ، وينزل إلى حظائرهما ، ويراقب تدريب رجاله .

وإلى جانب الفرسان كانت هناك وحدات الفيلة ، وقوام كل واحدة منها كان يتراوح بين العشرة والثلاثين . وكان

كل فيل يحمل إسمًا خاصًا به على العادة التي لا تزال تجرى بتلك البلاد حتى اليوم .

كذلك عُنِيَ أكبر بتدعيم سلاحه البحري وإن لم يبلغ به إلى درجة الأساطيل التي كانت تجوب أعالي البحار في عصره على كل حال . وأغلب سفنه كانت تعمل في أنهار الهندستان وفي حدود موانيه ، ومن بينها ما كان يحمل المدافع الخفيفة وآلات الحرب .

وقام ، بتشجيع من السلطان وتوجيه منه ، عدة مصانع لبناء السفن مختلفة الأحجام والأشكال في لاهور وأحمد آباد وكشمير . وكان يعمل على هذه السفن فريق من مهرة الملاحين الذين كانوا يقدون من ساحل الملبار وكبباي ليلاقوا من تقدير البادشاه ما انتهى إلى تقرير رتب لهم نظير رتب الضباط في جيشه البري .

هذا وتبأبن أقوال مؤرخي أكبر في تحديد عدد قواته ، حتى ليذهب بعضهم إلى تقويم الفرسان عنده بأربعائة ألف والمشاة بما يقرب من أربعة ملايين .

والثابت المعروف أن الجيش الذي سار به البادشاه للقضاء على فتنة أخيه حكيم خان عند الحدود الشمالية الغربية كان يضم

قرابة خمسين ألفاً من الفرسان مع خمسة آلاف من فيول الحرب والوف
كثيرة من المشاة ، وجميعهم كانوا يقاتلون ، رتباتهم من الخزانة العامة .
ومن الطبيعي أن يتضاعف هذا العدد حين تنضم إليه قوات
الولايات ، وينكمش إلى ما دون ذلك بكثير أيام السلم .

الحياة والفكرية والثقافية : وقف المؤرخ عبد القادر
ابن ملوك شاه بداوني المجلد الثالث من كتابه « منتخب التواريخ » على
ذكر من عاصر أكبر واختلط به من الحكماء والعلماء والفقهاء
والمؤرخين والشعراء والأدباء الذين تجاوز عددهم الثلاثمائة .
والواقع أن الهند لم تعرف من قبل أكبر سلطاناً
مثله اجتمع حوله هذا العدد الكبير من رجال العلم والأدب ،
وأُتصِلَت ندواتهم عنده ولقوا منه كل إجلال وتقدير ،
حتى بلغ من احترامه أشيخه عبد النبي صدر الصدور مثلاً أنه كان
يقدم إليه نعليه بنفسه حين يغادر مجلسه . بل إنه حين بلغه مقتل
وزيره الفضل ، وكان عالماً ومؤرخاً كبيراً مشهوداً له بسعة الإطلاع
وغزارة المعرفة ، اشتد حزنه عليه حتى ودّ لو كان هو المقتول
مكانة ، فنابغ العلماء ، على حد قوله ، لا يجود بهم الزمان إلا في
النادر القليل ، بخلاف الملوك وإن صلحوا .

كان من بين كبار المؤرخين الذين عرفهم بلاط أكبر ،
المؤرخ محمد قاسم فرشته صاحب التاريخ المعروف باسمه ، وعبد القادر
بداوى سالف الذكر ، ونظام الدين أحمد صاحب طبقات أكبرى
ومحمد عبد الباقي صاحب مآثر رحيمى . وكان أبعد هؤلاء
ذكرا وأخلاقهم صيتا الوزير أبو الفضل بن مبارك العلائى الذى
نُعب دورا هاما فى توجيه آراء الپادشاه الفلاسفية ومبادئه المذهبية
على السواء . وله كتابان مهمان أولهما أكبر نامه ، وفيه
يستعرض تاريخ الدولة منذ نشأتها ، وقد أكله من بعده الشيخ
عناية الله لينم به تاريخ حكم الپادشاه كله ، ثم آيين أكبرى الذى
يسعد ثبنا كاملا لتقاليد الدولة المغولية ورسوم البلاط ونظام
الحكومة وقوانينها ، إلى جانب ما يحويه من حديث مفصل عن
المنادكة ورسومهم وعاداتهم وعلومهم .

ولم يكن أبو الفيض فيضى دون أخيه أبى الفضل فى نباهة
الذكر . فهذا الشاعر الذى لم يكن له نظير فى عصره ، حتى كتب فى
المنشوى والديوان أكثر من عشرين ألف بيت ، كان على نبوغ
كبير فى الكتابة والفقه ثم الطب الذى بلغ من شغفه به
أن أوقف علمه به على علاج الناس بالمجان . وترك هذا العالم
من بعده مكتبة كبيرة ضمت قرابة خمسة آلاف مجلد من

النوادر في الشعر والطب والفلك والموسيقى والرياضيات
والفلسفة والحديث والفقه . وقد نقلت جميعها ؛ على أثر وفاته ، إلى
البلاط بعد تصنيفها .^(١)

وإلى جانب فيضى ، اشتهر الشاعران الهندوكيان ندى داس
وسورداس اللذان كانا يجيدان النظم في الفارسية والسندسكريدية معاً .
ولا أدل على عظيم عناية أكبر بالفنون الجميلة من مخلفات
عصره الفنية الرائعة التي يزدان بها كثير من متاحف العالم الكبرى
اليوم . ولقد وفد إلى بلاطه جملة من مشاهير النقاشين الفرس
وعلى رأسهم ميرسيد على وعبد الصمد ، فلقوا عنده كل عناية وتشجيع .
ودفع بأكبر ولعه بهذه الفنون إلى أن يأمر بإقامة معرض للنقش
مرة في كل أسبوع تشجيعاً منه للفنانين وتشجيعاً لهمهم وإغراء
لمشاهيرهم بالقدوم إلى بلاده .

ولم يغفل بدوره كذلك عن تشجيع فناني الهنداكّة حتى نشأ
من بينهم طبقة فذة غدت تنافس نقاشى المسلمين في أكثر
من ناحية (٢) .

ولا يستغرب ذلك كله من عاهل أوتي من الأحاسيس الفنية

١ --- بداوى منتخب التواريخ ثالث ٣٠٥

Laurence Binyon : The court Painters of the — ٢
Grand Moghul . Oxford 1921 .

ما جعله يصرّح بأن التصوير هو ضرب من العبادة ، وأن للفنان ،
شيئا يبدو ، طريقته الخاصة بالإقرار بواحدية الخالق المبدع .
فهو ، حين يصوّر الكائنات الحية وينقش أعضائها وأطرافها
وملاحظها على لوحته ، لا بُد وأن ينصرف بذهنه وخياله إلى
التفكير في إبداع خالقها الذى نفخ فيها بما يعجز هو عن
تصويره وإبرازه .

وقد تختلف عن فنانيه لوحات كثيرة سجلت حياذ البلاط ورسومه
وكثيرا من مظاهر المجتمع لعصره فى إبداع منقطع النظير .

ومدرسة النقش المغولية التى وضع أسسها أكبر لها اليوم صيتها
الذائع فى عالم الفنون على كل حال .

كذلك كانت مصانعه تخرج طُرُفاهم النسيج المزركش والسجاد
تُفاخر المحلى بمختلف النقوش والألوان .

ولم تكن عناية أكبر بالموسيقى دون عنايته بالتصوير
والنقش . وما تزال الأنعام المغولية وألحانها لها سوق رائجة بالهند
حتى اليوم .

أما العمارة الهندية الإسلامية التى تعد بحق من مبتكرات
العصر الأكبرى ، فى القصور والمساجد والحمامات وغيرها من
المنشآت ، بمدينة فتحپور على الخصوص ، ما يُبعد من بين خير نماذجها

التي تجلّت رائعة فيها بعد في مثنوى تاج محل بآگرا الذي يُعدّ من بين عجائب الدنيا .

وفنون الهند هي جملة : باعتراف المؤرخين الأوربيين . لم تكن في عصر أكبر دون فنون أوروبا منزلة إن لم تتفوق عليها في بعض نواحيها (١) .

استلّى أكبر في أواخر أيامه بكموارث عائلية حطمت من قوته النفسية وهدّت من كيانه . من ذلك فقدّه لولديه مراد وكدا نيل على التوالي بإدامتهما على الشراب ، وعقوق ابنه الأكبر سليم وعصيانه له حتى دبر مقتل الوزير العالم أبي الفضل بن المبارك الأعظم خالصاً الپادشاه وأكبر مستشاريه (٢) .

واشتد الداء على أكبر عام ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م فأسلم روحه إلى بارئها في جمادى الآخر من العام نفسه .

وحاول الخان الأعظم عزيز كسكا ومعه الأمير الهندوي راجا من سنغ ، والپادشاه في أيامه الأخيرة ، أن يمهّدا للنبادة

V. A. Smith. History of Fine Arts in India and — ١
Ceylon. Oxford 1930 .

٢ — تكمله أكبر نامه لعناية الله ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٣

بالأمير خسرو، ابن سليم وحفيد أكبر، سلطانا على الهند بدلا من أبيه الذى أدى بغيره إلى تمكن كراهيته من قلوب الكثيرين . لكن بديرهما باء بالفشل حين قدم سليم إلى أبيه وهو فى النزاع فقلده سيف همايون وعمامته وعهد إليه من بعده ^(١) .

ولم يكن أكبر بهى الطلعة ، وإنما كان قوى البنية مقداما شجاعا ، لم يتقاعس أبدا عن مشاركة جنده فى أعنف المعارك أو يتردد فى مواجهة أضرى النمرة والأسود والفيلة وأشدّها شراسة فى المصطاد : كما كان يستخف بأربعين ميلا يمشيها فى اليوم الواحد : ويندفع بحصانه فى مجرى الكنجج إبان موسم الأمطار والفيضان وسيوله الجارفة .

كذلك كان أكبر شديد البر بالناس عظيم الإحسان إلى الطبقات الفقيرة خصوصا ، حتى جاوزت رحمته بهم كل مدى وشملهم عدله إلى أبعد حد .

ومن تواضعه أنه كان يتقبل من أهل الطبقات الدنيا هداياهم البسيطة الزاخرة بنفسه ويضمها إلى صدره ممتنا ، مع أنه كان لا يكثر هدايا الأمراء والأعيان (٢) .

١ — وقايى « حالات » اسعد بك قزوئى ١٦٩ — ١٧١

٢ — الهند وجيرانها ١٣٧

وكان، إلى جانب نظافته الشديدة، بسيط الثياب في الغالب ، فلم يكن يميل كثيرا إلى التحلى بالجواهر ، غير كلف بأنواع المآكل والمشارب . ولقد أقلع في كهولته عن تناول الشراب ، ولكنه ظل طوال حياته مدمنا على تعاطى معجون الأفيون، وهى رذيلة ظلت تتمكن من كثير من سلاطين الهند وفارس وتركيا أمدا طويلا (١) لتوردهم موارد الردى فى سن مبكرة فى الغالب .

هذا وكان أكبر طموحا يستمتع بصفات عقلية ممتازة يسّرت له أن يقضى وقتا مرسوما فى النظر إلى شئون الدولة وماتقضىه نظمها من ضروب الإصلاحات التى كان يحيش بها صدره ، لينصرف من بعد ذلك إلى الجلوس إلى طوائف العلماء والحكماء الذين كانوا يقدون إليه من كل أمة على إختلاف مذاهبهم ومللهم، حتى شهدت الهند فى عصره نهضة عقلية رائعة لم تكن تقل عن نظيرتها بأوروبا إذ ذاك .

وترك أكبر من بعده لا بنه دولة موطدة الأركان تتألف من الشمال الهندى بأكمله مع كابل وكشمير والبنغال وجزء كبير من الدكن .

١ --- جرب البادشاه كذلك التدخين وكان التبغ حديث الورد إلى الهند . وقايعي : أسعد بك ١٦٥ --- ١٦٧ ، وفى هذه الصفحات نقاشٌ طريف بين أسعد بك وضيبي السلطان الذى كان يحذره من الأندفاع وراء تقاليد الأوربيين فى عاداتهم دون تبصر .

ممكن هو أول من انتقل بالباريين من محاربين وطلاب
المغامرات إلى أصحاب أسرة مالكة عظيمة . ذلك أن بابر ، أول
السلطان المغول في الهند ، كان قد شغل بحروبه ومغامراته وفتوحه
سيرة حياته ، في حين قضى همايون الشطر الأكبر من عمره في
المنفى يجاهد لاسترداد ملكه الذي كان قد انتزعه منه الأمير الأفغانى
شهر شاه سورى ، وطرده من الهند كلها ، ثم كتب الاستقرار على
عنى عرش الهند لأبى الفتوح جلال الدين محمد أكبر . فتجلت عبقريته
في تنظيم حكومة بلاده على اتساع رقعتها ، حتى كانت طريقته في الحكم
عمى التي أذاعت من صيته أكثر مما أذاعته فتوحاته ، فأجمع كثير من
المؤرخين على أنه أعظم ملك عرفتة الهند ، حتى ليسلك كذلك
بن أعظم الملوك في التاريخ طرا (١) .

جهانگیر

لم يكن أكبر ، وهو من هو في رعايته للعلم والعلماء ، لينسى لابنه سليم مقتله لوزيره المؤرخ العالم أبي الفضل بن المبارك . كذلك لم يكن ليروقه منه ولعه الشديد بالشراب ، حتى جال بخاطره يوما ، بتجريض من صديقه رانا من سنغ وقائده عزيز ككا ، أن يتخطاه بولاية العهد إلى حفيده خسرو .

وحال دون تحقيق هذا الأمر حسن تدبير هذا الأمير حين قدم إلى أبيه مستتبيا عما بدر منه من عصيان وعقوق في السابق ، ليجلس من بعد ذلك على عرش الهند في آگرا في الثامن من جمادى الثاني عام ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م باسم السلطان أبي المظفر نور الدين محمد جهانگیر .

وبرغم ما كان من ميل هذا الأمير للشراب ، فقد كان على درجة كبيرة من الثقافة ، شغوفا بالمعرفة التي نشأه أبوه عليها ، متشبها بالتسامح المطلق الذي دأب أبوه على غرسه في نفسه وبشئة فيه ، حتى غدا في ذلك كله بصورة ممخورة لسلفه أعظم سلاطين

من المد المسلمين بلا شبهة .

ودفع جهانگیر حرصه البائع على ضمان إجراء العدل
بمطلق في دولته ، بالوقوف على شكاوى رعاياه والظر في تحقيقها
بنفسه ، إلى أن أمر بمد سلسلة العدالة التي ذاع صيتها عنه : « أول
ما أمرت به بعد جلوسى على العرش هو مد سلسلة العدالة لأطلع
بنفسى على شكاوى المظلومين من إهمال رجاء ديوان العدالة
لأمرهم ، » (١) . وكانت سلسلة من الذهب الخالص تطول
بلائين ذراعا ، وتتدلى منها أجراس سبعة ، وتمتد من شرق
البرج السلطاني الخاص بقلعة آگرا لتبلغ أسطونا شُدت إليه
عند شاطئ جمته . والغالب أن سطوة الحكام ونفوذ العمال
كان أقوى من إرادة السلطان ، فلم تُحرك هذه السلسلة وتهز
أجراسها إلاّ مرات قليلة .

هذا كما كان في أسفاره ورحلاته الكثيرة لا يني عن تفقد
أحوال الناس والجلوس إليهم وتحقيق مظالمهم بنفسه .
دستور أمل : ودعم جهانگیر صنيعه هذا بإصدار « دستور
أمل » ، وهو اثنتا عشرة وصية وجهها إلى عماله ليسيروا على

١ — واقعات جهانگیری ص ٢٨٥ . وهي تقليد جرى عليه بعض حكام الصين الإقليمين .

هديها في علاقاتهم برعاياه وتديرهم لشئون الدولة .
وقد نظم هذا الدستور وظائف الدولة ومنصبها المدنية والعسكرية والدينية على السواء ، وفسر شئون الميراث وقوانين الضرائب ، ودفع عن كاهل الأهالي ما كانوا يلزمون بدفعه للولاية والعمال من الضرائب ليفيدوا منها لأنفسهم ، كما حظرت تطبيق العقوبات التي تؤدي إلى جلد أو قطع الأذن أو بتر أي عضو من أعضاء البدن مهما بلغ عظم ذنب المذنب . كذلك حرم هذا الدستور تعاطي الشراب وصناعته وتجارته ، وحضراً على إقامة دور الشفاء في كافة أنحاء البلاد وتزويدها بالأطباء ، على أن تقوم الدولة بالإففاق عليها ، فتصرف الغذاء والدواء للمرضى بالمجان ، وحرّم على الولاية والعمال استخدام أقاربهم في مناصب الولايات أو مصاهرتهم إلى الأهالي دون إذن صريح من السلطان ، وحشّهم على إضفاء الأمن والطمأنينة على الناس فلا تغتصب أملاكهم أو أموالهم ، وأن يكفّوهم أخطار اللصوص وقطاع الطرق بتعمير الأرض الخلاء التي يأوى الأشرار عادة إليها ، وذلك ببناء الدور والمساجد بها وحفر الآبار فيها فيأنس الناس إليها .
كذلك نظم هذا الدستور مسكوكات الدولة من الذهب

والفضة والنحاس وجعل لكل صنف منها علما مرسوما ^(١) .
ونهج جهانكير نهج أبيه أكبر في التشبث بالتسامح المطلق
أزاء رعاياه من الهنادكة على الخصوص فقرَّبهم إليه وفتح لهم باب
المناصب الرفيعة في الدولة .

والثابت أن هذه السياسة قد ساعدت في كثير من الأحوال
على إقرار السلام في أراضي الدولة المغولية المترامية الأطراف
أكثر مما عاونت عليه قواتها العسكرية وآلاتها الحربية . وحين
عدل حكام هذه الدولة فيما بعد عن سياسة التسامح هذه التي جرى
آباؤهم عليها ، أخذت الدولة تتعرض لمناعب شديدة دفعت بها
آخر الأمر في طريق التفسخ والانحيار .

ولئن كان السلطان قد شمل صديقه راجا برسنغ ديو ، قاتل
الوزير أبي الفضل ، بالكثير من الرعاية ، فإنه لم ينس ، على كل
حال عبد الرحمن خان خانان بن الوزير المقتول رفعه مكانا عليا .
كما تغاضى كذلك عن فعلة القائد عزيز ككا وراجا مَن سنع ، حين
كادا يميلان بأبيه إلى إبعاده عن ولاية العهد ، فأجزل عطاءه لهما ،
وإن لم يغمض عينيه أبدا عن مراقبة سلوكهما وسلوك ابنه خسرو
الذي كادا يناديان به مكانه في السابق .

ثورة الأمير خسرو : ما غدت نوازع الشباب الغض وأطباعه أن تغلبت على خسرو وهو يعلم أن له من بين الكبار في الدولة ظهراء في آماله ، فانطلق من حصن آگرا ، حيث كان أبوه يستبقيه به تحت عينيه ، واتجه إلى البنجاب في بضع مئين من رجاله وقد رفع بنود العصيان .

وانضم إليه في الطريق بعض صفار القادة ومعهم عبد الرحيم ديوان لاهور ، الذي اتخذوه وزيراً له ، كما نفحه گورو أرجونا زعيم طائفة السیک وصاحب جرانث صاحب ، أقدس كتبهم ، قدراً كبيراً من المال بدوره ، حتى إذا ما بلغ لاهور ، امتنع دلاور خان أمير البنجاب عليه بها ، ليُقبل السلطان من بعد ذلك بنفسه فيصدّه عنها ويوقعه في أسره ويمثل بمن ماله في عصيانه من القادة أشنع تمثيل ^(١) .

وكان مادفع بجها نگیر إلى خروجه بنفسه عَجِلاً في أثر ابنه ، هو ما خافه من احتمال اتصاله بعدوّه راجا من سنغ في البنغال ، أو الأوزبک والفرس عند حدوده الشمالية الغربية فيفتح بذلك باباً للمتعاب والأخطار التي لا تحمد عاقبتها .

على أنه ارتكب خطأ شنيعاً حين أمر بقتل زعيم السكّ ،
 وهو ، لمدّة ابنه الناصر بالمال ، وكان في مقدوره أن يلقى بهذا الشيخ
 الحبس حتى يوافيه أجله بسلام ، فيتجنب بذلك إثارة عدا
 النفقة السكّ الكبيرة القوية التي رفعت شهيداً إلى مرتبة
 تديسين ، وراحت تنادى على طول الزمن بالنار لمقتله ، فساهمت
 مداتها هذا مساهمة فعّالة في تعجيل انهيار بناء الدولة المغولية
 حين بدأ الضعف يمتورها . ^(١)

وكان الحبس لم يفتّ في عضد الأمير خسرو ، فإغدا بعد
 قليل أن استمال إليه نفرأ من حرّاسه ليتآمروا معه على قتل
 السلطان . حتى إذا ما وقف جهانكير على تدبيرهم ، حين بلغ لاهور
 قادماً من كابل حيث كان يستجم ، أمر بقتل المتآمرين ، دون
 منه الذي سمّلت عيناه وإن ترفق به الكحال حتى استرد بعض
 بصره بعد قليل . وقد بقي ، خسرو في محبسه حتى وافاد أجله بالدكن
 عام ١٠٣١ هـ / ١٦٢٢ م . ^(٢)

اضطرابات البنغال : أدى اضطراب الأحوال في البنغال ،
 كثرة توالى الحكام عليه وقصر إقامة كل واحد منهم به ، إلى أن

جمع الأفغان هناك شملهم من جديد ، فراحوا ، بزعامة من يدعى
عثمان أفغان ، يثيرون القلاقل والفتن ، حتى قدم إليهم القائد مهايت
خان فقضى على عصيانهم وأقر الأمور في هذه البلاد من جديد .
وكان لحسن صنيع جها نكغير مع زعماء الثوار في البنغال ،
حين عفا عنهم وقلّد بعضهم مناصب في الدولة ، أكبر الأثر في
ركونهم إلى طاعته وتفانيهم في خدمته .
وكذلك فعل السلطان مع رانا أمار سينغ صاحبِ موار فوصله
وابنه وبالغ في إكرامهما . (١)

مَلِكْ عَنبر : كانت الدكن قد ظهر بها قبيل وفاة أكبر وزير
حازم وقائد شجاع هو ملك عنبر الحبشى وزير ملوك نظام شاهى
أصحاب إمارة أحمد نگر .
وقاد هذا الوزير بصيرته النافذه إلى الإفادة من المرهتها
الهنداكة وما عرفوا به من شجاعة وتهور في القتال ، فدرّ بهم
على حرب العصابات ومعارك الأدغال .
وقد استفحل أمر هذه الطائفة حين بدأ الضعف يدب في
الدولة المغولية . فصارت لهم دولة وقوة رهيبة طفقت تهدد حكام

الهند المسلمين تهديدا خطيرا .

وأمكن لهذا القائد الحبشى أن يسترد أغلب الأراضى عند أسير گاه وما حولها ، وهى التى كان قد استولى عليها أكبر ومنعه خروج ابنه سليم عليه من التوغل عند الجنوب منها . حتى إذا ما توالى قواد جهانگیر على الدكن فصدّهم عنها وأرغمهم على الارتداد إلى الكجرات ^(١) ، بعث السلطان بالخان خانان فهدّ الأراض بضرب العدو ، ليقدم شهزادة خرّم من بعد ذلك ويقر الأمور هناك بعد حروب طويلة انتهت بضم أقاليم الدكن الشمالية إلى أراضى الدولة ، وإن لم تكسر شوكة الوزير الحبشى ورجاله ، حتى تمكن خليفته حميد خان ، وكان من بنى جلدته ، أن يصرف قادة السلطان عن حربه على قدر كبير من الأموال .

قد أقام السلطان ابنه خرّم نائبا له بالدكن ولقبه بشاهجهان وهو اللقب الذى عُرف به من بعد ذلك فى التاريخ .

كذلك كتب لجهانگیر التوفيق بالاستيلاء على حصن كنجرا الهندوكى الشهير عام ١٠٣١هـ / ١٦٢١م بعد حصار طويل دام أربعة عشر شهرا . وكان قد امتنع من قبل على فيروز تغلق وأكبر نفسه ، بل وكل الفاتحين المسلمين منذ أيام محمود الغزنوى الذى تم له اقتحامه .

فانتهب ما بمعبد نكر گوت الذى يقع فى نطاقه من أموال وكنوز (١)
ثورة شاهجهان: أدى ضياع قندهار من أيدي الدولة
المغولية إلى إثارة حفيظة السلطان على ابنه شاهجهان، بتحريض من
زوجته نورجهان ، حتى صار الحال إلى خروج الابن على أبيه
وجهره بعصيانه له .

ذلك أن هذه المدينة فضلا عن أهميتها التجارية الكبيرة ،
حتى كان يمر بها فى العام الواحد ما ينوف على أربعة عشر ألف
جمل تحمل البضائع فيما بين الهند وفارس ، كانت موقعا حربيا
خطيرا عند حدود الهند الشمالية الغربية ، مما حدا بباير وأولاده من
بعده أن يحرصوا على الاحتفاظ بها فى أيديهم

ولئن كان الفرس قد أكرهتهم بعض الظروف على التخلي
عنها إلى حين ، فإنهم لم يعدلوا أبداً إلى التنازل عن حقهم الثابت
فيها أو تغفل عيونهم عنها أبداً . فاتهمز الشاه عباس الصفوى
فرصة اضطراب الأمور ببلاط الهند عند وفاة أكبر فزحفت
قواته إلى المدينة ، فما زال أميرها شاه بگ خان ممتنعا فيها حتى
وافته قوات جهانگیر فأبعدت هؤلاء الغزاة عنها .

هنالك شرع الشاه الفارسى يلاحق محاولاته الودية عند

السلطان الهندي عاتيه يسترد مدينته سلمبا . حتى إذا ما أبقن بفشل
دساعيه بادر عام ١٠٣٢هـ / ١٦٢٢م بضرب الحصار عليها .

وحين طالب جهاننكير إلى ابنه شاهجهان أن يبادر بالسير من
الدكن إلى قندهار لدفع الفرس عنها ، خاف إن هو سار إلى خارج
الهند ، أن تكيد له زوج أبيه نورجهان في غيابه ، وكانت قد
شرعت تحشد جمودها ومعها أخوها آصاف خان لحمل السلطان
على جعل ولاية العهد للأمير شهربار أصغر أبنائه وزوج ابنتها من
زوجها الأول شير أفكن ، فظهر بعصيانه لأبيه حتى رفض أن
يسير إليه جند الدكن حين طالبه بها .

هنالك اهتبلت نورجهان هذه الفرصة التي سنحت لها بذلك ،
فراحت تخطط من قدر الأمير الثائر وتُعلي من قدر ختنها أصغر أبناء
السلطان حتى عقد له جهاننكير لواء حملة قندهار .

وفيما كانت السلطنة منهمكة في تنفيذ خططها ، سقطت
قندهار بأيدي الفرس ، لتفقد من بعد ذلك رسل الشاه الصفوى إلى
جهاننكير وتؤكد له حق أميرها المتوارث وقومه في هذه المدينة
فيتقبلهم بقبول حسن ويبعث في أثر قواته يأمرها بالارتداد إليه .
وقوى من جبهة نورجهان أن كان يناصرها في خططها فريق
من كبار القواد والأمراء ، وفيهم آصاف خان ومهابت خان وبرسنغ

بندلا قاتل أبى الفضل ؛ وها هو السلطان نفسه يسير برأيها ، وموارد الدولة كلها رهن تصرفها .

واشتبك الخصمان ، السلطان وابنه ، فى قتال عنيف عند الجنوب من دهلى . حتى إذا ما دارت الدائرة على شاهجهان ، فاعتذر ملك عنبر و سلطان غولكونده عن مديد العون له حين أكره على الارتداد إلى الدكن ، انطلق إلى أوديسه قتم من هناك إخضاع البنغال وبهار له . على أن فشله فى الاستيلاء على أوده والله آباد ، وما تكشف له من تفشى الخيانة بين صفوفه ، اضطره إلى الارتداد إلى الدكن من جديد ، فرحب به ، فى هذه المرة ، ملك عنبر الحبشى حتى كاد يشتبك إذ ذاك مع قوات الدولة فى بيجاپور .

ووضح لشاهجهان آخر الأمر ضعف مركزه بالدكن ، فلم يكذب يكتب إلى أبيه مستتبيا حتى حملت نورجهان السلطان من فورها على الصفح عن ابنه ، على أن يبعث بابنيه ، دارا شكوه وأورنكزيب ، وكنا حديثين إذ ذاك ، رهائن بدار السلطنة (١) .

مهابت خان : لم تكن نورجهان لتذهب هذا المذهب فى حمل السلطان على الإستجابة إلى ضراعة ابنه الأكبر لولا ما بدا لها من أخطار تهدد بالقضاء المبرم على خطتها وهدفها الأكبر فى

الحصول على البيعة لخمها شهر يار .

ذلك أن مهابت خان ، وهو ذلكم القائد القدير الذى تم على يديه إقرار الأمور بالنغال ودحروقات شاهجهان من بعد ذلك ، بساق ذرعا بنورجهان التى غدت تسيطر بنفوذها على شئون الدولة ، التى أدى بها غرورها إلى الخط من أقدار كبار الرجال ، فانطلق يدعو لأخذ البيعة لبرويز ثانى أبناء السلطان ، وكان طوع يمينه ، ضمن بذلك خلاص الأمر له مستقبلا .

وأدى غلو السلطان ، بتحريض من زوجته ، فى اضطهاد ابنه وقائده حين أمر الأول بالسير إلى الدكن والثانى بالتوجه إلى البنغال ، إلى أن فرّ الإثنان من عنده وخرجا عن طاعته .

وما غدا مهابت خان أن كمن للسلطان . وهو فى طريقه من لاهور إلى كابل قادما من كشمير ، فسقط عليه فى خمسة آلاف من محاربي لراجپوتيين الأشداء عند نهر جهلم ، رافدا السند : وأوقعه فى أسره (١) . ولم تفلح نورجهان أول الأمر فى فك أسار زوجها ، فباءت نواتها بالهزيمة وسقطت وأخاها بدورهما فى الأسر ، لتصل دهاثها وحيلتها من بعد ذلك إلى الإيقاع بمهابت خان وهو يسير فى

حفنة قليلة من رجاله ، حتى لم يتمكن من الخلاص إلا بشق الأنفس
فهرب إلى الدكن .

هذا وكان شاهجهان قد سارع بدوره لنجدة أبيه حين علم
بوقوعه في الأسر ، فلم يباغ السند حتى وافته رُسل
نورجهان تنبيهه بما أشاعه خبر مقدمه من الاضطراب في صفوف
مهابت خان ، حتى تم لهم الخلاص مما وقعوا فيه ، وتشير إليه
بالارتداد سريعا إلى الدكن لإقرار الأمور فيها. (١)

نورجهان : هذه السيدة ، التي صارت صاحبة السلطان المطاق
في الهند في عهد جهانگیر ، هي ابنة تاجر فارسي يدعى ميرزا
غياث ساقته الأتدار إلى بلاط أكبر نولي ديوان كابل واضطلع
به في مقدرة فائقة . وما غدت ابنته هذه ، وكانت تدعى
مهر النساء أن بنى بها مغامر فارسي آخر يدعى علي قلى استاجلو
ويشتهر كذلك باسم شيرافمكن ، وكان قد قدم الملتان فالتقى بالخان
خامان الذى ألحقه بأحد المناصب في الجيش .

وصحب علي قلى هذا الأمير سليم (جهانگیر)
حين سيّره أبوه أكبر لقتال رانا مواري ، ولبث معه

كذلك بعض الوقت بالمكن ؛ حتى إذا ما خرج الأمير على أبيه ، كان ذلك القائد الفارسي من بين الذين تخلوا عنه من القادة وتركوا معسكره .

وحين ولي جهانگیر العرش ، فتناهى لكل رجال أبيه السابقين ما كانوا قد ارتكبوه في حقهم وشمهم جميعاً ببرّه ، عهد إلى شيرا فكن بدوره بأحد المناصب في البنغال ؛ حتى إذا ما استراب في اتصاله بعصاة الأفغان هناك ، فبعث إلى نائبه البنغالي قطب الدين يأمره بتسييره إليه ، اهتبل هذا القائد فرصة انفراده بحاكم البنغال فهوى عليه بسيفه حتى كاد يقضى عليه ، لولا أن أسرع إليه حرس قطب الدين فزقوه إرباً بسيوفهم وأنفذوا أميرهم .

وسُيِّرت أرملة شيرا فكن عقب ذلك إلى البلاط فلبثت به سنوات أربع حتى بنى بها جهانگیر عام ١٠٢٠ هـ / ١٦١١ م . وما تقوله الرواية عن غرام السلطان بهذه السيِّدة منذ أن رآها بالمكن أيام أبيه ، حيث كان زوجها يسير في حاشيته ، حتى انتهى إلى تـيـير مقتل زوجها بالبنغال لتخلص له ، قد نجد له سنداً في حملة السلطان نفسه ومؤرخيه على شيرافكن ، حين يصفوه بأنه كان مجرد ساقٍ عند الشاه الصفوي إسماعيل الثاني ، وأنه سار سيرة أهل

البغى والفساد فى البنغال (١) .

ولعل بناء جهانگير بهذه السيدة، بعد أن تركها تقيم سنوات أربع فى حرم أمه ، إنما كان فى الغالب لينسى الناس قصتها ولتخف لوعتها على زوجها وما لقيه من مصير أليم . وأيضًا ما كانت حقيقة المسألة ، فإن هذه السيدة ، التى كانت لاتزال على جمال فائق برغم بلوغها الرابعة والثلاثين من عمرها حين بنى بها السلطان . قد أوتيت من قوة الشخصية وحدة الذكاء ورجاحة العقل ما يسر لها أن تغدو صاحبة الكلمة الأولى فى الدولة، حتى خضع لمشيتها السلطان والقادة وتقبلوا جميعا مشورتها بأحسن القبول . ولا أدل على دهائها وسعة حيلها من نجاحها فى تخليص نفسها وزوجها من أسر القائد مهايت خان والإيقاع به بدوره على ما فصلناه من قبل .

واشتهرت هذه السيدة كذلك بقوتها البدنية الفائقة وشجاعتها الخارقة ، حتى انبرت لصراع أشد الكوا سرفتكا ، كما كان لها كذلك مشاركة فى الدراسات الأدبية وتفنن ذائع فى تصميم الأزياء ونقوش النسيج والجواهر والحلى (٢) .

ولقد كان حريا بنورجهان أن تقصر جهودها على وجوه الخير التي حققت الكثير منها ، حتى نهضت بالمرأة الهندية ورفعت الكثير من الجور عنها وساهمت مساهمة فعالة في معاونة الكثيرات من الفتيات الفقيرات على الزواج . فقد جرها ما صار لها من بالغ النفوذ على زوجها ، حتى ضربت السكة باسميهما (١) وذيلت مراسيم الدولة بخاتميها جنباً إلى جنب ، إلى أن طفقت ، بوحي من أطعماها ، تعمل لجل السلطان على البيعة لأصغر أولاده وختمها الأمير شهربار ، فأثارت بذلك ثائرة شاهجهان ، صاحب الحق الأول في ولاية العهد ، حتى جبر بالخروج على أبيه . ونهج نهجه كذلك طائفة من كبار رجال الدولة حين رأوا هذه السيدة تعمد ، بدافع من غرورها وكبريائها ، إلى محاولة النيل من أقدارهم ، انتزع هذه الدسائس والفتن كلها من بناء الدولة وتعوق من إقرار الأمور فيها من بعد ذلك .

وساعد على إطلاق يد نورجهان في تصرف شؤون الدولة ، فضلا عن وله جهانگیر بها ، ما كان من إدمانه على الشراب ، الذي قضى على أخوية وهما في ميعة الشباب من قبل ، وتعاطيه

للأفيون ، حتى قضى فى ٢٨ صفر من عام ١٠٣٧ هـ / ١٦٢٧ م ،
والكأس فى يده ، بعد أن حكم اثنين وعشرين عاما .

شخصية جهانكير : لولا محنة الشراب التى ابتلى بها جهانكير
لأفادت الهند منه خيرا كثيرا .

فلقد كان لهذا السلطان الكثير من صفات أليه العالیه التى أراها
له حين حرص على تزويده بالكثير من العلم والمعرفة والفضائل . فنهج
نهج التسامح المطلق فى حكمه وقرّب إليه المسلمين والهندكة على
السواء ، ولاطف الأوربيين ومبشرينهم حين قدموا إليه .

هذا ، كما كان له مشاركة كبيرة فى الدراسات الأدبية
والتاريخية ، والمسام واسع بعلوم الحيوان والنبات خاصة ، وشغف
بالغ بالحدائق وتنسيقها بل وتزويدها بكل نبت جديد ، مما لم تكن
تعرفه الهند ، على ما كان يفعله جدّه بابر من قبل .

وبلغ من رسوخ قدم جهانكير فى الفنون الجميلة ، وبخاصة فى
فن النقش والتصوير ، أنه كان فى مقدوره أن يميز نقوش كل فنان
بخصائصه ، فى سهوله ويُسر . حتى عند ما يشترك جملة منهم فى نقش
واحد ^(١) . وحين كان يعرض عليه زواره من الأوربيين صور

بزيكهم وأمرائهم ، كان يأمر نقاشيه بنقلها ، تنوًا ، ليزين بها
مدران بلاطه .

وقد كتب بدوره سيرته ، على غرار ما فعل آباؤه في الغالب ،
ضمنها الكثير من أعماله ومشاهداته . ويؤكد صدق روايته
نحوها ، ما كتبه معاصروه من الأوربيين عن هذه البلاد حين
زاروها (٢) .

البريطانيون عند جهانگیر : أدى ما أذاعه البرتغاليون بأوروبا عن
سلخ ثراء الهند الطائل ، وما كانوا يرونه من كرم حكامها وترحيبهم
المسيحيين وملاطفتهم لهم ، أن قصد هذه الأرض في القرن
السابع عشر الميلادي نفر من تجار الهولنديين والبريطانيين
الفرنسيين ليبيغى كل واحد منهم لأمته قدرا من الامتيازات
تأهلها التجارة وباطنها وهدفها الاستعمار .

وسبق البرتغاليون الأوربيين جميعا إلى الهند على ما فصلناه
من قبل ، ثم جاء الهولنديون في أثرهم ، وكان لهم نشاط تجارى
محموظ في جزر الهند الشرقية ، وفي جاوه وبتافيا على الخصوص ،
سججوا في إقامة بعض مصانع لهم بسورات بالكجرات وعند
سواطى قيايانگیر وغولكونده الشرقية ، ودعموها بالحصون

لثقف فى وجه منافسيهم من البرتغاليين الذين كان لهم عند دولة المغول مقام حميد . وما زالوا يجدّون فى نشر أسواقهم بالهند حتى بلغوا بها آگرا نفسها ^(١) .

واقفنى البريطانيون أثر الهولنديين فى غزو الأسواق الآسيوية . والهندية بخاصة . وجاء منهم إلى الهند عام ١٦٠٨ م ولیم هوكنز ، فكان أول بريطانى يظهر فى آگرا ويلتقى بالسلطان . وحين عرض على جها نكیر رسالة من مليكه جيمس الأول يرجوه فيه تيسير أمور التجارة الإنجليزية ببلاده ، احتفى به السلطان أول الأمر احتفاء كثيرا حتى أذن له بمشاركته مجالس شرا به . وبقي عنده فترة من الزمن ، حتى بلغ البرتغاليون بدسائسهم إلى تنفيره منه ، فرجع إلى بلاده دون أن يحقق غرضه على الوجه الذى ابتغاه . وكان مما ألقاه هؤلاء إلى السلطان فى شأنه أنه لا يعدو أن يكون رسول ملك صغير على جزيرة صغيرة ، تدعى انجلترا ، أغلب سكانها من صيادى الأسماك . ^(٢)

ومهد ازدياد النفرة بين حكام الكجرات والبرتغاليين

ومشترىهم ، إلى الترحيب بتوماس رو مبعوث ملك الإنجليز حين
وصل إلى هناك من بعد ذلك عام ١٦١٥ م ، فاستطاع بلباقته
وسمه وما جلبه معه من الطُّرف والجواهر والحلى ، وما قدمه
لرئيس الدولة من الهدايا الفاخرة ، أن يبلغ عند السلطان مكانة
مستويزة ويصل إلى ما يريد. فثبتت شركة الهند الشرقية البريطانية
أقدامها في أماكن عدة ، وصار لها مصانع في سورات ، وعند
ساحل كوروما ندل ، وغوالكونده ، وإلى الجنوب من مدراس .
وقد وصف هذا السفير وسلفه ، سلطان المغول الهندي
وبلاطه وما كان له من أبهة بالغة ، كما تحدثنا عن نظام حكمته
وجيشه وتقاليده القوم ورواج الثقافة عندهم .

هذا ، وكان التجار الأوروبيون يحرصون عموما على أن يجلبوا
إلى الهند كل طريف من منتجات بلادهم ويغمروا أسواقها
بالمكاليات وأدوات الزينة التي كان الناس هناك يكملون بها كفا
سيدا ويتهاقنون عليها تهاقنا عظيما ، ليأخذوا منهم في نظيرها
الواد الأولية والبحار والقطن والنيلة ، فيجوزون من مقايضاتهم هذه
أحاطة غنما وفيرا . وكانت هذه المقايضات تجري في
نائب في موالي بروج وسورات وكبای وقاليقو طثم في كلكتا

من بعد ذلك . (١)

وكان مما يَسَّر للبريطانيين على الخصوص غزو أسواق الهند،
خلو جالياتهم أول الأمر من المبشرين وحرصهم على تجنب التدخل
في شئون الناس وتظاهروا بالموودة والمداينة لهم .

وإذى تعرض البرتغاليين لبعض السفن التى كانت تحمل
بضائع برسم السلطان ، مع نفور الناس منهم ، إلى أن أغرى جهانگیر
البريطانيين بقتالهم ، بعد أن طردهم من بلاطه ، فنزلت بهم فى البحر
ضربات قاصمة .

وكسب التجار البريطانيون بصنيعهم هذا امتيازات أخرى
ما زالت تزداد على مر الزمن ، وما غدوا يدعمونها بالخبث والدهاء
ويثبتونها بالغدر والخيانة حتى وضعت بريطانيا أيديها على
شبه القارة الهندية كلها .

شاهجهان

حين مات جهانگیر سارع آصاف خان بإنباء صهره شاهجهان
بالدکن بالخبر، ثم عمد من فوره إلى إخراج داور بخش، حفيد
السلطان الراحل من ابنته خسرو، من محبسه وأجلسه على العرش،
ليتق بهذا الإجراء الموقوت ماعساه أن يحدث من اضطراب الأمور
فی المدينة، حتى يتأتى له تخلص أولاد شاهجهان،
محمد داراشکوه، وشاه شجاع، وأورنگزیب، وكانوا جميعا بقیمون
عند نورجهان^(۱) منذ أن بعث بهم أبوهم رهائن فی دار السلطنة.
ولم تکن نورجهان لترضى بما ذهب إليه أخوها آصاف
فخرت ختنها الأمير شهریار علی أن ینادی بنفسه فی لاهور،
قصة البنجاب، سلطانا علی الهند. وظاهره علی هذا الأمر
أمیر من أولاد عمه دانیل، لیسارع إليه من بعد ذلك آصاف
خان بنفسه ویقتحم المدينة علیه ویلقى به فی الحبس بعد أن
سُملت عناه.

وتناهى خبر ذلك كله إلى شاهجهان ، ولما يبرح الدكن بعد ،
فكتب في التو إلى صهره آصاف خان يحرضه على القضاء على منافسيه
جميعا ، فكان لتنفيذه كل ما رغب فيه زوج ابنته أكبر الاثر في
ارتفاع مكانته عنده وازدياد نفوذه في البلاط بالتالى ، حتى صار
وزير السلطان الاول ولقب بيمين الدولة . ولم تكتب النجاة
من مذبحه آصاف خان تلك إلا لداوربخش فلاذ ببلاد فارس
حتى أواخر أيامه .

هنالك لم تملك نورجهان بإزاء ذلك كله إلا أن تعتزل الحياة
العامة . وقد تناسى لها السلطان الجديد كل ما كان لها معه من
عداء وأجرى عليها رزقا حسنا . ووافاها أجلها بلاهور
عام ١٠٥٥ هـ / ١٦٤٥ م فتسويت إلى جوار زوجها جهانكير بيستان
دلکشا بظاهر قصبة الپنجاب .

ولد شاهجهان عام ١٠٠٠ هـ / ١٥٩٢ م ، من أم هندوكية ، -كأبيه-
هى ابنة رانا مروار . وهو ثالث أبناء جهانكير وأقدرهم جميعا ،
اتصف برجاحة العقل والذكاء وقوة العزيمة حتى كان جده أكبر
شديد الاعتزاز به كثير الحذب عليه . وقد عرف دون سائر
مراء أسرته السابقين بعزوفه ، فى الغالب ، عن مقاربة الشراب
مع مجانبته اللهو والعبث . وكفلت له صفاته العالية هذه ثقة أبيه

فيه دون أخويه : خسرو ، الذى عهد إلى عقوبه له منذ صغره .
 ويؤيد الذى لازمته العلل وضعف الإدراك منذ ولادته ، وكان
 بينهما يدمن الشراب فقضيا به فى حياة أبيها .

وإراد من قدر هذا الأمير عند أبيه ما أظهره من مقدرة وكفاءة
 فى حرب الراجپوتين عند موار ، وما أبداه من حنكة ودراية
 حين أرغم ملك عنبر الحبشى على قبول شروطه بعد ما أنزله من
 الهزائم المتكررة بقوات الدولة ، فأنعم عليه بلقب شاهجهان
 وعهد إليه بإدارة حكومة الدكن . حتى إذا ما توجهت
 نرجهان الخيفة من علو شأنه تخشيت أن يطغى بنهذه على
 سلطانها ، راحت توقع ، بالدس ، بينه وبين أبيه ، فاعدا أن
 رفض السير إلى قندهار حين طلب إليه أبوه ذلك - وكان قد بلغه
 ما تدبره زوج أبيه لجل السلطان فى غيبته على البيعة إلى ختنها
 أصغر الأمراء شهر يار - لينتهى به الحال من بعد ذلك إلى
 الجهر بعصيان طال أمده حتى عادت المياه بينهما إلى مجاريها من
 جديد على الوجه الذى فصلناه من قبل .

وحين دخل جهانگیر فى النزاع ، تدبر آصاف خان
 الموقف ، على ضوء مصالحه الخاصة ، فى روية وحذر ، فأثر
 أن يقف إلى جانب ختنه القوى الرشيد شاهجهان معرضا عن أخته

نورجهان وختنها شهریار ، لیصل من بعد ذلك - وفق ما قدر
ودبر - عند السلطان الجديد إلى أعلا المناصب ویصیر له بالدولة
شأن وأی شأن .

ممتاز محل : بنی شاهجهان عام ١٠٢١ هـ / ١٦١٣ م وهو فی
صدر شبابه بأرجمند بانویگیم ابنة آصاف خان وهی التي تشتهر فی
التاریخ باسم ممتاز محل أو سیده التاج .

وهذه السیده، التي حرص أبوها علی تنشئتها تنشئة طيبة وتزويدها
بالعلوم والآداب منذ صغرها ، كانت علی جمال فنان وخلق نبیل
وصفات عالیة أدت بها إلى ملازمة زوجها فی كل المحن التي
مرت به ، إبان خلافه مع أبیه وحروبه معه . فی وفاء وإخلاص
قل نظیره . وحين رقی زوجها العرش صارت له خیر ناصحة
ومرشدة ؛ فلم یسبد منها أبدا ما كان من شأنه أن یغضب رجال
الدولة أو یثیر ثائرة القادة ، وإن أخذ علیها بعض المؤرخین دفع
زوجها ، بوازع من تقواها وورعها ، إلى العدول بعض الشيء
عن التسامح المطاق الذي كان یصطنعه آباؤه بأزاء الهنادكة
والمبشرین المسیحیین . ولعل شاهجهان إنما منع ، بوحی منها كذلك ،
تجود الناس للسلطان ، علی ما كان متبعاً منذ أيام أكبر ، وعاد

الدولة إلى اتخاذ التقويم الهجرى فى أعمالها (١)، وحرّم التطاول على
«قام الخلفاء الراشدين عند شيعة بلاده ، وحدّ من بناء معابد
جديدة للمنادكة .

ولم يبطر ممتاز محل ما كان لها من نفوذ بالغ و ثراء طائل ،
فكانت تقيم على البر بالفقراء والأرامل ، وتعين بما لها الفتيات
الغفيرات على الزواج ، كما وسعت رحمتها كثيرا من المذنبين ، حتى
كانت تباع بتدخلها عند زوجها إلى ردّ حياتهم عليهم فى الغالب .
وإعادة أصحاب المناصب منهم إلى مناصبهم (٢) الأولى .

ووافاهما أجلها عام ١٠٤٠ هـ / ١٦٣٠ م وهى تضع طفلها
الرابع عشر ، فحزن عليها زوجها حزنا شديدا ، حتى عزف عن كل
مباهج الحياة برغم امتداد الأجل به من بعدها خمسة وثلاثين عاما .
وقد أذاع من صيتها ذلك المشوى الفخم الذى أقامه زوجها لها ، فكان
من آيات وفاته لذكرها . ويعرف هذا الضريح باسم « تاج محل »
ويُسعد بحق من بين روائع الفن المعماري فى الدنيا .

ثورات الدكن : تعرض شاهجهان فى بداية حكمه لبعض

١ — بدلا من التقويم الألى الاكبرى

٢ — Muslim Rule. p 485

ثورات في الدكن ، كان منها ثورة راجا ججهار سنغ في بُندخلاند .
ذلك أن هذا الأمير الهندوكي كان قد ورث عن أبيه برمن سنغ ،
قاتل أبي الفضل ، أموالاً طائلة ، فجأل بخاطره أن يناهض الدولة
في قوات أبيه السابقة ، وكانت بدورها وفيرة العدد ، حتى اضطر
السلطان أن يسيّر إليه قائده مهايت خان في سبعة وعشرين ألفاً
من الفرسان وستة آلاف من المشاة ، فأرغمه على الإستسلام له ،
ليعاود عصيانه في العام التالي من جديد ، وينطلق ينتهب أراضي
جيرانه من الهنادكة ، ولكن خروجه ماغدا أن انتهى به إلى مقتله
وولده بكر ماجيت .

وفرغ شاهجهان من هذه الفتنة لتنتقل قواته في العام الثاني من
حكمه في أثر قائد أبيه السابق خان جهان لودهي حين أشعل بالدكن
بيران ثورة ثانية . فقد عمد هذا القائد الأفغانى ، عقب وفاة جهانگیر
وقبل بلوغ شاهجهان العاصمة ، إلى الزحف إلى ماندو والاستيلاء
على مقاليد الحكم فيها . وأطمعه عفو السلطان عنه من بعد ذلك حين
ولاه بعض الدكن ، فانطلق يعنف بالأهلين ويشتط في ارتكاب
المظالم والجور ، ليسيّر إليه السلطان عندئذ قائديه عبد الله خان ،
ومظفر خان فمأز الايطاردانه حتى ظفرا به بعد عامين فأُورِد حقيقته (١) .

المجاعة والقحط : لم يفرغ شاهجهان من هذه القلاقل إلا ليواجه محنة القحط الذى اجتاح بلاده فى العام الرابع من حكمه ، وذلك بسبب انحباس الأمطار الموسمية التى تعتمد عليها الهند فى السقى والرى ، فانجاب عن مجاعة بشعة بدت أقسى مظاهرها فى الكجرات والدكن ، وزاد من سوء الحال انتشار الأوبئة لامتلاكه بين السكان .

وبرغم ما بذله السلطان من جهود جبارة لإغاثة الناس ، حتى أمدهم بالكثير من المؤن والأرزاق والأموال وأقام المطاعم المجانية لهم وأعفاهم من أغلب الضرائب المفروضة عليهم ، فإن رداءة المواصلات وازدحام الطرق بالمهاجرين قد عوق كثيرأ من بلوغ هذه النجيدات أهدافها ، حتى باع الناس أولادهم من الإملاق وطعنهوا الجيـف من الخمصة ، وغلبهم تعلقتهم بالحياة على حبهم لأولادهم ، حتى كان منهم من ذبح ولده وطعم لحمه (١) ، وكثيرا ماسدت الطرق أحداثُ الألو ف من الصرعى ، وأقترت قرى وأحياء بأكلها من ساكنيها .

البرتغاليون : ضاق شاهجهان ذرعا باستبداد التجار البرتغاليين

عند شواطئ البنغال ، إذا انطلقوا يتخطفون الناس هناك قسرا
ليبيعوهم في سوق الرقيق ، وفرضوا على السكان مكوسا لحسابهم ،
حتى عم أذاهم وجورهم أغاب المناطق التي كانوا ينزلون بها عند
شواطئ الهند الشرقية والغربية على السواء .

وتفاقم خطر مبشريهم تفاقما خطيرا ، فقد جاهدوا ، في ظل مواظمتهم
هؤلاء ، لحمل الأهليين على قبول عقيدتهم قسرا ، كما راحوا
يتدخلون في شؤون الدولة التي يعيشون في كنفها ويتآمرون عليها
مع تجار الهولنديين وغيرهم من الأوروبيين الذين كانوا يفدون
إلى هذه البلاد لا متصاص مواردها . ويشجعون بعض الخارجين
على سلطان الدولة من أبنائها على العصيان حتى كتب أسقف جوا
البرتغالي نفسه يشكوهم إلى ملكه ^(١) .

ولم يكن شاهجهان بغافل عن سلوك هؤلاء البرتغاليين الذين
أقدهوا ، إبان محنته مع أبيه ، على اختطاف فتاتين من أتباع زوجه
بمنازل حين نزل على مقربة من محلتهن ، فسكت إذ ذاك على مضض
ولم ينسها لهم . حتى إذا ما ولي الحكم وفزع الناس إليه من عسفهم
بعث من فوره عام ١٠٤٠ هـ / ١٦٣١ م بقائده قاسم خان (٢) .

كما على البنغال وأمره بافتحام مراکز هؤلاء الطغاة وتشيتهم .
وبرغم امتناع هؤلاء الدخلاء في حصون قوية ، كانوا قد
سروها بالمدافع وشحنوها بالبنادق والرجال ، فقد اقتحم عليهم
رجال السلطان أقوى مواقعهم في هوجلي وخاصوا من أيديهم
عشرة آلاف من أهل الهند كانوا مُعَدِّين للتصدير . (١)

ولم تخسر الدولة في هذه الحرب أكثر من ألف قتيل ، في
حين سقط من أعدائها عشرة آلاف ، ووقع في الأسر أربعة آلاف
آخرون منهم ، سيقوا إلى آگرا ليخيروا بين اعتناق الإسلام
أو الحبس .

وإن كان شاهجان قد عمد بإجرائه هذا مع أسراه إلى أن يردَّ
الصاع صاعين للبشرى البرتغاليين (٢) ، وهو خطأ لم يكن لمثله أن
يرتكبه ، فهو على كل حال لم يذهب إلى ماذهب إليه ملوكهم بأوروبا
وأسبانيا على الخصوص حين خيروا مسلمي الأندلس بين اعتناق
المسيحية أو الموت حرقا . وقد ردَّ السلطان الهندي هؤلاء
البرتغاليين آخر الأمر إلى محلتهم على كل حال ، وإن لم يستطيعوا أن
يعودوا بها إلى سيرتها الأولى من العمران لفرط ما كان قد نزل بها

من الدمار .

ولم يتردد البريطانيون ، على الخصوص ، فى الإفادة من هذه المحنة التى نزلت بأعظم منافسهم بالهند فبدلوا جهودا كثيرة للتقرب من السلطان والحصول على مزيد من الإمتيازات لهم ولقومهم بالتالى .

حروب الدكن : تاق شاهجان إلى أن يتم الفتوح التى بدأها أبوه وجده من قبل بالدكن والتى شارك هو بنفسه فى بعض منها أيام جهانگیر . وشدة من عزيمته للمضى فى هذا الأمر ، وهو السنى المتمسك بعقيدته ، حرصه البالغ على منع انتشار مذهب الشيعة الذى كان بعض سلاطين الدكن قد طفقوا يروجون له فى إماراتهم ويرحبون بأصحابه الفرس ، حتى غدت بلادهم مثابة لمناوئة السنييين فى الهند وإثارة الفتن بين السكان .

ولئن قعد بشاهجهان بعض ما اعترض عهده من الأحداث عن المضى بخطته إلى غاية ، فقد أضطلع بهذه المهمة ابنه أورنگزيب من بعده ، وما زال بها حتى أتمها على خير وجه ، فلم تخضع الدكن كلها لسلطان الدولة فحسب ، بل لقد أظلت راية المسلمين شبه القارة الهندية كلها من أدناها إلى أقصاها .

هذا ولقد كان من أثر خروج شاهجهان ومهابت خان على

مناعة السلطان جهانگیر، وما تبع ذلك من أحداث فصلناها في موضعها، أن ضعف سلطان الدولة في الدکن، لينتهز أصحاب بيجاپور وغولكونده هذه الفرصة فيخلعوا عنهم الولاء للسلطان المغولی ويوسعوا، من بعد ذلك، في رقعة أراضيهم على حساب إمارة أحمد نگر التي بقيت على ولائها الاسمى للسلطان.

واستبد بشئون الحكومة في أحمد نگر قائد مراهتى يدعى شاهجى، حتى صار سلاطين هذه الإمارة ينصبون وفق هواه، ويظاهرة في استبداده هذا أصحاب بيجاپور فراخوا يمدونه بالمال والرجال، فلم يرشاهجهان بازاء ذلك كله إلا أن يخرج بنفسه إلى الدکن، وكان قد طلب إلى أصحاب بيجاپور وغولكونده أن يعدلوا عن عدم دفع الخراج لشاهجى ويعترفوا بسلطانه هو من جديد فلم يستجيبوا له.

وأدى ظهور شاهجهان بالدکن في قواته الكثيفة إلى أن بادر أمير غولكونده بإعلان طاعته له من جديد، وقد تعهد له بمنع سب الخلفاء الراشدين ببلاده، وإجراء الخطبة بالثناء عليهم، والعدول عن الدعاء لشاه الفرس فيها.

وبقى صاحب بيجاپور على عصيانه حتى اقتحمت قوات السلطان بلاده ففتكت بأغلب قواته وانتزعت عددا كبيرا من

من حصونه ، ليرضى آخر الأمر بالخضوع ويتعهد بالابتعاد
عن القائد المراهتهى شاهجى الذى يادر بمهادنة السلطان بدوره . ولم
يرجع شاهجهان من الدكن حتى أقام ابنه أورنگزيب نائبا له هناك
عام ١٠٤٥ هـ / ١٦٣٦ م وقد دخلت فى حوزته دولت آباد
وأحمد نگر وتلنجانا وخاندش وبرار (١) .

مكث أورنگزيب بالدكن سنوات ثمانية ، حتى إذا لم يستطع
صبرا على ما بلغه من تمكن أخيه الأكبر داراشكوه من قلب أبيه ،
فصارت أمور الدولة لا تجرى إلا وفق مشورته قدم بنفسه إلى
العاصمة بدعوى قلقه على صحة أخته جهان آرا ، وكانت قد أصيبت
بحروق شديدة حتى أشرفت على الموت ، فلم يجد لها نفعا ما بذله
الاطباء من جهود كثيرة لانقاذ حياتها . لولا تريات صنعها
مولى يدعى عارف أزاح به آلامها عنها ورد الحياة إليها . وقد
قابل السلطان صنيعه هذا بإغداق الأموال والإينعام عليه .

بلخ وبدخشان : بسعى الأميرة جهان آرا رضى السلطان عن
أورنگزيب من جديد فذبه الحكومة السكجيات فقضى بها
عامين اضطلع فيهما بشئونهما على خير وجه ، حتى وجهه من بعد
ذلك إلى بلخ وبدخشان ، ليشارك هناك فى حروب عنيفة مع

كان شاهجهان يبغي من ورائها اسروداد بلاد
من وراء النهر كلها ، موطن آبائه السابقين ، التي لم يغفل أحد
من سلاطين المغول بالهند عن السعى إلى استرجاعها ما واتهم
الفرصة وتكشّف لهم ضعف حكامها .

ولئن أفلح أورنگزيب في إنزال ضربات قاصمة بالأوزبك ،
على كثرة عددهم بالقياس إلى قلة قواته ، فقد انسحب آخر الأمر
من بلخ بعد أن أجلس على عرشها أحد أحفاد نظر خان حاكمها
السابق ، على الولا . له ، ليفتك الزمهرير بفريق من قواته من بعد
ثلاث وهي في طريق العودة وتضيع كل الأموال والجهود التي أنفقتها
الدولة في هذا الغزو هباءً (١) .

قندهار : أشرنا من قبل إلى ضياع قندهار من أيدي
شاهانگیر حين رفض ابنه شاهجهان أن يسير إليها لدفع الفرس عنها ،
بأن كان قد بلغه ماتدبره نورجهان في الخفاء لخل زوجها السلطان
بني البيعة لختها الأمير شهربار من بعده .

وحاول شاهجهان عام ١٠٤٧ هـ / ١٦٣٧ م أن يستعيد هذا
الإقليم بالمودة من أيدي الأمير الفارسي علي مردان ، نائب الشاه
نصفوى عليه ، لكن مسعاه باء بالفشل . حتى إذا ما كتب أمير قندهار

إلى سلطانه يسأله إمداده بالجند والعتاد ليقوى بهما على صد قوات الهند عن أراضيّه ، حمل مطلبه على غير حقيقته فظنّه لا ينبغي من وراء ذلك إلاّ تدعيم سلطانه ثم الخروج عن طاعته ، فسير إليه قوات كبيرة ، لا لتشدّ من أزره وإنما لتوقعه في أسرها وتعود به إلى العاصمة .

وجـين وقف على مردان على ما كان يُدبر له ، سارع من فوره بالكتابة إلى حاكم كابل المغولي يستنجد بشاهجهان ، لتقبل قوات الهند على المدينة من بعد ذلك فتدخلها ثم تدفع قوات الشاه الفارسي عنها بعد قليل .

ولم يسكت الفرس بدورهم على ضياع هذه المدينة من أيديهم . حتى إذا مارق الشاه عباس الثاني عرش الصفويين اعتزم الخروج لاستردادها في شتاء عام ١٠٥٩ هـ / ١٦٤٩ م وهو يعلم أن ثلوج الهندكوش سوف تعوق أي مدد يسارع به سلطان الهند إلى تعزيز حاميتها إبان هذا الفصل .

وصح ما جرى في حساب الشاه الصفوي . ذلك أن دولت خان ، نائب شاهجهان هناك ، حين بان له تردد دولته في تسير الجند إليه إبان فصل الثلوج ، وكان يلح عليها من قبل هذا لتعزيز قواته فلا يجد لمطلبه سميعا ، لم يصبر طويلا على الحصار

ماستسلم لأعدائه وهو لا يعلم أنهم بدورهم كانوا على وشك الرحيل عنه لنقص كبير طرأ على مؤنهم ، وأن قوات الهند كانت بالفعل في طريقها إليه .

وجهد شاهجهان من بعد ذلك في استرداد هذه المدينة من جديد ، يستمر إليها نخبة من قواده وقواته وعلى رأسهم ابنه أورنگزيب ووزيره سعد الله خان الذي خلف آصاف خان بعد وفاته .

وكان حرياً بالسلطان أن يستجيب لأورنگزيب حين طلب إليه أن يأذن له بالسير في محاولة ثالثة نحو هذه المدينة (١) ، وكان قد أمكن له في حصاره السابقين لها أن يدرس مواقعها وإمكانات حاميتها دراسة خبير ، حتى كاد أن يتم له دخولها لولا إقبال الشتاء ونفاذ مؤونه ، فأدى رفض شاهجهان لطلبه ثم تسميره دارشكوه إليها هذه المرة ، على قلة درايته وخبرته الحربية ، إلى رد قوات الدولة عنها كرة ثالثة وضياح ما بذل لفتحها من أنفس وأموال هباء (٢) .

أورنگزيب في الدكن : عاد أورنگزيب إلى الدكن عام ١٠٦٣ هـ / ١٦٥٣ ، بعد غياب دام سنوات ثمانية قضاه في

١ - عمل صالح ثبات ٥٣٤

٢ - شاهجهاننامه ١٠١ ، ١٠٢

الأكجرات وعند بلخ وقندهار ، ليرى حكومتها قدساءت أحوالها حتى غدت عبثاً ثقيلاً على الدولة ، تستنفد إدارتها كثيراً من أحوال بيت المال بدار السلطنة بعد أن كانت تمدّه في السابق بخراج وفير . فقد انصرف حكامها إلى رعاية مصالحهم الخاصة ، فأهمّلوا شأن الزراعة بها وطفقوا يثقلون كاهل الأهالي بما فرضوه عليهم من مكوس لحسابهم حتى هجر الفلاحون أغلب أراضيهم وفرّوا من قراهم ، فأجذبت الحقول وخوت البساتين والحـدائق على عروشها . فما غدا ، بمعاونة إدارى حازم يُدعى مرشد قُلى خان ، أن نهض بالزراعة ، عماد ثروة الإقليم ، من جديد ، فجعل كافة الأراضى الخصبة تحت إدارته مباشرة ، وأمنّ الفلاحين في أعمالهم وأمدّهم بالبذور الجيدة والماشية وشجّعهم على استصلاح الأراضى البور وزراعتها .

واهتدى مرشد خان بنظم تُسدرمـل وزير أكبر ، فأمر بمسح الأراضى كلها وأعاد تقدير الخراج المفروض عليها من جديد ، فجعل للدولة نصف محصول الأرض التى تزرع على مياه الأمطار ، وثلثه من الأراضى التى تروى بمياه الآبار ، فيما عدا البساتين والحدائق فيجبى منها ربع المحصول . أما الأراضى التى كانت تسقى من الترعى والقنوات فكان ربطها يتراوح بين الزيادة

والنقصان بحسب طبيعة تربتها .

وبهذا النظام ، وما كفله من توفير الأمن للفلاحين ، أقبل
خيلاء على أعمالهم في جِدٍّ ونشاط أدى إلى استقرار اقتصاديات
البلد من جديد ونهوض مواردها بالتالى .

كذلك كان من أثر سوء إدارة حكام الدكن ، إبان غياب
أورنگزيب عنها ، أن عاد أصحاب غولكونده وبيجاپور إلى سابق
حروجهم على طاعة السلطان ، فامتنعوا عن دفع ما فرض عليهم
من جزية وراحوا يتخطفون أملاك الدولة هناك . حتى أغتم
أورنگزيب فرصة سنحت له بنشوب الخصام بين عبد الله قطب
شاهى سلطان غولكونده ووزيره محمد سيد المعروف بمير جملة -
وكان هذا الأخير قد بلغ الكثير من النفوذ والقوة فصار له جيش
خاص به داخل الدولة قوامه خمسة آلاف من الفرسان وعشرون
ألفاً من المشاة - فزحف بقواته على هذه الإمارة بدعوى
تخليص أسرة الوزير من الحبس ورد أملاكها إليها . ولم يُغن
سلطان غولكونده فتيل ما بعث به إلى قادة القوات المهاجمة
من أموال كثيرة وجواهر عساهم يرجعون بذلك عنه ، فاقتم محمد
بن أورنگزيب عاصمته وأوقعه فى أسره .

وعنى شاهجهان آخر الأمر عن قطب شاهى وردّه إلى إمارته

بعد أن أقسم على الولاء له، ليرتبط معه من بعد ذلك برابطة النسب حين زُفّت ابنته إلى محمد بن أورنگزيب^(١). وما غدا مير جملة بدوره أن شمله شاهجهان بالرعاية حتى وزر له خلفا لسعد الله خان .

وسار أورنگزيب كذلك إلى بيجاپور، وكان قد بلغه اضطراب أحوالها بعد وفاة سلطانها محمد عادل شاه، فما زال بها، ومعه مهابت خان ومير جملة، حتى وقع بأيديهم حصون بيدار وگولبورگة وگلياتي وبارنده. فما إن فرغوا من أمرها عام ١٠٦٨ هـ : ١٦٥٨ م فأنطلقوا إلى مدينه بيجاپور نفسها، حتى أمرهم شاهجهان بوقف القتال، إذ رضى سلطانها بالصلح على جزية كبيرة مع إعلان خضوعه وولائه، وتنازله عما ضاع من أيديه من الحصون^(٢).

فتنة الأمراء : رأى شاهجهان : حين اشتد به المرض عام ١٠٦٧ هـ : ١٦٥٧ م أن يعهد بالملك من بعده إلى داراشكوه أكبر. أبناءه الأربعة من ممتاز محل دون إخوته، وكان قد استبقاه إلى

١ - شاعبه تنامة ١١٨ ، ١١٩ .

٢ - عمل صالح ١٢٨ .

جانبه بآگرا حتى يتدرب على التمرس بأغباء الحكم .
ولم يكن لهذا الأمير بطبيعته كفاية حرية أو حكمة سياسية ،
إلا أنه كان واسع الإطلاع ، شغوفا بدراسة الأديان بخاصة ، حتى
نقل ، بمعاونة بعض علماء البراهمة ، اليوپانيشاد المقدس من
السنسكريته إلى الفارسية . وجرّ عليه اختلاطه بالهنداكة واشتغاله
الكثير بعلومهم ، سخط علماء السنّة ، مما يسر لأخيه أورنگزيب
أن يفيد من ذلك مستقبلا ، حتى بلغ إلى تأليب المسلمين في الهند
عليه إبان نزاعه معه على العرش .
أما شجاع ، ثاني الأبناء ، فكان في مقامه بالبنغال منصرفا في
الغالب إلى ملاذّه . وقد تعاون جو هذا الإقليم وإدمانه للشراب
على إضعاف عزيمته والهدّ من كيانه .
هذا ، في حين كان أورنگزيب يسوس شئون الدكن في همة ونشاط .
ولم يكن رابع الإخوة ، مراد بخش ، وهو في مقامه
للكجرات إلا صورة أخرى لأمير البنغال .
وأثار نبأ البيعة اداراشكوه ثائرة إخوته الآخرين ، إذ كان
كل واحد منهم يرى نفسه أحق بالملك من أخيه . (١) ومن هذا
الأمير ، بخاصة ، الذي كان يُشاع عنه ميله إلى محاولة إيجاد دين

جديد يمزج فيه قواعد الإسلام بعقائد الهنادكة .
على أن أورنگزيب — وهو الذى قد كفل له محبة الناس
وثقتهم به ما أظهره من كفاية فى الحرب وما عُرف عنه من الحزم
والخلق القويم والتسك التام بأحكام الشرع — تمكن من أن
يُغرى أخاه مراد بالائتلاف معه، على أن يفتسما أرض الهند فيما
بينهما فيكون للثانى منها البنجاب والسند وكشمير وبلاد الأفغان .
فالتقت قواتهما بقرية دهرمت على مقربة من اُجَين وقد أعلننا
معا أنهما إنما قد قدما لتخليص البلاد من ربة ذلك الأمير المرتد
داراشكوه .

واتجه شجاع ، بدوره ، على رأس جيش كبير ، إلى دهلى بعد
أن كان قد نادى بنفسه سلطانا على البنغال ، لكن قوات سليمان
بن داراشكوه ما غدت أن أرغمته على الإرتداد إلى إمارته بعد
ن بلخ بنارس (١)

وبامت بالفشل كل الجهود التى بذلها الوسطاء لمنع الصدام
بن قوات داراشكوه وأخويه ليُمنى من بعد ذلك جند دهلى
زيمة شديدة ساعد عليها نفور بعض القواد المسلمين فى جيش

الدواة من السـير تحت إمرة قادة من كبار الهنادكة فأنحازو إلى صفوف مهاجميهم .

وقوى من عزيمة أورنگزيب ما انضم إلى جبهته من قوات عديدة ، وما وقع بأيديه من أسلاب وذخائر حربية ومؤن ، فاتجه إلى گواليار حتى حط رحاله بسهل سموگره إلى الشرق من آگرا ، لينزل من بعد ذلك هزيمة أخرى قاصمة بعدوه ، بعد قتال عنيف عظمت فيه خسائر الطرفين ، حتى اضطر داراشكوه آخر الأمر إلى الارتداد إلى آگرا سريعا في الليل تاركا كل عتاده ومؤنه لأخيه .

وحين بلغ الأمير الظافر آگرا فمكتب إلى أبيه يمتدح إليه عن هذه الحرب التي أكرمه أعداؤه على خوض غمارها ، بعث إليه شاهجهان بسيف بدعى عالمـگير هدية منه ودعاه للقدوم إليه . غير أن رجال أورنگزيب حذروه مما قد يكون أعدّه له أبوه من شر الكلايقاع به ، وأشاروا عليه بأسر السلطان على الفور حرصا على سلامته وتأمين المركزه .

وأدى قطع الماء عن حصن آگرا إلى استسلام حاميته بعد دفاع مجيد ، لتحدّد من بعد ذلك إقامة شاهجهان في جناح الحرم بالقامة ، ولم يكن يرخص لأحد الاتصال به إلاّ لابنته

جهان آرا التي تفانت في السهر على راحته حتى آخر حياته .
ووقع بأيدي أورنگزيب رسالة كان أبوه قد بعث بها إلى
داراشكوه يحذره فيها من القدوم إليه ويطلب إليه لزوم دهلي ،
فتكشّف له بذلك سوء نوايا أبيه نحوه وصح لديه ما حذّره رجاله
منه في السابق ، فخرّم الكتابة على السلطان المعتقل .

وأحس أورنگزيب ، وهو في طريقه إلى دهلي زحفاً ، بنفور
أخيه مراد منه حتى شرع يتآمر عليه ، فدبر بدوره أمر اعتقاله
غدرّاً لبُسيره من بعد ذلك إلى السجرات ويعتقله بقلعتها . وما
غداً أن أُدين هناك لقتله ديوانه على نسقي قُتِل به عام ١٠٧٢ هـ /
١٦٦١ م ^(١) .

وحين بلغ أورنگزيب دهلي نودي به عام ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٨ م
سلطاناً على الهند باسم عالمگیر .

هَذَا ، وقد ظل داراشكوه يضرب في أرض البنجاب
والملتان والسجرات وآجمير ، حتى حط به المطاف عند زعيم من
البطمان يدعى : ملك جيوَن ، كانت له عليه أياد سابقة كثيرة ،
فلم يغن عنه ذلك كثيراً ، إذ غدر به الأفغانى ودفع به إلى أخيه

أفتى العلماء بكفره وأباحوا دمه (١) .

أما شاه شجاع فما زال به قواد أورنگزيب يطاردونه في
بنغال حتى اختفى في جبال آسام وانقطعت أخباره .

ولو أن شاعجهان ، حين أبلّ من مرضه الذي اعتقد أن فيه
بسه ، كان قد عمد من فوره إلى حسم الموقف بنفسه بدلا من
أن يبعث إلى ابنه داراشكوه يطلب إليه العـدول عن قتال
خوته ، وقد كان يوقن أنه لا بأس عليه من قدومهم إلى دار
سلطنة ، لتغير الموقف كله على وجه السلامة .

فقد كان حريّا به أن يبرز إلى الميدان بنفسه فيقضى بظهوره
على الشائعات التي راجت بموته والتي ساعد على انتشارها سدّ ابنه
لّا كبر الكافة الطرق المؤدية إلى الدكن والگجرات والبنغال
قطعه البريد عنها .

هذا ، كما كانت دعوته لمجلس الحرب الذي يضم كبار القادة ،
كفيلا بدوره ، في مثل هذه الظروف ، بالقضاء على الفتنة في
مهدا ، في الغالب .

وغنى عن البيان أن ما عُرِف به أورنگزيب من مقدرة
بحزم مع انتصاره لعلماء السنة وتأيدهم له . قد أدى إلى التفاف

القوم حوله . فلم يكن ما أظهره الأهلون من الأسى حين جرى بداراشكوه إلى دهلي أسيراً فطوّف به في طرقاتها إلاّ لغدر مضيفه به في الغالب .

ولبت شاهجهان في محبسه سنوات ثمانية ، حاول في أثناءها عبثاً العمل على استرداد ملكه . حتى قضى أسيفاً حزينا عام ١٠٧٧ هـ / ١٦٦٦ م وهو في الرابعة والسبعين من عمره ، وهو يرنو ببصره إلى تاج محل ، حيث ترقد زوجه الحبيبة ممتاز محل ، وإلى جواره جهان آرا ، ابنته منها ، التي وقفت حياءها على خدمته والعناية به .

شخصية شاهجهان : كان شاهجهان حاكماً قديراً بلغت الدولة في عهده أوجها وعلت مكانتها ، وقد نهج نهج أبيه وجده في تنظيم شئون الحكومة ، وتميز بالحزم الشديد مع رجاله وعماله والسهر على مصالح رعيته ، حتى كان لا يتردد في إنزال العقاب الشديد بمن يراه يتراخى في تحقيق العدالة لهم أو يتسبب بإهماله في إلحاق الضرر بهم (٢) .

ولئن ذهب إلى فرض ضرائب جديدة على التجار وأعاد فرض الرسوم التي كان الهنادكة يلزمون بها عند زيارة أماكنتهم



المقدسة ، فإنه كان : على حد قول الرحالة الفرنسى تأثره ، ينظر إلى رعاياه عموماً نظره إلى أبنائه (١) . وتجلت شفقتهم وحده على رعايتهم فيما كان يبذل من جهود كثيرة لتخفيف وطأة القحط والمجاعات ، حين كانت تنزل بهم ، فلم يكتف بما أقامه لفقرائهم من مطاعم مجانية كثيرة وما كان يبعث به إليهم من الأرزاق والمؤن والأهوال ، حتى أمر عماله بشراء الأطفال الذين كان أهلهم يعرضونهم للبيع من فرط الإحلاق ليردهم عليهم ثانية فيما بعد (٢) .

وبلغ من بره - ذا السلطان ، الذى عرف بتمسكه الشديد بشعائر سنته ، أن داوم على إرساء هبات من الأهوال فى كل عام إلى فقراء الحجاز وتعلماء الأراضى المقدسة وأشرافها . وأدى به ذوقه الفنى الرفيع : وما ورثه عن آبائه من أموال طائلة (٣) ، إلى تزيين الهند فى عهده بجملة من المنشآت المعمارية

١ - Lane-Poole 329

٢ - Muslim Rule 546

٣ - يقدر الرحالة الألمانى بمتدلساو ما كان بخزائن دار السلطنة حين زارها فى عهد شاهجهان ، بما يعادل ثلثمائة مليون جنيه ، عدا الدخل السنوى ، كما ذكر كذلك أن جيش السلطان كان يضم مائة واربعمائة ألفاً من الفرسان ، ووصف مدينة آكرا وازدهار الحياة فيها ، فقال إن طريقها كانت مهيطة نظيفة وإن =

الفخمة التي ما تزال تُرى آثارها حتى اليوم بأكر، وبدهلي الجديدة التي يعد بحق منشئها ومجددها، والتي اتخذها مقاما له بعد أن أتم بناء قصره الكبير بها.

ومن هذه الآثار المسجد الجامع ومسجد اللؤلؤ والقلعة الحمراء. وأروعها جميعا ذلك المنوى الفخم الذي يعرف باسم تاج محل، والذي أقامه لتخليد ذكرى زوجته ممتاز محل، فعُدَّ بكَماله وبهائه من بين روائع المعمار في الدنيا. وقد استغرق بناؤه اثنين وعشرين عاما، واستخدم فيه عشرون ألفا من العمال، وبلغت تكاليفه سبعة عشر وتسعمائة لكتا (١). من الروبّيات.

وبلغ بشاهجهان كلفه بالأبهة إلى صنع عرشه الفخم المعروف بعرش الطاووس الذي رُصِّع بأكداس من الجواهر النادرة، وكانت قوامه من الذهب الخالص، وكان سقفه المطلي بالمينا يُحمل

== حوائث التجار كانت تَخر بمختلف أنواع السلع، وقد خصص لتجار كل سلعة محلة موقوفة عليهم، وكانت دور المسافرين نفقة نظيفة كذلك.

وأحصى هذا الساع بهذه المدينة سبعين من المساجد وثمانمائة من الحمامات، هذا عدا القصور الشائخة التي كانت يسكنها المسلمون والهنداكة بظاهرها. وقال إن سكان أكر كانوا من الكثرة بحيث يمكنهم أن يقدموا من بينهم في الحرب مائتي ألف من

الرجال. Lane-Poole 333-5

٤ — الملك مائة ألف، وفي هذا البناء اختلط الطراز الفارسي بالهندي.

على اثني عشر عموداً من الزمرد ، على كل واحد منها طاووسان
تزينهما الجواهر وتتوسطهما شجيرة يغطيها الماس والياقوت والزمرد ،
وتتدلى منه درج ثلاث تكسوها الجواهر والياقوت . وقد
استغرق صنع هذا العرش سنوات سبعة وبلغت تكاليفه أكثر
من ستة ملايين من الجنيهات (١) . وحين غزا نادر شاه الفرس ،
الهند عام ١١٥١ هـ / ١٧٣٩ م حمله معه ، فأثرى حكام الفرس من
جواهره ، وأفاد فتح على شاه سلطانهم من بعد ذلك من بقايا
وحطامه في إقامة عرش جديد له حمل الاسم نفسه .

أورنگزیب عالمگیر

اعتلى أبو المظفر محمد محي الدين أورنگزیب عالمگیر عرش الهند عام ١٠٦٩هـ / ١٦٦٩م والبلاد يعمها الخراب الشامل الذى اكتسح حقولها وروجها إبان حروب الوراثة الجارحة التى قامت بينه وبين أخيه دارا شكوه . وحالف القحط هذا الخراب بسبب انحباس الأمطار الموسمية ، فأتى على كل ما تبقى بالبلاد من أخضر وياس . لذا رأى أورنگزیب أن يرفع عن كامل الأهلىن عددا من المكوس والضرائب تخفيفا عنهم ورحمة منه بهم ، فأعفوا من ثمانين نوع ، منها مكوس الطريق والمرور ومكوس الأرضية ، التى كان يلزم بها أصحاب المتاجر والخوانيت جميعا ، ومكوس لأضرحة ورسوم الدواب ، كما خففَ كذلك كثيرا من الرسوم التى كانت تفرض على المحاصيل الغذائية الزراعية تيسيراً على تسكان جميعا من مسلمين وهنادكة (١) .

وبرغم أوامره المشددة فى تنفيذ هذه الإعفاءات

وعنفه في معاقبة المقصرين من عماله ، فإن سكان المدن كانوا وحدهم ، في الغالب ، الذين أفادوا من ذلك كله ، إذ احتال حكام الأقاليم دوما على إبقاء الحال على ما كان عليه . حتى لا يضاروا في أهم موارد ومصدر ثرائهم ، ولا سببا حين عدل أورنگزيب عن نظام التجنيد الذي رسمه جدّه جلال الدين أكبر ، وسار عليه أولاده من بعده ، إلى نظام الإقطاع القديم .

اشتهر أورنگزيب منذ أول شبابه بتمسكه الشديد بتعاليم السُنّة ، حتى خاض حرب الوراثة ضد أخيه داراشكوه على هذه المبادئ وأورده حتفه على ما أفتى به علماءه . لذا أبطل الاحتفال بالنيروز عيد الفرس وحظّر دخول بلاده على أصحاب مذهب الشيعة وغيرهم من أصحاب المذاهب غير السُنّية (٢).

١ — كان الحكام وعمال الدولة ، فضلا عن حرمهم البالغ على الاحتفاظ بمظاهر الأبهة والعظمة ، يتنافسون في تقديم الهدايا الثمينة من الجواهر وغيرها إلى السلطان في كل مناسبة ، وأعظم هذه المناسبات هي ذكرى مولده حيث كان يوزن بالذهب والجواهر على رسم مغولي قديم . ويذكر الرحالة الفرنسي برنيه ، وكان قد حضر هذا الحفل في أحد الأعوام ، أن ما قوم به السلطان من الجواهر يقدر بمئة يوازي المليونين من الجنيهات . Lane-Poole 375

وكان من أثر هذا الإجراء ، ومناصبته قبائل الأفغان
تهداء فيما بعد ، وما سبق إليه جسده حين نادى بأن الهند
تهدد ، أن انقطع عن جيوش الدولة مصدر مهم طالما أمدّها
جاربين أشداء ، من أبناء بلاد ما وراء النهر وبلاد الأفغان
يركابل ، كانوا بلا مرء كفيّلين بشد أزّر بنى جلدتهم ، الذين
تأثرت عزيمتهم على مرّ الزمن ببحر الهند ، في دفع خطر المرفها
والسك عن الدولة ، وهما العصبتان اللتان عجل تزايد
نشاطهما في نهايتهما .

وأدى حرص أورنكزيب عالمگیر على أن يصبغ دولته
بالصبغة الإسلامية الخالصة إلى أن تشدد في تحريم الخمر
والميسر تحريماً تاماً وأبطل البدع ، ثم أمر بتعمير المساجد
وترميم الخرب منها وأمدّها بطائفة مختارة من الأئمة
والوعاظ والمدرسين ، وحض الناس على الإقبال على حلقات
العلم بها وشجعهم على الدرس فيها ، ثم بعث بمحتسبيه من بعد ذلك
ليراقبوا سلوك الناس ويحماوهم على التمسك بتعاليم الشرع
والإبتعاد عن نواهيه .

وظفّق أورنكزيب من بعد ذلك يُبعد الهنادكة عن مناصب
الدولة الكبرى ويقال من عددهم في الدواوين عامة ، فلم يُبق بها

منهم سوى نصفهم حرصاً على صالح العمل (١) ، ولم يكن ذلك بدءاً منه بعد أن رأى بوادر الفتنة والعصيان تظهر من بينهم أيام أبيه .

وانتهى أمره معهم إلى أن أمر بغلق كثير من مدارسهم ومنعهم من إقامة معابد جديدة لهم ، حتى هدم معبدى بنارس وسومنات ، وأقام على أنقاض معبد — دمتشهره مسجداً كبيراً ، بعد أن بدّل اسم هذه المدينة إلى إسلامپور ، ونقل أوثان هذا المعبد المكلفة بالجواهر إلى آگرا فردم به — أساس مسجد نواب يسىگيم صاحب حتى يطوؤها المسلمون بأقدامهم فى صلاتهم تقرباً إلى الله (٢) .

وأعاد أورنگزيب فرض جزية الرؤوس على الهادكة وأعفى من تأديتها غير القادرين عليها . وقد أدى الحرص بكثير من عامتهم إلى الدخول فى الإسلام تخلصاً من دفعها .

كذلك فرض أورنگزيب رسماً جديداً على البضائع التى كان يستوردها التجار من الخارج ، وكان أغلبها من أدوات الترف

الزم الهنداكة منهم بدفع هذا الرسم مضاعفا .

يمكن تقسيم مدة حكم أورنگزيب التي تجاوزت سبعة
رربعين عاما إلى فترتين : الأولى ، وهي التي شغل فيها عامة
قرار الأمور في الهندستان ، والثانية وهي التي قضاهما في حروب
ستواصله بالمكن والجنوب استوعبت ستة وعشرين عاماً
واستنفدت أموالاً طائلة ووهلك فيها ملايين عدة من الجند
والأهلين . وقد هدف من ورائها في الغالب إلى الجهاد في سبيل
نشر الإسلام بين الهنداكة والقضاء على مذهب الشيعة أكثر مما هدف
إلى توسيع رقعة ملكه .

آسام والبنغال : أفاد أورنگزيب من كفاءة قائدة
مير جملله فوجهه في جيش كبير وأسطول من السفن النهرية إلى
آسام وكوش بهار اللتين تقعان عند الطرف الشمالى الشرقى الهندى
وهى منطقة تغطيها الغابات والآجام . وكان أصحابهما يتخطفون أراضي
الدولة . وبرغم فتك الاوبئة بجند الدولة وشدة ضغط العصابات
عليهم ، وهم في حصارهم لعاصمة آسام ، فقد مضى بهم قائدهم غداة
انتهاء موسم الأمطار ، والجمي تركبه : حتى أرغم الآساميين على

التسليم ، فعاملهم برفق ومودة (١) . وعن أسف أن وافى الموت مير جُمله وهو في طريق عودته إلى دكا عام ١٠٧٢ هـ ١٦٦٣ م ، وأن نوابه أضافوا جميع ممتلكاته بحد بضعة سنين بسوء إدارتهم وعسفهم .

وخلف مير جُمله علي البنغال الأمير شايسته خان ، خال السلطان . وكان ملوك أراكان بها قد اشتد نشاطهم حتى راحوا يتعاونون تعاوناً وثيقاً مع البرتغاليين لمناهضة الدولة . فحاربوا بقراصنة هؤلاء المستعمرين وغيرهم من المغامرين ، حتى باتوا يسيطرون على خليج البنغال ، فضلاً عن مساحات واسعة تمتد من من دلتا الكنج إلى دكا ، ثم انضموا يقطعون الطريق على التجار ويتخطفون الأهالي ويبيعونهم يبيع الرقيق لتجار الهولنديين والإنجليز والفرنسيين في الثغور الدكنية الشرقية وفي جزيرة سرنديب غير بعيد من شيتا جونج .

وبرز شايسته خان لمقاتلة هؤلاء جميعاً ومعه أسطول كبير عدته ثلاثمائة سفينة خفّاض ضدهم غمار معارك متصلة دامية ١٠٧٥ - ١٠٧٦ هـ ، ١٦٦٥ ، ١٦٦٦ م حتى كسر شوكتهم وحرر كثيراً من السكان من أيديهم واستعاد للدولة مساحات

كبيرة من الأراضي التي كانت في حوزتهم . وقد تحالف شايسته خان في حروبه هذه مع الهولنديين والبريطانيين الذين كانوا يتوقون للقضاء على منافسيهم من البرتغاليين ولم يكن يدرى أنه بقضائه على البرتغاليين إنما يمد السبيل للبريطانيين الذين بدأوا وقتذاك بداية متواضعة هناك فأقاموا مصانعهم في منطقة كانت نواة لمدينة كلكتا الحالية (١) .

البطمان والأفغان : أخذت أطراف الهند الشمالية الغربية تتعرض ابتداء من عام ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٧ م . لغارات قبائل البطمان الأفغانية ، وعلى رأسها يوسفزي والأفريدي (٢) ولما ينقض عام واحد على فراغ الدولة من مشاكل الحدود الشرقية . ولقد جهد السلطان أكبر من قبل في الحد من نشاط هذه القبائل ، وحذا حذوه جهانگیر ثم شاهجهان في سير جيوشهما القوية إلى قندهار وبدخشان مرات عدة . وحين تجددت حركات هذه القبائل أواخر عهد شاهجهان ، بسبب حرب الوراثة الجاحقة التي نشبت بين أبنائه ، فأنحدرت جموع يوسفزي إلى مناطق الهزرا

١ — Lane-Poole 382.3 — المصانع هنا هي المخازن .

٢ — تشتهر من هذه القبائل الأفريدي والوزيرى على الخصوص بشدة المراسخى صدت جيوش الهند البريطانية مرات عديدة عن بلادها في القرنين : الحالى والماضى . وأثرت بها خسائر جسيمة .

فبلغت شواطئ نهر كابل ، لم يكتف حاكم آتوك بردها في عنف حتى خرب منازلها وأراضيها .

وركبت هذه القبائل إلى الهدوء بضع سنين من بعد ذلك ، كان راجا جسوانت ، نائب السلطان عند جامرود ، يراقبهم فيها بعين ساهرة حذرة . ثم برزت قبائل الأفريدي ، وعليها زعيمها أكمل خان تستنهض همم القبائل الأخرى وتستعين بها في السيلطرة على المنطقة الواقعة بين كابل وبشاور . حتى أتيج لها آخر الأمر أن تنزل هزيمة قاصمة بقوات الدولة ، عند ممر خيبر ، سقط فيها عشرة آلاف من جند السلطان أسارى بأيديهم .

وشجع هذا النصر القبائل الأفغانية الأخرى التي كانت تضرب بين آتوك وقندهار ، فركنت بدورها إلى العصيان . وقوى من عزيمتها انضمام الزعيم الأفغانى خوشحال إلى صفوفها ؛ وكان هذا الزعيم قد استُدِّرج من قبل ، بالخيانة والغدر ، إلى بشاور ثم ألقى به فى السجن بدهى ، فأطلق سراحه على أن يسير وابنه بجند الدولة لمحاربة أعدائه من قبائل يوسفزى ؛ ولكن ما أحرزه بنو جلده من الانتصارات على الدولة أنساه عداءه معهم فانضم إليهم .

هنالك بعث أورنسكزيب بفداى خان حاكم لاهور إلى بشاور ، وسير قائده الآخر مهابت خان إلى كابل . حتى إذا ما تكشف له

تواطؤ هذا الأخير مع العدو جعل مكانه شجاعت خان .

وأدى ظهور قوات الدولة القوية عند منطقة الحدود إلى قدوم فريق من شيوخ العشائر الشائرة مستسلمين . حتى إذا ما أهمم شجاعت خان أذنيه عن الاستماع إلى نصيحة راجا جسوانت فلم يصطنع التريث والصبر حتى يأتيه بقية الشيوخ فيبرم الصلح معهم على خضوعهم للدولة ، فاندفع بقواته إلى منازلهم في مناطق التلال المجاورة لكابل ، احذر البطهان إليه في ليل شتاء عاصف عام ١٠٨٤ هـ / ١٦٧٤ م فأنزلوا بقواته هزيمة شاملة لاقى فيها حتفه .

هناك لم ير السلطان بُدا من المسير إلى هذه المنطقة آخر الأمر بنفسه ، فأفلح وقائده أغار خان ، بقوة السلاح تارة وبيذل المودة والمال والعطاء لشيوخ القبائل تارة أخرى ، في أن يؤمن منطقة عمر خير ، أخطر أبواب الهند وأهم طرق الغزاة إلى سهولها وأراضيها .

ولم تستنزف قلائل الحدود الشمالية الغربية هذه كثيراً من أموال الدولة فحسب . بل لقد اضطر السلطان بسبب عنفها إلى استدعاء نخبة من قواته الدكنية إليها ، مما أتاح الفرصة لإمارات الدكن والمرهتها على الخصوص ، ليقبوا من نفوذهم هناك ويشيروا المتاعب في وجه الدولة من بعد ذلك .

ولو أن أورنگزيب كان قد اصطنع المودة مع القبائل الأفغانية منذ بادىء الأمر وأخذهم بالسياسة والدهاء الذى اشتهر به ، لأفاد من شدة مراسهم فى القتال فى حروبه الطويلة ، مع الراجپوتين والسك والمرتهاوشية الدكن ، وقد كانوا على دواء فى تصبهم الشديداً لتعاليم السُّنة .

الجات والستناميون : أدت السياسة التى انتهجها أورنگزيب عالمگیر فى تدمير معابد الهنادكة وإقامة مساجد للمسلمين على أنقاضها ، إلى شيوع روح التدمير بينهم حتى ناز الجات منهم " ثورة عارمة عند ماتوا فتمكن زعيمهم جُكال من قتل نائب السلطان هناك وانتهاب أراضى سعد آباد . ولم يفت سقوط هذا الزعيم فى يد الدولة ومقتله ، فى عضد بنى قومه ، فطفقوا ينزعون إلى التمرد والعصيان بين الفينة والفينة حتى تفاقم خطرهم حين بدأ الضعف يدب إلى بناء الدولة بعد عهد أورنگزيب .

١ — الجات أو الرُط ، منهم المسلمون ويكون السند الأعلى والمثلان ، وقد ذكرهم الجاحظ بأنهم أصحاب مهارة فى التجارة والصيرفة والصيلة ، ومنهم فريق من الهنادكة فى الراجپوتانا ، ومنهم السك فى البنجاب أنباع نانك ، وجهم من الويشية ، وغلب الصيرفة والمرايين فى الهند اليوم منهم .

وجاءت ثورة الستاميين في أعقاب سابقتها . وهم طائفة من
 . داد ينتسبون إلى الإسم الحسن (لله : ستام) ، ويحرصون
 على كبريائهم وأنفتهم حرصا شديدا . حتى لا يترددون في سبيل
 لك عن بيع أنفسهم ببيع السماح . ولم يكن مرد ثورتهم إلا
 اعتداد بعض الجند على فريق منهم^(١) دون أى سبب ديني
 آخر ، فرحمت جموعهم من نار نول عند موات تخرب
 ما يصادفها من مساجد وتعمل السلب والنهب في المدن والقرى ،
 حتى بلغت مشارف دهلي ، وفي ركبها شائعات قوية عن نفاذ
 غيرها وطلاسمها ، حتى فرغ الناس والجند من لقاءهم فلم يأتى السلطان
 نقضاء عليهم إلا بمشقة

السك : لم يقعد السك بدورهم عن المشاركة في حركة
 لسيخط التي عمت الهنادكة جميعا بسبب موقف السلطان غير
 لودى معهم ، وكانوا قد غدروا يناصبون الدولة العداء من قبل
 منذ أن قتل جها نغير زعيمهم أرغون حين ظاهر ابنه خسرو
 في خروجه عليه .

وهذه الطائفة . وهى من الجبات الپنجابين ، إمامها مصلح
 ديني يدعى غورو نانك ، ظهر في القرن التاسع الهجرى ، وحاول

أن يصهر ديانات الهند في مذهب واحد يقوم على تعظيمها جميعا ،
ويقضى على فروق الطوائف ، ويعلم المساواة التامة بين الناس .
وبلغ رابع خلفائه رام داس مكانة مرموقة عند السلطان
أكبر ، حتى أقطعه أرضا أقام عليها محلة لا يتباعه ومريديه ، فما زالت
تنمو وتكبر حتى صارت إلى مدينة أمر تسهر كعبتهم الدينية
اليوم بالبنجاب .

حتى إذا ما تفشت السكراية المسلمين بينهم بسبب مقتل
جهانگیر خليفته أورغون ، شرع زعيمهم الجديد هار غووند
يُعِدُّهم إعداداً عسكرياً للدفاع عن كيانهم .

وحين ثار بهم تاسع زعمائهم غوروتغ بهادر ليعارض الدولة
في اضطهادها للهندكة وتخريبها لمعابدهم ، فقبص عليه أورنكزيب
عام ١٠٨٦ هـ : ١٦٧٥ م وأورده مورد الردى ، انطلق
ابنه غووند سنغ يشعل روح الحماس في قومه ، ليثأروا لقتلهم ، وهو
يوصل تدريبه الحربى لهم ويعمدهم بنقيع السيوف والخناجر .
فصمدوا لكل الضربات التي وجهتها إليهم الدولة في عزم
وإصرار حتى تم لهم السيطرة على منطقة التلال فيما بين شتلج ،
رافد السند ، وجمنه .

وأحاطت قوات الدولة بهذا الزعيم آخر الأمر بعد أن قتلت

وأيديهم ، فالتحق بخدمة بهادر خان خليفة أورنگزيب ، (١) لانتقام قومه ، حين بدأ الضعف يدب في بناء الدولة ، إلى جيش جهور غدا والمرهتها نذير سوء عليها .

الراجپوتيون : أدى فرض أورنگزيب جزية الروس على الهنادكة من جديد ، بعد أن ظلموا يعفون من دفعها ذابة قرن ونصف القرن ، إلى تفاقم الإضطرابات بينهم واشتداد أوار غضبهم .

وكان هدف السلطان من وراء إعادة فرضها هو الحصول على المال الذي أعوزه في حروبه الكثيرة ، فلم يلتفت إلى توسلات جموعهم الكثيرة التي وفدت إليه وزحمت طريقه إلى المسجد ، حتى استخدمت الفيلة لتفريقها فهلك كثير منهم تحت أقدامها .

ولم يقبل الأمراء الراجپوتيون جزية الروس هذه عن طيب خاطر ، وقد انقلب السلطان ينظر إليهم بعين الإمتحان ، في حين أن أسلافه ، حتى بعد استيلائهم على أقوى حصونهم في چتور ، كانوا يعدونهم في الغالب حلفاء لهم ويحفظون عليهم مراسم اللابته والإمارة .

حتى إذا ما احتجز أورنگزيب بيلاطه أحد أبناء راجاجسوانت

بعد موته . وكان هذا الأمير قد شارك في إقرار الأحوال عند
الأنطراف الشمالية الغربية لألمند . فبرأى إلى قومه أنه إنما ينبغي
بفعلته هذه إلى حمل الأمير الراجيوتي الصغير على اعتناق
الإسلام . ألتفوا حول درغا داس راجا سوار (جدهمور)
الذي توصل بالحيلة إلى تخلص الأمير من أسره ، ونقله وأمه إلى
إمارته ^(١) . لينفذ الساجان عندئذ قائده تهور خان وابنه الأكبر
لغزو هذه الإمارة وضمها إلى أملاك الدولة

كذلك انبرى أمير أنابور (مواس) بدور يعارض ماقرض
عليه وعلى قومه من جزيرة الروس فاجتاحت قوات الدولة بلاده
بدور . وخرَّبَتْ ما بها من مبادى راجيوتي لم يشفع لها ما كان
بين أميرها وأورنكزيب من صلات مودة وسلام .

استصم الأمراء الراجيوتون النمرون من بعد ذلك بخصونهم
في الجبال ، وأنطلقوا من هناك نشطين الإيقاع قوات الدولة .
وقد شمل أكبر رابع أثناء أورنكزيب في كبح جماح هؤلاء الثورين

١ — منتخب الباب ٢٩٨ .

٢ — رفض أمراء آدافيور دائما مضاهرة سلاطين المسلمين ، كما رفضوا فيما بعد
أن يشاركوا في حفل تنصيب فيكتوريا ملكة بريطانيا إمبراطورة على ألمند ، ورد
أميرهم إلى نائبها قلادة كوكب ألمند محتجا بأن أحداً من أجداده لم يحمل شعار
المسودية من قبل .

الذين كادوا يصلون إلى قطع الإمدادات والمؤن عن أورنگزيب نفسه وهو في موار .

وأدى حرج الموقف بأورنگزيب إلى استدعاء ولديه الآخرين ، أعظم ومعظم ، بقواتهما من الدكن والبنغال ليشركاه الحرب عند موار ، في حين وجه ابنه أكبر إلى موار بعد أن أنبّه تأنيذاً شديداً لتهاونه السابق مع العدو . فإذا بالأمراء الراجپوتيين يلتفون حول هذا الأمير الغاضب ، وكان إذ ذاك في الثالثة والعشرين من عمره طموحاً فتياً ، فما زالوا يزينون له الخروج على أبيه حتى استجاب لهم ونادى بنفسه سلطاناً عليهم .

هنالك قرّر قرار القوم على الزحف ، بمجموعهم التي تجاوزت السبعين ألفاً ، إلى آجمير مقر السلطان ، ولم يكن بها حوله من الجند عندئذ ما يزيد على الألف فارس ، حتى أتاح تباطؤ الأمير أكبر وانشغاله بمتعة الفرصة لأورنگزيب ، فبلغ بدهاؤه وحسن تدبيره إلى صرف الأمراء الهنادكة وجوعمهم عن ابنه وجذب مامعه من قوات الدولة إلى صفوفه ، إذ اصطنع خطاباً بعث به إلى أكبر ، تعمد أن يقع بأيدي الراجپوتيين ، وقد أثنى فيه على الأمير وعلى خداعه للأعداء على مارسمه له من قبل ، وأمره باستدراجهم وقواتهم حتى

يُخَصَّرُونَ بَيْنَ قُوَّتَيِ الْمُسْلِمِينَ لِيَسَادُوا عَنْ آخِرِهِمْ ^(١) . فإذا بالراجپوتين ينفِط عقدہم حين أطلعوا على الرسالة ، وإذا بالأمير الثائر يجد نفسه وحيدا في الميدان ، فيمعن في الحرب حتى ينزل بعد مطاف طويل عند شہوجی بن شیواجی زعيم المرهتہا بالدکن . وقد أبحر من أحد موانيه من بعد ذلك إلى إيران فأقام بها إلى آخر حياته .

وانتهت الحرب مع موار عام ١٠٩٢ هـ / ٦٨١ م بعد أن قبل أميرها التنازل عن بعض حصونه للدولة نظير إعفائه وقومه من جزية الرؤس . أما مروار فقـد بقيت على عصيانها حتى أقر بهادرشاه ، خليفة أورنگزيب ، لأصحابها بحقوقهم فيها . الشيعة والمرهتہا : قضى أورنگزيب ، بطريق "العنف الذى سلكه مع الأمراء الراجپوتين ، على مورد قوى من الجنـد الذين ظالموا ساندوا الدولة فى حروبها أيام السلطان جلال الدين أكبر وخلفائه . كما شارك أمراؤهم ، فى الوظائف الكبرى وفى الجيش ، فى تحقيق المنعة للدولة وتوفير المهابة لها . وكان هؤلاء المحاربون الأشداء كثيـلین بشد أزرا أورنگزيب فى حروبه الطويلة التى تضاهاها بالدکن فابتلعت الأموال الطائلة وفى فيها ألوف كثيرة من أنبائها . وبدأ بناء الدولة من

سائر أهلها يتزعزع ويتصدع .

فقد عقد العزم ، بعد أن تم له إخضاع موار عام
١٠٩٠ هـ / ١٦٨١ م ، على السير إلى الدكن . فهاهم سلاطين المسلمين في
بيجپور وغولكونده لا يزالون يحملون هناك لواء التشيع ويروجون
لهذا المذهب الذي يرى أورنگزيب أنه من أفدس الفروض عليه ،
يرصفه سلطان السنيين وحامي حمى المذهب ، أن يقضى على ملكهم
أو يعودوا إلى ملتته . ولقد أرغم في عهد أبيه على وقف القتال
معهم ومهادنتهم ، ليهتبلوا الفرصة التي أتتحت لهم من بعد ذلك بمرض
شاهجهان وقيام حرب الوراثة بين أبنائه فيعودوا إلى سيرتهم
الأولى في العصيان ونبذ طاعة الدولة . وهاهم المرهتها قد تفاقم
خطرهم ، والدولة منشغلة بحروبها عند الحدود الشمالية الغربية وفي
أراجپوتانا ، فانتشرت عصاباتهم تخرب المدن والقرى وتنتهبها
وتغتصب الحصون وتقطع الطريق على التجار وتأوى عندها
الخارجين على سلطان الدولة حتى نزل الأمير أكبر بن أورنگزيب
آخر مطافه بكنفهم .

ولم تكن الدكن ، على كل حال ، بغريبة عن هذا السلطان ،
فقد وُلى حكمها في عهد أبيه ماينوف على اثني عشر عاما
يعرف مالا أرضها من خصب عميم وما لأمرائها من ثراء عريض .

وكان المرهتها الدكنيون هم أول من اجترأ من سكان الجنوب في الغالب على الزحف إلى الهندستان . وقد قضى أورنگزيب عالمگیر أكثر من ستة وعشرين عاما يحاربهم هناك . وقد أنزلت عصاباتهم بالدكن كله في أيامه خسائر بالغة بما خربته من مدنه وقراهوما أحرقته من زرعه وضرعه حتى شاركوا فيما بعد مشاركة فعالة في انهيار الدولة .

ويُشتق اسمهم من مهاراشترا ، أى المملكة الكبرى ، وهى التى لم يبلغ الباحثون تحديد موقعها في القديم بعد . ويُعدّ البراهمة من زمرة الشودر أدنى طبقات الهند وطوائفها ، وإن كانت سماتهم فيها كثير من سمات التورانيين . وقد ذاع اسمهم في القديم على كل حال حين استعان بهم بليكسين الثانى في حروبه مع هرشا .

وامتدت إلى منازلهم بالدكن يدورها موجة الإصلاح الدينى التى ظهرت فى أماكن متفرقة بالهند فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادى ، فظهر من هداة المراهمة ، اكناته وتكرام ورام داس ، ينكرون نظام الطبقات ويجهرون بأن الشودرى قادر بعقيدة بهاكتى (أى الإخلاص لله) أن يبلغ عند الله منزلة ليست

دون منزلة البرهمي الورع ^(١) .

وقد أفاد منهم ملك عنبر الحبشي الوزير الدكني في حربة مع
جهانگیر ، على ما ذكرناه من قبل . وظهر من بين صفوفهم
من بعد ذاك شاهجی بهونسل الذي حارب الدولة ثم عمل تحت
لوائها لينضم آخر المطاف إلى صفوف البيجاپوريين من بعد ذلك .
وحين قضى شاهجهان على إمارة أحمد نگر ، تمكن ذلك
القائد المرهتهي بعد قليل من أن يمد نفوذه إلى هذه الإمارة
ويجلس على عرشها أميراً من أسرة نظام شاهي . حتى اجتاحت
جند الدولة هذه الإمارة من جديد ، فليجأ شاهجی ثانية إلى
بيجاپور ثم اعتكف آخر الأمر في إقطاعه بيونا وشارغوندا على
مقربة من بمباي .

شيواجي : نشأ شاهجی ابنه شيواجي تنشئة عسكرية
منذ صغره . وأتاح له لزومه بلاط بيجاپور بعض الوقت التمرس
بالسياسة والوقوف على الكثير من أحوال الدولة وعلاقاتها
بسلطين الدكن ، كما بث في نفسه حكم المرهتها ، رام داس ،
حب الهنداكة ، وحرصه على وقف حياته للدفاع عن

بنی جلدته ومقدساتهم .

حتى إذا ما اضطربت الأحوال في بیجاپور بسبب مرض سلطانها عام ۱۰۵۶ هـ / ۱۶۴۶ م . انتهز شیواجی هذه الفرصة لیستولی علی جملة حصون حول بونا (۱) . إقطاع أیه . ولینفذ من بعد ذلك إلى إقليم کُنکان .

هنالك بادر سلطان بیجاپور إلى اعتقال شاهجی فلم یطلق سراحه حتى تعهد ابنه شیواجی بالركون إلى السلم والابتعاد عن انتهاب أراضی الإمارة وتخطفها .

ولكن المرتهی مالبث أن عاد إلى کنکان من جدید ، وأورنگزیب نائب شاهجهان إذذاك بالدکن، مشتبك فی الحرب مع بیجاپور ، فوضع یدیه علی أغلب أراضیه ، وتحکم فی موانیه حتى رد البیجاپوریین عنه حین ساروا إلیه من بعد ذلك ، وطفق یتعقبهم فی تقهقرهم عنه حتى دخل بلادهم . فلم یرتد عنها إلا حین بلغه زحف شایسته خان قائدأورنگزیب علی الدکن .

وأتیح لشایسته خان أن یقتحم بونا وحصن شکن ویثبت أقدامه فی القسم الشمالی من کُنکان ، لیفاجأه عندئذ شیواجی بمقره فی

مائتين من رجال عصاباتة قدموا في هيئة من يحفظون بزفاف صبي ، فانقضوا على قصره في غارة ليلية قُتل فيها أغلب حراسه وحرّمه وأصيب هو نفسه بجراح شديدة (١) .

واستشرى خطر هذا الزعيم المرهقي حتى سقط في أربعمائة من رجاله على ميناء سورات الغني فانتهب سكانه وتجاره وما صادفه فيه إذ ذاك من سفن الحجاج المسلمين . فلم يقف في وجهه هناك إلا مصانع الهولنديين والإنجليز الذين لم يأبهوا تهديده وأغلظوا القول لرسله ، فعاد بأسلابه إلى مقره دون أن يحجزه على التعرض لهم بسوء .

وثار أورانغزيب لفرط جراءة هذا الثائر ، فبعث إليه بجيش كبير، عليه ابنه معظم ، اكتمح بلاده حتى هدّد مقر حكومته في رايسكره ، ليهادن الدولة من بعد ذلك فيتنازل لها عن الكثير من الحصون ويتعهد بدفع جزية سنوية كبيرة لها .

ومازال السلطان بعدوّه حتى حمّله ، بحسن تدبير قائده راى سنغ ، على القدوم إلى آگرا ومعه ابنه شيهوجى ليقدم فروض الولا إليه بنفسه .

وحسين أحسن هذا الزعيم المغامر بأنه وابنه معتقلا
في دارهما ، احتالا على الخراس فهربا من محبسيهما في سلتين
من سلال الفاكهة بتدبير محكم ، لينطلقا من بعد ذلك إلى
مناوأة أوردن كرباب من جديد . وقد كان في إمكانه أن يكسبهما
إلى صفه باصطناع المودة معهما فيبلغ بمعرفتهما إلى إخضاع الجنوب
كله لسلطانه دون كبير عناء .^(١)

ومن عجب أن شيواجي ، حسين عاد إلى مقره ، وجم
وزراءه منصرفين إلى تدبير شئون الدولة وكأن شيئا لم يقع
لا ، سيرهم .

وعاد شيواجي الدولة عامين انصرف فيهما إلى تنظيم
حكومته ، وكان يدير شئونها إذ ذاك مجلس برئاسته قوامه
ثمانية من الوزراء لشئون المسائل والشئون الداخلية والخارجية
والدينية والبلاط وشئون الحرب والقضاء ، وجميعهم ، فيما
عدا وزيرى العدل والشئون الدينية . كانوا من أصحاب الرتب
في الجيش .

وعاد شيواجي عن نظام التجنيد الذى كان يلزم به رجاله
فضاء ستة أشهر من كل سنة في المعسكرات لينصرفوا من بعده

إلى حقوقهم ، فأقام له جيشاً ثابتاً التزمت حكومته بنفقاته . وكان
فوائده أول الأمر المشاة حتى يسهل تشكيل العصابات منهم . ثم ضم
إليهم من بعد ذلك فرق من الفرسان صاروا مصدراً للفرع
والرعب أينما حلوا وساروا . (١)

ولم يهتم المرتهبها إلا بترقية الزراعة وتوسيع رقعتها .
فلم يلتفتوا إلى العناية بالتعليم أو العمل على كسب الأهالي
إلى صفوفهم (٢) .

وملقت عصاباتهم تعاود نشاطها من جديد ابتداء من
عام ١٠٨١ هـ ١٦٧٠ م حتى طردت نائب السلطان من كُشكان .
وسقطت مرة ثانية على سورات ، فبلغ ما انتهبته منها ما يزيد قيمته
على سبع ملايين من الروبيات . وكان من أثر غاراتهم المتكررة
على هذا الميناء المهم أن أدى انتشار الرعب منهم بين السكان إلى
كساد التجارة فيه .

ونادى شيواجي بنفسه آخر الأمر أميراً على قومه
عام ١٠٨٥ هـ ١٦٧٤ م ، والدولة مشغلة عنه إذ ذاك بفتح الشمال ،
وقد ضم إليه كثيراً من الأراضى والحصون في نطاق مملكته .

فيًا يانكر القديمة التي بات الهنادكة فيها يحلون باستعادتهم لمجدها
الغابر عـلى يديه .

ثم انطلق من بعد ذلك ينتهب أملاك الدولة نفسها ، بعد أن
اغتصب بعض حصون أخرى من سلطنة بيجاپور . فلم يستطع
دِرخان قائد أورنگزيب أن يصمد في وجهه كثيراً ، حتى طواه
الردى عام ١٠٩١ هـ / ١٦٨٠ م ولما يُكمل الثالثة والخمسين من
عمره (١) .

وزعزع من بناء الدولة التي أقامها شيواجي ، انصراف رجاله
من بعده إلى تحقيق أطماعهم وآراءهم الخاصة ، فانقلبت القوة التي
أقام صرحها إلى سلاح هدام استخدمه رجاله في منازعاتهم فيما
بينهم ، ليحىء من بعد ذلك أورنگزيب ، بعد فراغه من حروبه
في الشمال ، فيلتجم معم في معارك متعاقبة استمرت سنين طويلة
وأصيبوا فيها بضربات متلاحقة منه وخسائر جسيمة في الأموال
والأنفس .

بيجاپور وغولكونده : قدم أورنگزيب عالمكير إلى

١ — يذكر خافي خان في منتخب الباب « ٣٠٥ » لشيواجي أنه كان يحرص
في غزواته على ألا يتعرض أحد من رجاله لمساجد المدين أو نساءهم وأطفالهم بالسوء برغم
عدائته الشديدة لهم .

بُرهانپور عام ١٠٩٢ھ/ ١٦٨١م ليقود بنفسه معارك الدكن ، فبعث
بابنه الامير مُعظم لغزو اراضي المرهتا ، فتوغل في كُنكان ليجد
العدو قد جلى عنها بعد أن أحرق زرعها وخرَّب قراها. حتى إذا
ما حاول الجيش الغازي أن يمون جنده بالمؤن عن طريق
البحر سقط الثوار على السفن فاستولوا على ما بها من حبوب
وأغرقوها .

وحين وجه السلطان ابنه الثاني أعظم إلى بيجاپور وسار هو
إلى أحمد نگر ، انطلق شميموجى بن شيواجى وخليفته إلى خاندش
نخرب بعصاباته قراها ، حتى إذا ما قدمت إليهم قوات الدولة تفرقوا
سراعا . على عادتهم ليتصيدوا أفرادها وينزلوا بها خسائر كثيرة .
هنالك رأى أورنگزيب أن يوجه جهوده كلها إلى الاستيلاء
أولا على إمارتى بيجاپور وغولكونده فيحرم بذلك المرهتا من
أموال كثيرة كانت تلتزم هاتان الإمارتان بدفعها لهما لقاء
نشرهم ، وبيع في الوقت نفسه إلى القضاء على أصحاب مذهب
ينكره أشد الإنكار ، وهو مذهب الشيعة الذى كان يدين
به سلاطين هاتين الإمارتين ويروجون له بالهند .

وفى هاتين الإمارتين اللتين كان الضعف قد تمرب إلى
حكومتيهما فى قوة بسبب تنازع حكاهما ووزائهما فيما بينهم ،

كانت نواة عصابات المرهتها الحديثة ، وفيهما كذلك عاش زعيمهم شاهجي وابنه شيواجي وحفيده شيمهوجي ، وكانوا جميعا على تحالف وثيق في بعض الأوقات مع حكامهما ، ويجمعهم معا في صعيد واحد ، آخر الأمر ، عداؤهم المشترك للدولة وكراهيتهم المتأصلة في نفوسهم لها .

وأشرف أورانگزیب بنفسه على حصار حصن بيجاپور ، فلم يغن صاحبه فتى لا استجاده بأبي الحسن قطب شاه سلطان غوالكونده أو بشيمهوجي أمير المرهتها ، حتى أرغم على الاستسلام بعد دفاع مجيد ، دام عاماً وبعض العام ، استطاع إبانة البيجاوريون بمعاونة المرهتها أن يخربوا كافة الأراضي الزراعية ببلادهم ويحرقوا محاصيلها حتى عانى الغزاة شحاً شديداً في الأقوات كاد يصر فبهم غير مرة عن غايتهم ، لولا عناد قائد هم أعظم بن السلطان وشدة مراسه .

ودخل السلطان بنفسه المدينة قبيل أواخر عام ١٠٩٧ هـ / ١٦٨٦ م فهدم كل النقوش الهندية التي كانت تزين قصر سلطاتها سكندر شاه ، كما خرب رجاله بدورهم جملة من المنشآت الفخمة الأخرى بها .

وقضى سلطان بيجاپور وهو في الثانية والثلاثين عن عمره

مد أن أنفق بضع سنين في حصن دولت آباد بالديكن وشاركه
حبسه هذا بعد قليل أبو الحسن فطب شاه سلطان غولكونده بعد
ن سقطت بلاده بدورها في أيدي الدولة^(۱)

ذلك أن أورنگزيب كان قد استمد حقيقه على صاحب
غولكونده أمير حيدر آباد حين امتنع عن دفع الجزية التي تعهد
بها للدولة من قبل ، ونقض اتفاقه معها بالابتعاد عن مخالفة
أعدائها ، حتى اتخذ له وزيرين من الهنادكة هما مادانا وآلنا فكانا
على اتصال وثيق بشمبهورجي ، زعيم المهرتها في الخفاء ،
بها هو آخر الأمر يعاون انتخاب بيمجاپور في حربهم مع الدولة.

هالك زحف أورنگزيب على غولكونده ، وابنه أمظم في
حصاره بيمجاپور . حتى إذا ما بلغه قتل الأهلين بها للوزيرين
الهندوكيين عدل من المضى في زحفه ، إلى حين . ليعاون إبه
تولا في حربه .

وعاد السلطان ، بعد سقوط بيمجاپور ، إلى غولكونده من
جديد . ليواجه بها مقاومة عنيفة عاون أصحابها عليها المهرتها .
فأحرقوا الزرع على عادتهم . وأخذ الجوع والوباء يفتك بجند
الدولة حتى تمكن أورنگزيب ، بالرشوة والخديعة ، من التهرب

آخر الامر إلى داخل الحصن .

ولم يفتّ تدفق الغزاة في عضد الوزير عبد الرازق الذي انطلق في حفة قليلة من رجاله لا تزيد على اثني عشر نفراً يدفع بهم أعداءه عند باب الحصن في تهور وشجاعة مذهلة حتى أعاقته جراحه التي زادت على السبعين عن مواصلة النضال .

ونذب أورنگزيب لعلاج هذا الوزير طبيباً هندياً وآخر أوروبياً . وحين شفى من جراحه أراد السلطان أن يكرمه لشجاعته بإلحاقه وولديه ببعض المناصب ، فاعتذر له ممتناً بأنه لا يستطيع أن يخدم سلطاناً بعد مليك أبي الحسن ، أكبر أورنگزيب فيه وفاء وشمله بالكثير من الرعاية والإحسان (١) . وفي حصن غولكونده ومدينة حيدر آباد الدكنية استحوذ أورنگزيب على كوز كثيرة وأموال طائلة كانت تدرها على هذه البلاد أراضيها الخصبة وموانئها التي كانت تزدهم بالتجارة الأوروبيين ومصانعهم التي كانوا يدفعون عنها للسلطان رسوما باهظة سنوية .

شبهو جى : انتهى أورنگزيب من أرهاقته الإماراتين ليفرغ من بعد ذلك الحرب المرهتها . وكان أميرهم شبهو جى ن شيو ا جى قد أثر أن

يلزم حصن سنجمشوار طالبا للسلامة : والسلطان منهك في حربه مع جيرانه ، حتى وقع عليه مقرب خان قائد أورنگزيب ، وهو في تقاعسه منصرف إلى لهوه ، فأسره مع زوجاته وبناته وفريق من رجاله ، ثم قتله وأعيانه وأسر فطووف بره وسهم في أغلب مدن الدكن عام ١١٠١ هـ / ١٦٩٠ م عظة وعبرة (١) .

وسقطت راجكره عاصمة المرهتها بأيدي الدولة بعد أشهر فلانل من أسرا ميرهم ، وأحيط بأفراد أسرته جميعا إلا رامداس ، ليبتاح أورنگزيب من بعد ذلك الجنوب كله حتى يبلغ تنجوره بأقصاه .

بهذا صارت شبه القارة الهندية كلها في حوزة أورنگزيب إلا أماكن قليلة عند الساحلين الشرقي والغربي كانت بأيدي المستعمرين الأوروبيين ، وإن لم يمكنه ترامي أطرافها ، وما يحمله له أغلب أهلها الهنادكة من كراهية وعداء ، من إحكام قبضته في الواقع عليها وتثبيت أقدامه بها . — هذا فضلا عما استنزفته حروبه بها من أموال طائلة حتى عجزت الدولة أواخر أيامه عن الوفاء بقرارات الجند (٢) .

لقد أراد أورنگزيب أن يجعل من جنوب الهند إمارة تابعة له يجرى حكمها على غرار حكومة البنغال أو البنجاب ، فقضى هذه السنين الطويلة مقيما ، في الغالب ، هناك حتى نهاية عمره ، فلم يبلغ إلى تحقيق هدفه على الوجه الذى ابتغاه . ذلك أن قواده لم يكونوا من طراز أولئك الرجال الأشداء ذوى الجلد الذين ساروا مع جده الأكبر بابر ففتح بهم الهندستان وكسر بهم شوكة الراجپوتيين ، إذ كان كل واحد منهم يحرص أشد الحرص وهو في حملات الدكن على توفير أسباب الرفاهية والآبهة لنفسه على أكمل وجه وكأنه لا يزال يقيم بالعاصمة في قصره ومن حوله نسائه وجواريه . هذا كما كان الراجپوتيون بدورهم قد تخلوا عنه ، وهم الذين طالما عاونوا آبائه في حروبهم من قبل . فلو كان قد أتيح لأورنگزيب رجال من أولئك وهؤلاء لاستطاع أغلب الظن ، القضاء التام على المرهتها في يسر ، ولثبتت أقدامه في الهند كلها ، ولجنّبت الدولة بالتالى الأخطار القاتلة التى تعرضت لها فيما بعد على أيدي المرهتها والسك^(١) .

هذا وقد حاول راجا رام داس أن يلم شعث المرهتها من جنديد ، بعد أن كسبت له السلامة من الأسر ، فلم يحالفه التوفيق ،

حتى حاصرته قوات الدولة آخر الأمر في حصن ستارا إلى الجنوب من بونا . واستسلم أصحاب الحصن لأعدائهم بعد موت أميرهم ، وقد تزعمتهم من بعد ذلك تاربی أرملہ هذا الراجا فقادت عصابتهم في عزم أسلافها وحسبكتهم . وحين سار أورنگزیب إلى أحمد آباد عام ۱۱۱۷ھ / ۱۷۰۵م مضوا في أثره يخربون أراضی الدکن حتى مشارف مالوه ، فبلغ ما هلك من السكان على أيديهم هناك ، وما قضى عليهم القحط ، بسبب أنحباس الأمطار قبل ذلك بسنوات قليلة ، بضعة ملايين .

لم ينقض عام علی اورنگزیب بأحمد آباد حتى بلغ به المرض والشيخوخة مبلغه فأيقن بدنو أجله . هنالك فرّق أبنائه في أنحاء الدولة مخافة أن يقع بينهم ما وقع بينه وبين إخوته من قبل من تطاحن وقتن ، فبعث بأعظم إلى بیجاپور ، وبکام بخش ، أحب أبنائه إليه ، إلى مالوه .

وكان أورنگزیب منذ أول عهده على حذر تام من أبنائه حتى لم يتردد في إلقاء ابنه الأكبر سلطان في الحبس حتى مماته ، كما سجن ابنه معظم سنوات ثمانية حين بلغه خبر تفاوضه مع سلطان بیجاپور ، أثناء حرب الدکن ، دون تصريح منه . وفعل مثل

ذلك مع ابنه كام بخش وكان أقرب أولاده إليه . بل إنه لم يتردد كذلك في عقاب ابنته زيب النساء ، وكانت شاعرة موهوبة ، اعطفها على أخيها أكبر حتى وافاها أجلها في الحبس ^(١) .

وحين اشتد به الداء أوصى رجاله أن يقيموا له جنازة بسيطة عند وفاته ، ويسرعوا بدفنه في أقرب مقابر المسلمين ، ولا يزويدوا في ثمن كفنه على خمس رويات كان قد كسبها من صنع الطواقي وبيعها ، وأن يتصدقوا على الفقراء بثلاثمائة من الرويات كانت هي كل ما يملكه وما تبقى له من دخله من نسخة للقرآن الكريم وبيعه .

وافاضت روحه يوم جمعة ، على مناه ، في الثامن والعشرين من شهر ذى القعدة عام ١١١٨ هـ / ١٧٠٧ م وهو في التسعين من عمره فووري التراب في مقبرة دولت آباد (٢)

شخصية أورنگزيب : وقف أورنگزيب عالم — كبير حياته كلها على إعلاء شأن السنة ونشر لواء الإسلام خفاقا عاليا ، ومجاهدة عبادة الأوثان والخارجين على إجماع أهل السنة

من أصحاب المذهب الشيعى وغيرهم . وقضى أيامه على خير
ما يقضيها مسلم تقى يحفظ القرآن ويصوم أغلب أيامه ، حتى كان
لا يتردد ، وأعنف المعارك تدور من حوله ، فى أن يزل عن
دابته فيؤدى الصلاة فى وقتها باطمئنان بالغ وخشوع وكأنه يقيمها
بالمسجد الجامع أو فى داره (١) .

وبلغ من ورعه وتجنبه للترف والمتع ، إلى جانب
تخريمه التام للخمر والميسر ، أن أبعد الموسيقيين والمطربين عن
بلاطه برغم براعته فى العزف (٢) ، وخير الرافصات بين
الزواج أو النفى فى الأرض . كما طوى قلبه على الرحمة البالغة
برعاياه حتى بَعُدَ كل البعد عن القسوة والقتل ، وكاد يستغنى
عن اصطناع العقاب فى محاكمة المجرمين إلاّ قطاع الطرق منهم (٣)
هذا فضلا عما شُهر به من تجمل بالصبر وهدوء النفس
فى المحن ، والتواضع الشديد الذى أدى به إلى تهديد نائبه بالبنغال حين

١ — مرآة عالم ١٦١ .

٢ — يروى أن الموسيقيين حملوا عندئذ النعوش مولولين والسلطان فى طريقه
إلى المسجد ، حين استفسر عن أمرهم أجابوه بأنهم فى طريقهم لدفن الموسيقى ، طلب
إليهم أن يحسنوا دفنها حتى لا تعود إلى الحياة ثانية .

بلغه أنه يتعالى عن الناس في مجلسه حتى اتخذ له ما يشبه العرش ليرتفع عليه (١) .

ولقد نشأ منذ شبابه على الترس بالحكم والاضطلاع بالحرب ووقائعها ، فأصاب نجاحا كبيرا في حكم الدكن وحروبه ، كما ذاع صيته كذلك في ممالك بلخ وبدخشان مع الأوزبكي وغيرهم .

وأدت به رقابته لضميره في كافة ما كان يصدر عنه من أعمال أنه كان لا ينام إلا ساعات قليلة ، لينفق وقته كله في الإشراف على كل كبيرة وصغيرة من شئون الدولة بنفسه . ويسهر في دأب متواصل على مصالح رعاياه . ويبت في كل مسائلهم برأيه الخاص ، حتى كان وزراؤه في الغالب مجرد كُتّاب لتنفيذ أوامره .

وبلغ من حرصه على تحقيق العدل لرعاياه أنه أصدر أوامره المشددة لقضاة في كافة أنحاء البلاد بأن يتوافروا على دراسة قضايا الناس ومشاكلهم . مع سرعة الفصل فيها بالجلوس للقضاء خمسة أيام في كل أسبوع بدلا من يومين على الرسم السابق .

على أن غيابه الطويل بالجُزوب وهو يدير دفة المعارك هناك ،
قد أدى إلى تسرُّب الفساد إلى جهاز الحكم وسلوك أغلب العمال
طريق العنف مع الأهلين .

ولم يلبس أورنگزيب إلا بسيط الثياب ، ولم يكن يسمح
لأحد أبداً أن يغتاب غيره في حضرته . وأدى به ورعه وزهده
إلى أن كف يده عن بيت المال ، في الغالب ، فعاش على ما كان
يكتسبه من صنع الطواقي بنفسه ونسخه للقرآن الكريم بخطِّه
الشيكست [الرِّقعة] والنسختة علق ؛ وكان له في كتابته ذوق فني
رفيع ، وكان يبعث ببعض هذه النسخ هدية منه إلى الحرمين
الشريفين . وقد كان من أمانة أن يحج إلى البيت الحرام لولا
ماخافه من اضطراب أمور الهند في غيبته ، فأخذ على عاتقه تيسير
سبل الحج لرعاياه .

ولم يشتغل أورنگزيب في حياته بغير علوم القرآن والسنة
في الغالب ، على تمكُّنه من الآداب الفارسية وبراعته في النظم
الذي عدل عنه حذر الغواية .

وألف بأمره وإشرافه موسوعة مهمة تجمل أقوال أئمة
الفقه الحنفي في المذهب ، وهي المعروفة بالفتاوى الهندية

أو العالمية (١) .

على أن أورنگزيب كان يرى اصطناع الخداع في السياسة أمراً واجباً ، وأنه لا ضير على الحاكم من نشر شبكة من العيون بين الناس لتأتية بأخبارهم وتنبيه بأحوالهم . كذلك لم يكن يَرى بداً من أن يصطنع السلطان الرحمة والشفقة مع أعداء عقيدته الذين يناوئونه ، فعصف لذلك بالمرهتها والراجپوتيين والشيعية والسك عصفاً شديداً حين وقعوا في قبضته .

البريطانيون عند أورنگزيب : كان من أثر وقوف البريطانيين في وجه شيواجي زعيم المرهتها ، حين أقدم على نهب سوارت ، أن توثقت علاقاتهم بأورنگزيب الذي قابل موقفهم من عدوه بتخفيض الرسوم التي كانت تفرض على وارداتهم .

وكان البريطانيون قد أفادوا ، من قبل ، من سخط شاهجهان على البرتغاليين وتدميره لمراكزهم عند هوجلي . فحصلوا على إذن لهم منه بإقامة وكالة لهم هناك ، لتخضع من بعد ذلك كل وكالاتهم الهندية لإشراف موحد مركزه في سوارت .

١ — طبعت هذه الفتاوى بمصر عام ١١٨٢ هـ أي بعد مضي قرن ونصف القرن على وفاة أورنگزيب . وهي من المراجع الشرعية المهمة في الأحوال الشخصية .

وامتد نفوذهم التجارى من بعد ذلك إلى بمباى بالساحل الغربى ، حتى إذا ما عارضوا شايسته خان حاكم البنغال فيما فرضه عليهم من رسوم جديدة ، على خلاف اتفاقهم السابق مع شاهجهان فعمدوا إلى مناهضة الدولة ، دحرتهم قوات أورنگزيب عند كل مراكزهم ، فضاعت منهم مصانعهم عند هو جلى وسوليانام . وحرروا حرماناً تاماً من ممارستهم لنشاطهم التجارى فى أراضى الدولة من بعد ذلك على أن ما كانت تجنيه الدولة منهم من رسوم كثيرة ، أغرت أورنگزيب بالعمو عنهم ، فجاءوا من جديد ليقبموا لهم بأدى هو جلى محلة جديدة بالقرب من قرية صغيرة تدعى كلكتا . وما غدت هذه القرية تتسع فى تدرج سريع حتى أصبحت عاصمة الإمبراطورية الهندية البريطانية قبل أن ينتقل نائب الملك إلى دهلى الجديدة .

ووحّد البريطانيون من بعد ذلك جهودهم ونشاطهم التجارى عند الساحلين الشرقى والغربى ، فى شركة الهند الشرقية ، ودأبوا قرابة نصف قرن على التظاهر : فى حرص تام ، بالتباعد عن التدخل فى شئون الدولة .

ولم يكن يحول بخاطر أورنگزيب عالمگير أنه يتساعده مع هذه النصبه إنما يمهّد الطريق لأولئك الذين لم يتورعوا عن سلوك أحط السبل وأدنىها ، حتى تم لهم استثمار شبه القارة الهندية كلها .

خلفاء أورنگزيب

يتهم بعض المؤرخين أورنگزيب عالمگير بأن عدوله عن سياسة سلفه العظيم جلال الدين أكبر في تقريب الهنادكة إليه وفتح باب مناصب الدولة الكبرى لهم قد أدى إلى شيوع الفتنة بينهم وجنوحهم إلى الثورات في مختلف أنحاء البلاد مما عجل بنهاية الدولة المغولية ، في حين يرى مؤرخون آخرون أن تقريب السلاطين السالفين للهنادكة وإصهارهم إليهم وحضهم المسلمين على الامتزاج بهم كان هو العامل الأول في زلزلة بناء هذه الدولة .

وفي هذين القولين متسع للبحث ، فأورنگزيب في تمسكه بتعاليم السنة وقتصره وظائف الدولة الكبرى على المسلمين لم يكن إلاّ ضرباً بالمحمود الغزنوى ومحمد الغورى اللذين أرسيا قواعد الحكم الإسلامى بالهند . وسلاطين المغول ، وغيرهم من حكام المسلمين بالهند ، حين حضوا الناس على الإصهار إلى الهنادكة ومخالطتهم . إنما كانوا يبعون من وراء ذلك إلى تألف أفراد شعوبهم ،

وهو أمر عاون على ازدياد عدد المسلمين زيادة بالغة بالهند . حتى إن الغالبية الغالبة من المائة مليون مسلم في شبه القارة الهندية اليوم هي من أصول هندوكية .

والحجة الدالة على خطأ القول بأن اختلاط المسلمين بالهنداكة وإصهارهم اليهم أدى إلى ضياع دولتهم بالهند ، هي أن أورنگزيب نفسه أمه هندوكية خالصة . وهو الذى خضعت لراية المسلمين في عهده شبه القارة الهندية ، والذى عرف بتمسكه البالغ بشعائر الإسلام وسننه . وقد شهد ثقافة المؤرخين ، وفيهم من الهنداكة ، بحزمة وشجاعته وعلو همته وأصالته رأيه . وقلوا بأن الهند لم تعرف منذ أيام سكندر لودهي ، سميّاً له في حب العدل والسهل على مصالح الناس . ولئن كان هو آخر السلاطين المغول الكبار زمناً فهو يُعد من بين أعظمهم وأقدرهم على كل حال .

وغاية القول أن انهيار الدولة المغولية لا يرجع إلى سياسة أورنگزيب أو سياسة أسلافه نحو الهنداكة ، وإنما يُردّ إلى ما كان عليه خلفاء أورنگزيب من الضعف حتى عجزوا عن إدارة دفة الحكم في بلادهم التي بلغ أبوهم برقتها إلى ما لم تبلغه ، حتى أيام أكبر ، من السعة وترامي الأطراف ، وتمكن بما أوتي من حزم

وقوة شكيمة ، من السيطرة على إدارتها سيطرة تامة ، اللهم إلا في أخريات أيامه حين خذلته الشيخوخة وأضناه المرض . هذا : كما انصرف كثير من رجالهم بدورهم إلى الاهتمام بمصالحهم الخاصة فحسب ، حتى سعى فريق منهم إلى الاستقلال بما بأيديهم من ولايات غير آية بالآخطار التي طفقت تهدد كيان الدولة في الداخل على أيدي المرتهتها والسك والراجپوتيين ، مما أدى إلى تيسير غزو الفرس والأفغان لها مرات متتابة من بعد ذلك ، فزلزل بناء الدولة على أيديهم زلزالا شديدا مهد الأرض لأولئك المستعمرين الأوروبيين الذين بلغوا ، بقصور السلاطين السابقين عن إدراك وإياهم ، إلى تثبيت أقدامهم في أماكن عديدة بالشواطىء الهندية بما حصلوا عليه من امتيازات ورخص ، ثم انطلقوا من بعد ذلك يحصنون مواقعهم بجندهم المدرب والأسلحة الحديثة التي لم يكن لها عند الدولة المغولية نظير ، حتى أفلح البريطانيون منهم ، بالقوة حينئذ ، وبالدس والوقية والغدر أغلب الأحيان ، في أن يضعوا أيديهم على شبه القارة الهندية كلها .

بهادر شاه :

لم يُجِدَ فتى لا حرص أورنگزيب على أن لا تتكرر بين بنه مأساته مع إخوته في تنازعهم على الملك . فهو حين فرّق

أبناءه في الأرض قبل وفاته ، ولم يعهد لأحد منهم بالملك من بعده .
حتى لا يتآمروا عليه في حياته فينتهى به الحال إلى ما انتهى إليه أبوه
شاهجهان من مصير أليم على يديه ، إنما أدى بإجرائه هذا إلى تأجيل
الفتنة إلى ما بعد انقضاء أجله فحسب ، دون اقتلاع أصولها .

فلم يكد يوسف الثرى حتى قامت الحروب بين أبنائه ، وقد هدف
كل واحد منهم إلى استخلاص عرش الهند لنفسه ، فنادى أعظم
بنفسه سلطانا بمالوه وكذلك فعل أخوه كام بخش بيدجپور ، في حين
زحف شاه علم بهادر ، أكبر أبناء أورنگزيب من بشاور إلى البنجاب
حتى بلغ دهلئ ، لينطلق إلى قتال أخويه من بعد ذلك فيقضى على أعظم
بعد أن بلغت قواته مشارف آگرا ، ويوقع كام بخش في أسره .
على مقربة من حيدر آباد الدكن بعد ذلك بعامين ، وقد رفض
الأسير في عناد أن يُعالج من جروحه حتى تضى بدوره (١) .

هنالك عهد بهادر شاه بالوزارة إلى بدخشى منعم خان الذى كان
له خير معين بلوغه العرش : ليواجه من بعد ذلك ثورات المرهتيا
في الدكن والراجپوتيين في منازلهم ثم السك في البنجاب والجات
عند مشارف آگرا ، وإلى جانب هؤلاء جميعا كان البريطانيون
قد أخذ خطرهم يتفاقم في أغلب مراكزهم وعند الشواطئ الشرقية

بخاصة ، وكان أغلب القادة قد بعث السأم والضجر في نفوسهم ،
حروب أورنگزيب السابقة الطويلة وبات الجند أنفسهم بسببها
في حالة من الإنهك الشديد الذي أدى إلى سريان الفوضى
في صفوفهم ، كما نتج عن اتساع رقعة الدولة ، وضعف
رقابتها على عمالها منذ أواخر عهد السلطان السابق ، أن
شرع فريق من الولاة بدوره يتقاعس عن شـد أزر الدولة
ومدّها بقواته في انتظار الفرصة الموانية للاستقلال بما بيده
من أرضين .

الراجپوتيون والسك : لم يهل الراجپوتيون السلطان الجديد
وهو في حربه مع أخوته حتى انحدر أجيت سنغ بن جسوانت من
مكمنه بالجبال فائتلف وأمر سنغ صاحب اُدایپور لينطلقا من
بعد ذلك إلى جدهيروفيطردا عمال الدولة منها ثم يعملان التخريب
في مساجدها ويتخذان منها معايد لأوثانهم ، ويذيقا المسلمين الخسف
والذل بأرضها .

واتيح لبهادرشاه ، بعد أن فرغ من أمر أخيه أعظم ، أن
يُلزم هاذين الأميرين طاعته من جديد ، ليعودا إلى سيرتهما
الأولى من البغى بعد قليل وهو في شغل عنهم بحربه مع ثاني إخوته
كام بخش بالدكن . حتى إذا ما عاد إليهما ثانية بعد القضاء على فتنة

الوراثه ، دفعه حسن تدبيره إلى مهادنة الراجپوتين جميعا فى اُدايبور وجدهپور وجايپور ، فاعترف لهم بالرسم الذى كان لآبائهم أيام جدّه أكبر ، كسبا المودتهم ، حتى ينصرف مطمئنا إلى حرب السك الذين جنّحوا إلى الثورة فى البنجاب من جديد ^(١) .

ذلك أن أحد البطهانيين الافغان اغتال بالدكن كوفند سنغ ، عاشر زعماء هذه الطائفة . الذى كان قد وقع فى أسر أورنگزيب ثم التحق من بعد ذلك بخدمة بهادرشاه فسار معه فى حرب كام بخش بالدكن . وحين بلغ خبر مقتله البنجاب من بعد ذلك انطلق خليفته بندا يشعل الحماس بين بنى جلدته ويحرّضهم على الانتقام لزعيمهم المقتول ، فسقط بهم على سرهند فقتل حاكمها لينتشر رجاله من بعد ذلك فى البنجاب الشرقى فيشيعون فيه الخراب والدمار والقتل ، فلم ينج من سيوفهم الاطفال أو النساء والشيوخ . ولم يقنعوا بذلك كله حتى امتد طغيانهم إلى لاهور وكادوا يبلغون بفتنتهم مشارف دهلى . لولا أن سارع إليهم السلطان فردتهم قواته إلى تلال جامو ولم يمنع جند الدولة عن مطاردتهم وتشيت شلمهم إلا وفاة بهادرشاه بلاهور عام ١١٢٣ هـ / ١٧١١ م

وهو في السبعين من عمره بعد أن حكم أربع سنوات وشهرين ساءت فيها أحوال الدولة المالية حتى اضطر القائمون على أمورها إلى اقتراض الأموال من بعض أمراء لسد العجز في الخزانة .

وكان من حسن تدبير هذا السلطان حين أطلق سراح شاهو ، حفيد شيواجي ، أن ركن المرهتها في عهده إلى الهدوء حتى صحبه في حربه مع أخيه بالدكن ، نياما سندھيا ، أحد كبار صدورهم .
ولئن كان المرهتها قد تفرقوا ، عقب موت أورنگزيب ، شيعا وأحزابا حتى ابتدوا عن تحقيق أهداف شيواجي وشمبوجي في إقامة دولة موحدة كبيرة لهم . فإنهم لم يعدلوا أبدا عما عرفوا به من الميل إلى التخریب والتدمير ما أتحت لهم الفرصة بذلك .
جهاندار :

تقاتل أبناء بهادر شاه الأربعة على العرش ، بعد موت أبيهم ، على المادة الغالبة عند الأمراء التيموريين بالهند .
ولقد كاد الحال يستقر بينهم ، بادی الأمر ، على أن يقتسموا ملك أبيهم فيما بينهم فيكون لجهانشاه الدكن ولرفیع الشأن الملتان ، رتنا، وكشمير ، على أن يقتسم جهاندار وعظیم الشأن بقية الأرض فيما بينهما . لولا أن تنازعوا من جديد على الأموال

ليباغ ذوالفقار خان بدهائه إلى إثارة جهاندار ورفيع الشان وجهان شاه مجتمعين، على أخيهام عظيم الشان .

واتسع نطاق الفتنة بين الإخوة جميعاً حتى سقط فيها ثلاثة منهم، ليرقى العرش من بعد ذلك جهاندار فينصرف إلى اللهو والمتعة، ويُبعد عن بلاطه الرجال المجرّبين والعلماء، حتى زحف إليه محمد فرُّخ سیر، ابن أخيه عظيم الشان، من پتنا، وكان قد استقل بها على أثر مقتل أبيه ثم مد سلطانه إلى البنغال، فالتف حوله عمال الدولة هناك لعدله وشجاعته، فأُنزل بقوات الدولة، على كثرتها، ضربات متلاحقة حتى دخل آگرا فانطلق منها إلى دهلي فوجد عمّه بقلعتها، فأورده مورد الردي ولمّا يعض عليه في الحكم أحد عشر شهراً (١)

فرُّخ سیر :

جلس فرُّخ سیر على عرش دهلي في المحرم من عام ١١٢٤هـ / ١٧١٢م بعد أن طاف موكبه المدينة، والفيظة تتقدمه وعابها جُشتاعمه جهاندار ووزيره ذى الفقار، فاتخذ له وزيرين أخوين ينتميان إلى أشراف العرب هما السيد عبد الله خان والسيد علي خان، لينفسا من بعد ذلك على عبد الله مير جملة

معتمد الملك ما حباه به السلطان من نفوذ واسع حتى اتخذ مشيراً له وأطلق يده في تصريف شئون الدولة كلها ، فما زالا يوقعان به عند السلطان حتى أبعده آخر الأمر إلى پتتا وانفردا بالأمر كله . وقد نجم عن تنافس الخصمين وما كانا يحكماه من التآمر والدس إلى هلاك كثير من الأنفس ظلماً ^(١) .

السك والمرتتها : ونزع السك عام ١١٢٦ هـ ١٧١٤ م إلى الفتنة من جديد ، وكان زعيمهم بندا قد وحد صفوفهم بعد أن أقاموا لهم معقلاً قويا بجودا سپور بالپنجاب ، ثم انطلق بهم إلى أراضى هذا الإقليم الشمالية فاتهبوها وسيطروا على كافة الأراضى الواقعة بين لا هور وسر هند . حتى بعث السلطان إليهم بقائده عبد الصمد دله جنكغ خاض معهم وقائع عنيفة ، فلم يفلح في إرغامهم على الخضوع والتسليم بعد أن ارتدوا إلى حصونهم إلا حين شاعت فيهم المجاعة بفعل الحصار المحكم الذى ضربه عليهم .

وسيق غورو پندا وألوف من أتباعه إلى العاصمة أسارى ، ليقتل منهم فى كل يوم بضع مئات حتى فنوا عن آخرهم . وما غدا زعيمهم أن لحق بهم بعد أن شهد ذبح ابنه ، أمام عينيه ، انتقاماً لمن

ذبحهم ورجاله من أبناء المسلمين في البنجاب (١) .
وكان من أثر هذا العقاب الرهيب أن ركن السك إلى
السلم بضع سنين .

هذا وكان قليج خان نظام الملك بهادر فتح جنگ ، مؤسس
بيت النظام في حيدر آباد ، حين ولاه السلطان شئون الدكن قد
جد في كبح جماح المرهتها الذين انطلقوا يفرضون على التجار
والسكان ربع المكوس المقررة عليهم نظير عدم تعرض عصاباتهم
لهم . حتى إذا ما استدعى هذا الأمير إلى البلاط ليحل محله
هناك الوزير حسين علي خان بعد أن غضب السلطان عليه ، أدى
بهذا الأخير انصرافه إلى مشاحناته وخلافه مع السلطان إلى مهادنة
المرهتها على أن يجعل لهم أكثر من ثلث خراج الدكن كله .
وضاق فرخ سیر آخر الأمر ذرعا بنفوذ وزيره الآخر
عبدالله خان ، فدبر هو وبعضُ رجاله خطتهم على الخلاص منه ، لكن
عبدالله أفسد تدبيرهم بحذره ، حتى قدم أخوه العاصمة في قوة من المرهتها
فأطبقوا جميعا على السلطان في قصره وو أوقعوه في أسرهم ثم سملوا أعينيه ،
وقضوا عليه شقا بعد ذلك بقليل بعد أن حكم ست سنوات وبضعة أشهر

رفيع الدرجات :

هناك أجلس الوزيران على عرش دهلې أبا البركات
رفيع الدرجات في حين نادى خصوصهم بنيكوسير ، أحد أحفاد
أورنگزيب ، أميراً عليهم بآگرا .

ووافي رفيع الدرجات أجله بعد أشهر ستة من حكمه قضاها
على فراش المرض ، ليخلفه رفيع الدولة شاهجهان الثاني فيسير سيرته
في الاستسلام في كل شيء إلى وزيريه والخضوع التام لرايها .
وقد قوى من نفوذها استعادتهما لا آگرا ووقرع أميرها
نيكوسير في أسرها .

محمد شاه : قضى شاهجهان الثاني بدوره بعد حكم لم يبلغ شهوراً
ثلاثة ، فأتى الوزير عبداللہ خان بابنه محمد روشن أختر وأجلسه
على العرش في ذى القعدة من عام ١١٣١ هـ / ١٧١٩ م باسم
محمد شاه ليحكم من بعد ذلك تسعاً وعشرين عاماً ويشهد
تفكيك الدولة وانهيارها على يديه .

احتال السلطان الجديد بدوره على التخلص من استبداد وزيريه
الأخوين به ، حتى إذا ما تم له القضاء عليها ، استدعى إياه أضاف
جاه نظام الملك فاتخذ وزيراً له . لكن سلوك العصبية العابثة ، التي
غدا السلطان ينقاد بالبلاط لمشورتها ، ما لبث أن دفعه إلى ترك العاصمة

بعد قليل إلى الدكن حيث أمكن له أن يثبت أقدامه بإمارة حيدرآباد الحالية بعد أن هزم قوات الدولة التي وفدت لقتاله ، حتى أقره محمد شاه آخر الأمر عليها وأطلق يده في شئون الدكن (١) .

ولم يكن نظام حيدرآباد هو أول أمير استقل بإمارته استقلالا فعليا لا ينال منه اعترافه الاسمي بسيادة السلطان . إذ الواقع أن نفوذ الدولة وسيطرتها على كثير من ولاياتها كان قد غدا ، بعد وفاة أورنگزيب بيضع سنين ، يأخذ طريقه إلى التلاشي . فقد استقل كذلك بما بأيديه من أرضين مرشد قلى خان نائب السلطان على البنغال وأوريسه وبهار ، أغنى أقاليم الهند ، فتوارث أولاده ملكه من بعده ، وحذا حذوه كذلك سعادت خان وأبناؤه بإقليم أوده .

ولئن عمد نظام الملك في إمارته الجديدة إلى إجراء الخطبة وضرب السكة باسمه ، فقد ظل سنين كثيرة على ولائه للدولة فساندها في كثير من المواقف بإخلاص .

وهكذا زال كل سلطان للدولة على الأراضى التى تقع إلى الجنوب من نهر نربدا بقيام إمارة حيدرآباد الدكنية، ومن حولها المرهتا الذين توصلوا التمكن نفوذهم وأقدامهم بما أقرته الدولة لهم من

نصيب في خراج الدكن، ضمنوا به مورداً كبيراً لهم .
 المرهتها : أدى فتور همة شاهو أمير المرهتها إلى انفراط عقد
 دولتهم ، فراح كل زعيم من كبارهم يعمل لحسابه الخاص ، وقد نبذوا
 جميعاً الحرص على وحدة الدولة التي عمل لها شيهوجى وشيواجى
 من قبل وتجردوا للسلب والنهب والتخريب ، وسيلتهم السابقة
 لهدفهم وغايتهم من قبل .

وامتد نفوذ عصابتهم إلى البحر ، فقاد قبطانهم تولاجى
 قراصنتهم عند الشواطئ الشرقية والمبار ، فظل البريطانيون
 يرهبونهم هناك حتى تم لهم القضاء على كل نشاط بحرى لهم في
 الربع الأول من القرن الثامن عشر الميلادى ^(١) .

لقد كان على المرهتها أن يسمكوا بعصابتهم عن إثارة
 الاضطرابات بجنوب الهند نظير ما ترصده الدولة لهم من نصيب
 في خراج الدكن . حتى إذا ما عادوا إلى سيرتهم الأولى من البغى
 والعدوان ، فحاول نظام حيدر آباد أن يقتحم قصبته القديمة بونا
 بقواته ، ردّ عنها رداً عنيفاً ، وشرع أصحابها يطاردونه حتى تعرضت
 حاضرتهم نفسها لخطر هجومهم عليها ، فلم يجد آخر الأمر مندوحة

من خطب ودّ الپیشواى ^(١) وزرائهم الأقوياء الذين كان ييدهم المقاليد الفعلية لإدارة الدولة ، فهادنهم على ألاّ يتعرض لهم إذا ما ساروا إلى أراضى الدولة فى الشمال بعيداً عن أملاكه ، وفى خاطره أنه بخطته هذه سيدفعهم إلى مناهضة الراجپوتين أعدائه وأعداء الدولة على السواء .

ولو كان المرهتہا قد اتلفوا مع هؤلاء الراجپوتين على الدولة بدلا من اجتياح أراضيهٖم ؛ مغيرين ، طلبا للغنم الذى صار كل غايتهم فى حروبهم فى الغالب ، لكفلوا لأنفسهم نفوذاً أوسع مدىً ، ومغانم أضخم قدراً بالهند دون شبهة .

على أنهم لم يكادو يبلغون مالوہ ثم يظهرون من بعد ذلك عند مشارف دہلى ، حتى استنجد محمد شاه بنظام الملك ، الذى طمع بخروجه إلى حربهم فى أن يقضى على خطرهم المتزايد ؛ حتى إذا مادّ حرت قوات السلطان ^{۱۱} وأمير حيدر آباد بجمعة عند بهوبال ، نشر باجى راو الزعيم المرهتہى نفوذه وسلطانه على كافة الأراضى التى تمتد فيما بين نربدا وسنبھل بما فيها مالوہ .

الغزو الفارسي :

أقبلت على الهند كارثة مروّعة في ركاب نادرشاه ، صاحب فارس ، كانت أشد وطأة على الدولة وأبعد أثراً من الغزو التيموري الذي تعرضت له البلاد قبل ذلك بثلاثة قرون ونصف القرن .

ذلك أن هذا العاهل القدير ، وكان من أسرة تركمانية رقيقة الحال في خراسان ، توصل بجده وطموحه ودهائه إلى الجلوس على عرش الصفويين بإيران ، ليتجه من بعد ذلك إلى توسيع ملكه حتى دانت له كافة الأراضي الواقعة فيما بين بحر الخزر وقندهار . وما لبث بعد ذلك أن استحوذ على إقليم كابل ، وكان لا يزال بأيدي أصحاب دهلي ، ثم انحدر إلى البنجاب فنشر الخراب والدمار فيه كله ، بعد أن دخل لاهور في شوال من عام ١١٥١ هـ / ١٧٣٩ م .

ولقد أصمت حكومة دهلي أذنيها حين استغاث بها عاملها على البنجاب لدى مقدم نادرشاه إلى أراضيه (١) ، فلم تنتبه من غفلتها إلا بعد أن كان الفرس قد توغلوا في البنجاب واقتحموا قصبته . ومع هذا فقد

أضاع السلطان المغولى ورجاله كثيرًا من الوقت فى نقاش عقيم غلبوا فيه أحقادهم على مصلحة الدولة، حتى انتهوا إلى استبعاد إسناد قيادة الحملة إلى نظام الملك أمير حيدر آباد الذى كان قد قدم لنجدة السلطان ببعض قواته، حذر الشائعات التى زعموها بتواطئه مع شاه الفرس (١). واستنجد السلطان كذلك بالراجپوتيين والمرهتيا؛ فأما الأولون فلم يعيروا دعوته التفاتًا، وأما الآخرون فقد آثروا أن ينصرفوا إلى تأمين حدودهم، فأقاموا لهم خطوطًا دفاعية حصينة على طول نهر نربدا وكنوا من ورائها.

والتقى الغزاة بالمدافعين عند كرنال على حدود البنجاب فى معركة لم تستغرق سوى ساعات ثلاثة منى فيها السلطان المغولى بهزيمة منكرة استسلم على أثرها لنادر شاه، ليدخل من بعد ذلك جند فارس مدينة دهلى فيعملون فيها السلب والنهب والتدمير ويقتلون من أهلها ما يزيد على العشرين ألف نسمة.

ولم يرجع نادر شاه عن الهند إلا بعد أن اغتصب عرش الطاووس لنفسه، وأرغم محمد شاه، نظير إعادته إلى عرشه، على التنازل له عن أرض كثيرة بالبنجاب تمتد من كشمير حتى ولاية السند؛ مع تعويضات مالية طائلة ومزيد من الجواهر

والأحجار الكريمة ، جعلته يتغاضى عن جمع الضرائب من سكان فارس لسنوات ثلاثة ^(١) . ولم ينس نادرشاه بدوره أن يسلك في ركابه قسراً فريقاً من مهرة النقاشين ورجال المعمار ^(٢) على غرار ما فعل محمود الغزنوى وتيمور من قبل .

وبضم نادرشاه بلاد الأفغان وقسماً كبيراً من البنجاب إلى بلاده حرمت سلطنة دهل من حدودها الطبيعية التي كانت تحمى سهولها ، ومنع عنها موارد كثيرة كان مصدرها هذه الأقاليم الغنية ، وانكسرت بالتالى إلى إمارة صغيرة لم يعد لها قبيل بمواجهة المرهتا والسك الذين استشرى خطرهم وأخذوا يعيشون فى الأرض فساداً .

والواقع أن غزو نادرشاه كان أخطر على الدولة الإسلامية بالهند من الغزو التيمورى وأبعد أثراً وأوخم عاقبة . ذلك أن الدولة الإسلامية ، برغم تفككها عقب تحريبات تيمور ، استطاعت على كل حال أن تستعيد سيرتها الأولى من القوة فى أغاب إماراتها وأقاليمها الكبرى ، إذ لم يكن لها بالبلاد أعداء يتربصون بها نظير المرهتا والسك ، على الخصوص ، الذين

كانوا للدولة المغولية بالمرصاد ، ومن ورأيهم المستعمرون الأوروبيون ، وعلى رأسهم البريطانيون ، عند شواطئها يعدون العدة لابتلاع أراضيها كلها .

الغزو الأفغانى :

ظل الپنجاب بأيدى الفرس اثنى عشر عاما حتى دخله عليهم أحمد — دأبدالى الدراني ، شاه الأفغان ، الذى نجح بعد قتله لنا درشاه فى أن يوحد قبائل الأفغان بزعامته ويمد سلطانه حتى سيحون وشواطئ قزوين لينحدر من بعد ذلك إلى سهل الهند . وأفلح محمد شاه سلطان الهند فى رد الأفغان وأميرهم عن بلاده أول مرة عام ١١٦٠ هـ / ١٧٤٨ م ، حتى إذا ما وافاه أجله فى مستهل العام التالى ، خلفه ابنه أحمد شاه ليواجه ثورة قبائل أفغانية أخرى ، هى الروهيلا إحدى بطون يوسفزى ، عند قنوج والدوآب ، فلم يتح لوزيره صفدار جنگ نائب أوده القضاء على فتنهم إلا بعد أن استعان بالقائد المرهتپى هولكر وكان إذ ذاك بمالوه ^(١) . وقد مهد السلطان المغولى باستعانتة بالمرهتپا إلى انتشار نفوذ هذه الطائفة حتى بلغ البنغال بعد أن شمل مالوه والسكجرات .

وانتهت غزوات أحمد أبداً إلى المتكررة على الهند مع اشتغال الدولة ، في ضعفها ، بفتن الروهيلا المتعاقبة ، إلى ضياع البنجاب واستيلاء الأفغان عليه .

عالمسكير الثاني :

ما غدا الوزير غازي الدين نظام الملك أن ائتمر بالسلطان أحمد شاه لما كان من عدائه هو وأمه له ، فعزله وأجلس مكانه محمد بن جهاندار باسم عالمسكير الثاني (١) .

ونجم عن خلاف هذا الوزير صاحب حيدر آباد مع زعيم الروهيلا نجيب الدولة ، أن بعث هذا الأخير إلى أحمد أبداً إلى شاه الأفغان يحرضه على الزحف إلى دهلي نفسها ، فاقتحمها برجاله عام ١١٧٠ هـ / ١٧٥٧ م وأنزل بها وبأهلها أضراراً فادحة ، ثم عاد إلى بلاده بعد أن ألقى بمقاليذ الأمور فيها إلى نجيب الدولة ونصب ابنه الأصغر تيمور شاه نائباً له بالبنجاب .

ولم يكن نظام الملك ليرضى بغلّ يده عن تصريف الأمور في دهلي ، فما إن فشل في اقتحام أوده والله آباد ، وكان أصحابهما على صلة وثيقة بنجيب الدولة ، حتى راح يستعين بالمرهتاء ، فخرضهم على مهاجمة قوات الشاه الأفغان في البنجاب ونجيب الدولة

في العاصمة وما حولها .

وأفلىح القائد آدينه بكخان في أن يطرد قوات أحمد أبداً من البنجاب بمعونته المرتها و يستخلص لنفسه من بعد ذلك لاهور وتما والمملتان التي خلفه السك عليها فيما بعد . ولم يكنف غازي الدين نظام الملك بطرد نجيب الدولة من العاصمة التي باتت تحت رحمة المرتها وقادتهم ، حتى أوفد رجاله فقتلوا عالمگیر الثاني وهو بحسن شاهجهان^(١) .

على أن نجيب الدولة مالبت بمعاونة حليفه شجاع الدولة بن صفدار جنگ أمير أوده ، أن دفع المرتها عن منازل الروهيلا ، ثم استنجد من بعد ذلك بالشاه الأفغانى لتخلصه من نظام الملك وحلفائه الذين لم يكن له قبيل بالقضاء التام عليه ، حتى لبى أحمد أبداً نداءه ونجح في طرد المرتها من البنجاب والشمال الهندى كله .

دحر المرتها عند پانى پُست : على أن عصابات الدكن هذه مالبت أن جمعت جموعها عقب انصرام فصل الأمطار فصار لها ثلاثمائة ألف من الجند ومعها ثلاثمائة من مدافع الميدان^(٢) الثقيلة .

١ — عبرتاه ٢٤١ - ٢٤٣

٢ — فرحة الناظرين : ١٧٠

زحف بها أمرؤها، وسواس راو وسداسيوها وسنديا، إلى دهلي ثم جاوزوها ليلتهن قوامن بعد ذلك بقوات الشاه الدراني عند پاني پت . ولم يكن شاه الأفغان بدوره في قوة تزيد على الثمانين ألف مقاتل، ومدافعها لا تبلغ العشرين، ولم يكن رجاله على دراية بطرائق الحرب الحديثة التي أتيج لفريق من جند المرهتة التدريب عليها بأيدي الفرنسيين بمستعمراتهم الدكنية : فأفادوا منها كثيراً في حروبهم . ونجح الأفغان آخر الأمر عام ١١٧٤ هـ / ١٧٦١ م في قطع المئون عن أعدائهم ليخوضوا معهم من بعد ذلك معركة عنيفة هدّت من كيانهم وضععت من نفوذهم بالهند . وبلغ من وقع في الأسر من رجالهم مائتي ألف وفيهم قائدهم سنديا الذي قُتل لوقته . ولم يقو زعيمهم الپيشوا بلاجى راو على تحمل هذه الصدمة حين بلغته أنباؤها، وهو في طريقه بالإمدادات عبر نربدا : فارتد إلى بونا حيث قضى نجه هناك بعد شهر ستة ^(١) .

البريطانيون في البنغال وبهار : لم يكن المنتصر في پاني پت هذه المرة هو الذي قدّر له أن يمسك بزمام الأمور في الهند كلها كما قدر لظهير الدين بابر حين قضى على السلطان إبراهيم اللودهى ولجلال الدين أكبر حين هزم الأمير الهندوكى هيمون

وجنوده من قبل ، فقد اضطر أحمد أبدالى شاه الأفغان ، بعد انتصاره الحاسم هناك ، إلى أن يعود إلى بلاده حين ثار عليه جنده لتأخر مرتباتهم وانتشار الأمراض والأوبئة الفتاكة فيهم بالهند ، ليمل ثقل الحدثان من بعد ذلك إلى ناحية الشرق حيث كانت شركة الهند الشرقية البريطانية قد غدت توطد أقدامها في البنغال وتحكم من خططها في الجنوب الهندى حتى تم لها القضاء على نفوذ الفرنسيين هناك ولمّا يكن قد مضى بعد أسبوع واحد على انتهاء معركة پانى پت ، لتبلغ من بعد ذلك بالتدريج إلى وضع يدها على شبه القارة الهندية كلها وتضمها فى قرن واحد من الزمان إلى أملاك التاج البريطانى .

ولقد وقعت أحداث پانى پت هذه وعرش دهلى خالٍ بعد مقتل صاحبه عالمكير الثانى وفرار ابنه على جوهر من وجه غازى الدين نظام الملك ، حيث لاذ بجلال الدين حيدر شجاع الملك نواب (١) أوده فى جلال آباد .

موقعة پلاسى : عن لعلى جوهر بن عالمكير الثانى وهو فى أوده أن يغزو البنغال ، وكان البريطانيون قد بسطوا نفوذهم عليه بعد

١ — كلمة نواب هذه تقابل لفظ راجا أو أمير ، فهي من ألقاب التشریف ، ولا يستلزم أن يكون صاحبها من أرباب المناسب .

أن تم لهم إخراج أميره سراج الدولة منه . وكان هذا الأمير قد
انزع كلكتا من أيديهم فلم يبلغوا إلى استردادها منه إلا بعد أن استمال
كلايف ، مدير شركتهم القائد جعفر خان إليه برشوة قدرها ثلاثة ملايين
من الروبيات ^(١) ضموا بها النصر على الأمير المغولي ومعه سراج
الدولة في معركة بلاسي ، في شوال من عام ١١٧٠ هـ / ١٧٥٧ م ،
تلك المعركة التي تعد أولى المعارك الحاسمة بين المستعمرين والدولة
في الهند (٢)

وكوفي جعفر خان على خيائته هذه بتنصيده حاكما على
البنغال تحت وصاية الشركة البريطانية .

وما غدا الأمير المغولي أن باع يتنا في مائة ألف من الجند ومعه
محمد قولي خان نائب ولاية الله آباد فالتقى مع ميران خان بن مير جعفر
وأحلافه البريطانيين في حرب كاد يتم النصر فيها لجند الدولة
لولا ما نجم عن نقص مؤنه من انسحاب جملة من الأمراء من
صفوفه ، فمنهم من آب إلى دياره ومنهم من استجاب لإغراء
الاعداء فانضم إلى قواتهم ، حتى اضطر الأمير إلى مهانة خصمه

بعد ما نزلت به الهزيمة ^(١) .
شاه علم :

في يتنا باغ الأمير على جوهر خبر وفاة أبيه
فنادى بنفسه سلطانا على الهند باسم شاه علم واتخذ شجاع الدولة
وزيراً له ثم آب إلى الله آباد فأقام بها .

وضاق البريطانيون ذرعاً آخر الأمر بجعفر خان وخذاعه ، حتى
إذا ما كشفوا عن تواطئه مع الهولنديين حين حاولوا إنزال بعض
قواتهم إلى البر ليحموا بها مصالحهم التجارية في شرق الهند ،
خلعوه بحجة تقدمه في السن وربطوا له معاشاً ثم أقاموا مكانه
زوج ابنته الأمير على قاسم .

وما لبث حاكم البنغال الجديد أن رفض بدوره أن يسير على
هوى المستعمرين ، حتى عارضهم في رفع المكوس جملة عن
بضائعهم ، وكان الإيعاء في الأصل وفقاً على ما يصل منها برسم

١ — كان الأمير المنولي قد جعل من كلاف ، مبعوث الشركة البريطانية وقائد قواتها .
بعد معركة بلاسي ، فأنداً خمسة آلاف من الفرسان ، حين طلب إليه الانضمام إلى قواته
في محاربة ميرجعفر بالبنغال ، بوصفه من قواده ، اعتذره بتعاقفه مع أمير البنغال
على رسم البريطانيين في الدهاء والخذاع الاستعماري . Dunbar 345 .
وم تزد قوات البريطانيين في هذه الموقعة على أربعة عشر وخمسين رجلاً مع ألفين
وخمسة مائة من أهل الهند ، لكن أسلحتها الحديثة وتحسن تدريبها ودهائها كفّل لها
النصر بطبيعة الحال .

أعضاء جاليتهم الخاص، حتى وضع يده عنوة على يتناو ما به من مصانع لهم.
 موقعة بـكـسـر : حين قدمت قوات المستعمرين من كلكتا
 فأطبقت على يتنا، اتخذ على قاسم، بعد هزيمة، سيده إلى نواب أوده
 فلاذبه. وقد أوقع بهما البريطانيون عند بكسر أواخر عام ١١٧٧ هـ /
 ١٧٦٤ م ثم دخلوا الله آباد ولكنو وجنار (١).

وفي هذه الواقعة استسلم للبريطانيين شاه علم فتنازلوا له عن الله آباد
 وما حولها وضمنوا له معاشا سنويا قدره مليونان وستمائة ألف من
 الروبيات على أن يطلق أيديهم في جمع الخراج بالبنغال وبهار
 وأوريسه (٢)، وبعبارة أصح: على أن يعترف لهم في الواقع
 بسلطانهم على هذه الأقاليم. كذلك ردوا لشجاع الدولة أغلب
 أراضيها على خمس ملايين من الروبيات يدفعها لهم.

المرهت في دهلي: لبث شاه علم بـقيم في الله آباد على وعود متكررة من
 البريطانيين بتيسير عودته إلى دهلي، ولكنهم لم يوفوا له بشيء منها أبداً.
 هذا؛ وكان أحمد شاه أبدالي قبل أن يعود إلى بلاده بعد
 انتصاره في پاني پت قد اعترف بعلم شاه سلطاناً على الهند، على أن
 يعهد بالوزارة إلى نظام الملك وبشئون المال والخراج إلى نقيب الدولة،

١ — حادثة الأقاليم ؟ .

وفي خاطره أن هذا الوضع سيكفل إقرار أمور الدولة هناك .
على أن نجيب الدولة تأتي له إبعاد خطر المهرتها ونظام الملك عنه ،
لينفرد من بعد ذلك سنوات تسعاً بشئون الحكم في دهلي والسلطان في
منفاه بالشرق . وتمكن هذا الزعيم الأفغانى خلال ذلك من القضاء على
فتنة السك ، على كثرة عددهم بالبنجاب ، لكن تهديد الجات له وزعيمهم
سورج مل ثم ابنه جواهر سنغ من بعده أدى به إلى التفكير في
الاستعانة بالمرتها لدفع خطرهم عنه .

ونجم عن وفاة نجيب الدولة تخرج الحال في العاصمة ، حتى بات
الناس يتوقعون سقوطها في أيدي المرتها أو السك بين يوم
 وآخر . هنالك حزم شاه علم أمره فاتفق مع المرتها على أن يادروا
بدخول المدينة باسمه فيسلموها له من بعد ذلك على أربعة ملايين
من الروبيات يدفعها لهم في أوقات مرسومة . وبهذه الخطة
انقذ السلطان على الأقل سكان المدينة من تعرضهم لمذابج السك
لوكانوا قد أتيح لهم الاستيلاء عليها . ^(١)

وصادفت خطة شاه علم هذه قدراً كبيراً من التوفيق والنجاح
ليكتشف - من بعد ذلك ببضع سنين - أنه لم يتخلص من أيدي

١ — حافظ المرتها دواما على تقاليدهم حتى في أيام تفككهم فلم يقرءوا قتل
السكان الآمنين على ما أشرنا إليه من قبل .

البريطانيين ويفر منهم إلا ليقع في براثن المرهتها .
فقد قدر أن يفيد من عون المرهتها له ، دون خطر كبير
عليه منهم . بعد أن كُسر شوكتهم في پانی پت ، فيحقق لنفسه بذلك
الاستقلال الذى ينشده بعيداً عن البريطانيين ونفوذهم . وهو
بعد في مقامه الجديد سيصير له من دخل الأراضى التابعة لدهلى
ما يعوضه عما كان يدفعه البريطانيون له ، ثم منعه عنه فيما بعد .
وهكذا سار شاه علم إلى دهلى فدخلها في سبتمبر عام ١٨٥١ هـ /
١٧٧٢ م برغم معارضة أغلب أتباعه الذين كانوا يؤثرون البقاء
بإقليم الله آباد أرغد عيشاً وآمن مقاما . وقد وجد في وزيره الفارسى
ميرزا نجف خان ذوالفقار الدولة خير معين ، حازم وناصح أمين طوال
الإثنى عشر عاماً التى قضاه فى منصبه حتى وفاته . فقد دفع هذا الوزير
عن الدولة خطر السك بعد أن هزمهم واسترد منهم آگرا ، كما كسر
شوكة الروهيلات الأفغان بتحالفه مع البريطانيين وشجاع الدولة نواب
أوده عليهم ، حتى أصبحت الدولة تمارس نفوذها ممارسة تامة فيما
بين ستاج وسنبهل . كما استردت قدراً من مهابتها السابقة التى غابت
عنها سنين طويلة من قبل .

وقضى نجف خان ليودى القحط الشديد الذى نزل بمنطقة دهلى
من بعد ذلك عام ١٧٨٢ م فأهلك ما يقرب من نصف السكان ، إلى

اضطراب اقتصاديات الدولة ، حتى عجزت عن الاتفاق على الجبش
القوى الذى أنشأه ذلك الوزير الحازم ، فداد به عن أراضيها
غويلا ، فانصرف عنه كثير من الأمراء والقادة إلى بلادهم .

وأدى تنافس رجال الدولة فيما بينهم إلى استنجد خلفه الوزير
أفراسياب بمادهوجى سندهيا زعيم المرهتها ، بعد أن أخفق السلطان
فى الاتفاق مع البريطانيين على مساعدتهم له وفق شروطه ، ليجمع
هذا الزعيم المرهتهى من بعد ذلك مقاليد السلطة كلها فى يده بوصفه
نائباً للسلطان ، ويجعل من همت بهادر أحد رجاله وكيلا مطلقا بالدولة
وتعرض سندهيا لعدة ضربات فى الراجپوتانا والدواب ،
كما اقتحم دهلئ فى غيبته غلام قادر خليفة نجيب الدولة على الروهيلا
منتصف عام ١٢٠٢ هـ ١٧٨٧ م وقبض على شاه علم وسمل
عنيه ثم نادى بابنه بدار بنخت مكانه (١) .

وتم للزعيم المرهتهى آخر الأمر على كل حال تثبيت أقدامه فى المنطقة كلها
من جديد بفضل ضباطه الفرنسيين الذين أزروا البندوات راو من بعده
كذلك حتى دفع البريطانيين عن بلاده ، ليقبلوا من جديد عام ١٨٠٣ م
يقودهم قائدهم ولسلى فيجتاحوا أراضي المرهتها كلها ويقوضوا
سلطانهم ويدخلوا دهلئ .

الأحتلال البريطاني

طرْد المنافسين :

أخذت بعوث البريطانيين التجارية تفد إلى الهند منذ بداية القرن السابع عشر الميلادي ، ولم يثبط من عزيمة رجالها ما بذله البرتغاليون من جهود متواصلة عند سلاطين الدولة المغولية ليحولوا دون منافستهم لهم بهذه البلاد . وما لبث هؤلاء البريطانيون ، بما اشتهر عنهم من الدهاء وسعة الحيلة ، أن صرحت الدولة لهم بإقامة وكالات تجارية ^(١) عند سورات ، في الغرب وهو جلى في الشرق ، ثم ما زالوا يتقربون من بعد ذلك إلى سلاطين الهند حتى عاونوهم في حربهم للبرتغاليين عند الشواطىء الشرقية ، كما دفعوا المرهتها كذلك عن بعض الموانئ الهندية

١ — كان التجار الانجليز يمانون كثيراً من المشقة في إخراج العملة الفضية من بلادهم ليدفعوا ثمن التوابل التي كانوا يشترونها من جزر الهند ، حتى احدثوا إلى إقباة تجار البهار على منسوجات الهند ، فسعوا بدورهم إلى إقامة وكالات تسج لهم بالهند . هذا كما كانوا يحملون كذلك إلى الهند من بلادهم أدوات الترف فيحصلوا نظيرها على ما يبتغون من منتجات هذه البلاد بتقديرهم .

الغربية ؛ ونال البريطانيون ، إثر كل عون قدموه للسلطين ، مزيداً من الامتيازات حتى بلغوا من الثراء والقوة واتساع النفوذ ما مكنهم من شراء بمباى نفسها من البرتغاليين وتوسيع رقعة أراضيهم عند كلكتا ومد نفوذهم إلى مدراس وما يليها جنوباً .

ولم يطق البريطانيون بطبيعة الحال منافسة الفرنسيين لهم بعد ما كسروا شوكة البرتغاليين وأحبطوا كل محاولة قام بها الهولنديون لتثبيت أقدامهم عند بعض شواطئ الهند

وكان الفرنسيون قد بلغوا ، بتدبير دوبليكس ، مدير الشركة الفرنسية الهندية ، ودهائه ، إلى مزيد من النفوذ في الدكن وجنوب الهند . فقد استطاع هذا الداهية الفرنسي أن يدرّب بعض جنود إمارة حيدر آباد الدكنية وفريقاً من قوات جنوب الهند على أساليب القتال الحديثة وخططه حتى صار الحاكم النفعي لكافة الأراضي الواقعة إلى الجنوب من نهر كرشنا والموجّه لدفة الحكم فيها من وراء ستار .

وحين نشبت حرب الوراثة النمساوية عام ١٧٤٠ م وتحارب فيها الفرنسيون والبريطانيون بأوروبا ، بادر دوبليكس بالهند إلى اجتياح مدراس والاستيلاء على كثير من مراكز البريطانيين عند الشواطئ الشرقية ؛ وما لبث البريطانيون أن استردوا

مراكزهم السابقة كلها بعد هذه الحرب ، إذ أفلحوا ، بدسائسهم بالعاصمة الفرنسية ، في حمل لويس الخامس عشر على استدعاء دوبليكس ، وبذا خلا لهم الجور ، حتى قضوا على كل نفوذ للفرنسيين بالهند وانتزعوا منهم كل أراضيهم إلا ميناء پُندشيري وبعض أماكن أخرى صغيرة متفرقة بالهند

واصطنع البريطانيون طرائق دوبليكس الاستعمارية الفذة ، فانطلقوا يخضعون هذه البلاد الواسعة بجند من أبنائها وأموال من أموال أهلها .

وما لبث هؤلاء المستعمرون أن ثبتوا أقدامهم بالبنغال وأودعوا على أثرائهم الحاسم في معركة بلاسي وبكسر ، وأبرهوا عام ١٧٦٦ م معاهدة مع نظام حيدر آباد تعهد فيها الطرفان بتبادل المعونة والمساعدة عند تعرض أحد منهما للعدوان .

سلطان ميسور : هدف اتفاق البريطانيين مع نظام حيدرآباد في الواقع إلى الحد من أطماع حيدر على أمير ميسور عند الجنوب الغربي من الهند . واضطر هذا الأمير بدوره إلى قبول مهادنة الشركة البريطانية آخر الأمر عام ١٧٦٨ م وذلك بضغط من قواتها وقوات النظام . غير أن صاحب ميسور هذا ما لبث أن استولى عام ١١٩٥ هـ / ١٧٨٠ م على كرناثا كلها عند شاعلي .

كوروماندل . وخلفه ابنه تيبو فاشتبك في حروب متواصلة مع البريطانيين عدة سنوات . وما إن هادنوه عام ١٧٨٤ م ، حتى عقد العزم على أن يبدأ بضرب المرهبا ونظام حيدر آباد ليتفرغ من بعد ذلك للبريطانيين ويخرجهم من جنوب الهند كله ، وفي حسابه أن فرنسا سوف تستجيب لاسئدجاده بها . غير أن رؤسله عادوا من باريس وليس في جمعيتهم سوى عبارات التشجيع والإغراء (١) .

على أن أعداده ما لبثوا أن أجمعوا عليه آخر الأمر خاضروه في حاضرتة سرنجاتم عام ١٧٩٢ م، يقودهم كورنواليس قائد شركة الهند البريطانية، حتى أرغموه على مهادنتهم وقبولة التنازل لهم عن نصف أراضيها .

وقوت انتصارات نابليون بونابرت بأوروبامن عزمة تيبو ، وأصاب الفرنسيون بدورهم قدرا جديدا من التوفيق بالهند كذلك ، فاسترجعوا بعض نفوذهم في حيدر آباد وعقدوا أواصر الصداقة مع أمير ميسور واضطلعوا بتنظيم جيوش هاتين الإماراتين وتدريبها . على أن القائد البريطاني ولزلى توصل بدهائه إلى القضاء على النفوذ الفرنسي من جديد واسترجع أميرها إلى حظيرة الشركة .

حتى إذا ما وجد من تبيد الإصرار على تمسكه بالضباط الفرنسيين في جيشه وتحالفه مع فرنسا ، سار إليه من مدراس فاقترح عليه حاضرتة في قتال عنيف سقط فيه السلطان الميسوري وهو يقاتل . وبهذا قضى البريطانيون على آخر أمير مسلم قوى وقف في وجههم بالهند في إصرار وإيمان وعناد .

وأُتيح للبريطانيين بالتدريج بسط نفوذهم على أهم مراكز الجنوب ، وعملوا على تأمين طريقهم إلى الهند فوضعوا أيديهم على جزيرة سيلان عام ١٧٩٧ م بعد أن كان الهولنديون يربطون في بعض شواطئها ، كما انتزعوا من الهولنديين كذلك رأس الرجاء الصالح بعد أن تم لهم إجلاء الحملة الفرنسية عن مصر ، تلك الحملة التي كان نابليون يبغي بها الوصول إلى الهند وإخراجهم منها ، وأجبطوا في الغالب كل خطط للفرنسيين والروس بغوا من ورائها عزلهم عن الهند وانتزاعها من أيديهم .

حرب المراهمة : أفاد البريطانيون من شيوع الانقسام بين المراهمة فاشترؤا زعماءهم في ناجبور والكجرات بالرشاوى ، ليتفرغوا من بعد ذلك إلى يتي سندهيا وهو لكر ، أقوى طوائفهم ، فاجتاح هستنج أقوى حصون سندهيا في گواليار

عام ١٧٨٠ م وأنزل به هزيمة شديدة ركن من بعدها المرهتها عموما إلى السلام وها دنوا أعداءهم .

هذا : وكان قد تم لدهو جى سندهيا بسط نفوذه على دهلى ، على ما بيناه من قبل ، وهزم الراجپوتين ، كما مد نفوذه على كافة أراضى المرهتها القديمة حتى بونا عاصمتهم القديمة ، ليخلفه من بعد ذلك ابنه دولت راو عام ١٧٩٤م على هذه الأراضى كلها .

وكان أن دعى الپيشوا باجى راو البريطانيين إلى شد أزره بأزاء خصومه فى بونا ، فقدموا من فورهم إليه ودخلوا معه المدينة ليعقدوا معه عام ١٨٠٣ م معاهدة بَسِيْنُ التى أعترف لهم فيها بسيادتهم .
وحين ثار زعماء سندهيا وبهونسلا على هذا الدخلى الأجنبى .
خاضوا مع البريطانيين غمار معارك عنيفة عند آسای انتهت بهزيمتهم وخضوعهم لشروط الشركة البريطانىة ودخول البريطانيين دهلى وضياع أملاك سندهيا عند الشمال والشرق من جمنه ، وانتقالها وكافة الأراضى الواقعة بين السكنج وجمنه وإلى الغرب منها إلى أيدي المستعمرين .

وكان أن ترك البريطانيون بعض الأراضى بأيدي المرهتها فعانى الراجپوتيون على الخصوص كثيرا من الأذى على أيديهم وكان فى حسابهم أن أصحاب الشركة سوف يحمونهم من شرورهم .

وحين استشرى خطر عصابات الهندارى المرهتية فى إقليم بهار بصفة خاصة ، جرّدت الشركة كل جيوشها لتجهز عليها جميعا ، حتى استسلم لها كل زعمائها عام ١٨١٧ م فسمحت لفريق من عنغارهم بلزوم بعض إمارات فى مالوه والسكجرات . وقد سارع الراجپوتيون بدورهم إلى التحالف عندئذ مع البريطانيين فلم يخوضوا معهم حربا جماعية أبدا (١) .

حرب الأفغان : كان من أثر هزيمة روسيا لفارس عام ١٨٢٨ م أن عظم نفوذها فى تلك البلاد حتى حملت حكومتها على التعاون معها لمد نفوذها كذلك إلى أفغانستان (٢) باب الهند إلى سهول الهندكج .

وحين تبين لبريزم مبعوث الهند البريطانى بكابل حرج موقف دوست محمد شاه الأفغان بأزاء نشاط مبعوث الروس الداهية فينسكو فثش حتى اضطر إلى مصانعته برغم ميله للزوم الحياد التام ،

١ -- Dunba 438

٢ — اطلاق « بلاد الأفغان » على الإقليم الذى يعرف بهذه التسمية اليوم ، هو من اصطلاح العصور الحديثة ، ومن باب تعميم الجزء ، على الكل ، فنأزل الأفغان همى إلى الجنوب من طريق كابل — بشاوره . أما سكان كابل وغزنه ولغان فيهم خليط من عناصر العرب والفرس والترك . Ikbal Ali Shah. Afghanistan

تتقد أوكلاند مدير الشركة الهندية العزم على الزحف إلى أفغانستان
وفي صحبته أمـيرها السابق الشاه شجاع الملك الذي كان
قد طرده دوست محمد فليجاً إلى رنجيت سنغ أمير البنجاب .

وكان هذا الأخير قد باع بقومه السك إلى انتزاع هذا الإقليم
من الأفغان ، ثم آثر أن يهادن البريطانيين حين دخلوا دهلي ومدوا
نفوذهم إلى مشارف سـتالـج .

وتم للبريطانيين إجلاس شجاع الملك على عرش كابل من
جديد حتى يضمنوا بذلك القضاء على دسائس الروس وإبعاد
نفوذهم عن حدود الهند .

على أن الأهليين ما لبثوا أن ثاروا عليهم في العاصمة ثورة عارمة
أرغمتهم على التسليم بعودة دوست محمد إلى مقامه القديم وإخلاء
المدينة من قواتهم ، لتنزل بهم من بعد ذلك كارثة بشعة وهم
يتراجعون بين ثلوج الطريق وضربات رجال القبائل على الجانبين ،
فلم ينج من حملتهم التي كانت تضم عشرين ألف رجل إلا شخص
واحد هو الطبيب العسكري بريدون (١) الذي كتب له أن
يباغ جلال آباد حيث كانت تنزل حامية عسكرية بها .

ورجع البريطانيون من جديد إلى أفغانستان في حملة انتقامية.

قدمت من قندهار و جلال آباد فوجدت الأهاليين في كابل قد قتلوا
شجاع الملك ، و نادوا بابنه فتح جنك مكانه .

على أن إرادة الأهاليين كانت أقوى من عنف الغزاة و أسلحتهم ،
فما لبث البريطانيون أن اُرغموا على الرجوع ثانية عن أفغانستان
بعد أن عاهدوا أميرها دوست محمد عام ١٨٤٣ م على احترام حدوده .
وبقي شاه الأفغان محافظا على عهده مع البريطانيين محافظة
تامة حتى بعد كل البعد عن المشاركة في ثورة التحرير التي نشبت
بالهند عام ١٨٥٧ م بزعامة فريق من المسلمين و كادت تنتهي إلى
طرد المستعمرين منها .

وقد باءت بالفشل كل المحاولات التي بذلها البريطانيون لطى
بلاد الأفغان تحت نفوذهم . ولم يكن مصير الحملات التي قادها
اللورد روبرتس عامي ١٨٧٨ ، ١٨٧٩ م فدخل بها كابل بأحسن
حظا من حملات أوكلاند سالفة الذكر . فعلمت أبناء القبائل الأفغانية ،
من الأفريدي و المحسودي و الوزيري ، ببسالتهم و ضراوتهم في
القتال ، البريطانيين كيف يحترمون مشيئة الأحرار الذين رفضوا
على الدوام كل ما كان يعرض عليهم من مغريات مادية لقبول
المستعمرين ببلادهم (١) .

إخضاع السِّك والبُلُخ : تذرع البريطانيون بحروبهم الأفغانية لإخضاع السند بلاد البلُخ لسلطانهم ، كما انتهزوا كذلك فرصة إعتداه السِّك على بعض مناطقهم بعد موت أميرهم ونجيت سنغ ، فما زالوا يطاردونهم حتى أنزلوا بهم هزيمة قاصمة بالكُجرات عام ١٨٤٩ م (١) ضموا من بعدها كشمير والپنجاب كله إليهم ، وجردوا قوات هذه الطائفة من أسلحتها وصرفوا رجالها للعمل في المزارع .

وكان السِّك والغوركها أبناء نيال ، التي لم يخضع المستعمرون إلا بعضها ، خير محاربين اعتمد عليهم البريطانيون في كل الحروب التي خاضوها دفاعا عن امبراطوريتهم أو لالتهم أراضٍ جديدة . وبدخل البريطانيين على الدوام فيما كان يقع بين الأمراء من منازعات ، بالدس والوقيعة ، أفلحوا آخر الأمر في أن يضموا إليهم الإمارات الهندية التي لم يستولوا عليها بقوة السلاح .

وبات الأمراء الذين بادروا إلى محالفة هؤلاء المستعمرين من أول الأمر ، خُفِظت عليهم إماراتهم ، معدودين من أتباع

بريطانيا ، ومُنَعُوا من ممارسة أى نشاط سياسى أو إدارى دون مشورة مستشاريهم البريطانيين الذين كانوا فى الواقع أصحاب السلطان المطلق فى هذه الأراضى .

وفُرض على أمثال هؤلاء الأمراء أموال كثيرة يدفعونها للشركة نظير حمايتها لهم ودفاعها عن أراضيهم ، وحين كان يعجز أحدهم عن الدفع أو يتوقف ، كانت الشركة تبادر بالاستيلاء على أراضيه لتفرض على سكان إمارته ما تُلزم به غيرهم فى أملاكها من ضرائب الأرض الباهظة ، حتى اضطر الكثيرون منهم إلى بيع أولادهم لسداد ما كانوا يُلزمون به ، فعانى الملايين من أهل الهند أفظع ضروب القسوة والطغيان وعاشوا فى شقاء لم تعرفه الإنسانية فى أحلك عصورها (١) .

خاتمة سلاطين الدولة المغولية :

لم يقرر غزو نادرشاه الفرس ولا غزوات أحمد أبدالى ، شاه الأفغان . المتكرر للهند مصير الدولة المغوية بقدر ما قررته معركة بـِـكـِـنـِـر عام ١٧٦٥م ببهار . فـُـطـُـوت بانتصار البريطانيين فيها على شاه علم السلطان التيمورى ضجة الحكم الإسلامى فى الهند .

ولم يكن البريطانيون ليركوا شاه علم يزع من مقامه بالله آباد ، حيث كان يعيش على المال الذى ربطوه له ، إلى كنف المهرتها بدهلى إلاّ ليضيقوا الخناق عليه وعلى حلفائه من بعد ذلك ، وقد باتوا على يقين ، تام من قرب وقوع شبه القارة الهندية كلها بأيديهم وخلاصها لهم بعد أن تم لهم هناك القضاء على نفوذ الفرنسيين أخطر منافسيهم وأقواهم ، وما تكشف لهم عن عجز قوات الهند الكثيرة على الوقوف أمام قواتهم ، على قلة عددها ، لحسن تدريب رجالها وما بأيديها من أسلحة حديثة لا تعرف الهند لها نظيرا . حتى واجهوا . وعدددهم مع حلفائهم من الوطنيين خمسة آلاف رجل ، عشرة أضعافهم فى معركة بيسكسر سالفة الذكر ، فانتصروا عليهم انتصاراً حاسماً لم يسكفهم أكثر من عشرين قتيلاً وبعض الجرحى .

ولئن كان شاه علم يذكر للمهرتها أهم أعانوه على العودة إلى دهلى ونظروا إليه فى الغالب نظرتهم إلى أحد حلفائهم حتى سارعوا إلى إنقاذه من بين برائن الشائر الروهيلى غلام قادر ، فى حين أعرض كورنوالث مدير الشركة البريطانية عن نجده فى محنته مع هذا الزعيم الأفغانى ، وضيق عليه البريطانيون ، من قبل ، فى الله آباد بعد أن هزموه فى بيسكسر ، فإنه على كل

حال كان يداعبه الأمل في أن تنتهى الحرب بين
المرهتها والبريطانيين ، إلى إنهاك قواهما معا ، حتى يخرج
المنتصر منهما وهو أميل إلى سلوك طريق المودة معه . وعلى هذا
الرأى حرص كل الحرص على دوام اتصاله بالفريقين المتحاربين
وإعلان تأييده لكل واحد منهما على حدة في نفس الوقت .

على أن البريطانيين ما لبثوا حين دخل قائدهم ولسلى مدينة دهلي
عام ١٨٠٣ م أن انفردوا بالأمر كله فيها ، فلم يلتفتوا إلى السلطان
إلا ليرتبوا له معاشا لم يزد على ما كانوا قد أجروه عليه في
الله آباد من قبل .

أكبر شاه الثانى :

لم يكن للسلطان وأعضاء أسرته ما يقلقهم في ظل الحكم
البريطانى إلا ضالة مارتب لهم من مال أصبح لا ينفق
بنفقاتهم (١) ، وإن وجد بخزائن شاه علم بعد وفاته ما يزيد على
المليون من الروبيات كان قد أدرها .

و حين فضى شاه علم قبيل أواخر عام ١٨٠٦ م بعد أن جلس على
العرش خمسة وأربعين عاما ، خلفه ثانى أبنائه أكبر شاه الثانى ،
ليقضى حياة يغلب عليها الخمول والضعف حتى عدل اللورد هاستنجز ،

حين خلف واسلى على إدارة الشركة الهندية ، عن تصدير أوامر شركته ونشراتها بإرادة السلطان ، ورفع عن خاتمه كذلك الرسم التقليدى الذى يصفه بأنه خادم السلطان المخلص ، بل لقد رفض فى لقائه له أن يخضع للراسم التى لم يكن الحكام البريطانيون من قبله يجدون غضاظة فى ممارستها . ولم يكتف بذلك حتى حرص نواب أوده على أن ينادى بنفسه سلطانا (١) ، واحتضن رام موهان رو صاحب جمعية براهما سماج الذى راح يدعو مُجِدِّداً إلى القضاء على بيت التيموريين فى الهند (٢) .

بهادر شاه الثانى:

وخلف أكبر الثانى ابنه بهادر شاه الثانى عام ١٨٣٧ م ليعيش بدوره على الرزق الذى كان يجريه البريطانيون على أبيه ، من قبل ، بعيداً عن كل نشاط سياسى أو مشاركة فى الحكم ، فلم يكن يلقى باله إلا معارضة المستعمرين له فى اختياره لولى عهده وعدم استجابتهم لشكواه من ضآلة معاشه الذى كان يراه لا يكتفى

١ — Dunbar. 431

٢ — راح هذا الزعيم ، بتأثير حركات الإصلاح الدينى السابقة فى الغالب ، يدعو إلى توحيد ديانات الهند فى دين واحد يعبد إلهاً واحداً هو براهما ، دوت تعمده فى آلهة أو الطبقات أو الزوجات ، وينكر كل العادات الهندية القبيحة كالساتي وزواج الأطفال وغيرها .

لحفظ مظاهر الأبهة اللائقة بأمر تيمورى .

وبقيام الثورة الوطنية الكبرى ، التى يعرفها البريطانيون بثورة السباهى أو العصيان ، عام ١٨٥٧ م انتهت أيام بهادر شاه على عرش الهند ، وطُويت صفحة السلاطين الباريين أبناء تيمورلنك بالهند كماها .

الثورة الوطنية :

هذه الثورة العارمة التى كادت تقضى على كل نفوذ للبريطانيين فى الهند كلها ، والتى كان مبعثها عسف الشركة البريطانية واستنزافها لثروات البلاد وإفقار أراضيها الخصبة ، لاسيما فى الشمال ، نشبت فى وقت واحد بالبنغال ودهلى وجونپور والبنجاب . أما أخطر أدوارها فقد بدأ بالبنغال حيث الجيش الذى كان يعتمد عليه هؤلاء المستعمرون فى حفظ النظام بالهند ، وكان قوامه أكثر من مائة ألف مقاتل فيهم عشرون ألفا من البريطانيين . وقد بنى الثائرون خططهم على أن يسارع البريطانيون عندئذ إلى استدعاء كل قواتهم المنتشرة فى الهند إلى البنغال فيخلو لهم الجو بذلك ويشتوا أقدامهم ويجمعوا شملهم من جديد . فلا يتمكن المستعمرون منهم بعد ذلك أبدا .

وعرف المتزعمون للثورة كيف يشيرون ثائرة جند البنغال ،

يُكَّانُ أَغْلَبُهُمْ مِنَ الرَّاجِئِيَّاتَيْنِ وَالْبَرَاهِمَةِ ، حِينَ انْطَلَقُوا يَلْقَوْنَ فِي رُوعِهِمْ أَنَّ الشَّرْكَةَ تَعْتَزِمُ تَسْيِيرَهُمْ إِلَى خَارِجِ الْهِنْدِ لِحَرْبِ بُورْمَا ، يُؤْمَرُ الَّذِي يَتَنَافَى وَعَقَائِدُهُمُ الَّتِي تَعُدُّ كُلَّ مَنْ يَغَادِرُ مَوْطَنَهُ خَارِجًا عَلَى طَبَقَتِهِ مَنبُودًا . كَمَا نَبَهُهُمْ كَذَلِكَ إِلَى مَعَالِجَةِ الْبَرِيطَانِيِّينَ لِأَسْلِحَتِهِمْ وَنَجْمَاتِهِمْ بِشَحْمِ الْخَزِيرِ وَدُهْنِ الْبَقَرِ الْمُقَدَّسِ ، وَدَسَّهُمْ هَذِهِ الْكَذِبَاتُ فِيمَا يَقْدُمُونَهُ لَهُمْ مِنَ الطَّعَامِ ، بَلْ إِنَّهُمْ كَذَلِكَ قَدْ عَقَدُوا الْعَزْمَ عَلَى حَمْلِهِمْ قَسْرًا عَلَى اعْتِنَاقِ النُّصْرَانِيَّةِ بِأَيْدِي مُبْشِرِيهِمُ الَّذِينَ جَلَبَوْهُمْ لِتَحْقِيقِ هَذَا الْغَرَضِ ، وَهَاجَمُوا يَقْفَلُونَ فِي وَجُوهِهِمْ بَابَ التَّرَقِّيَةِ حَتَّى إِلَى أَصْغَرِ رَتَبِ الْقِيَادَةِ فِي الْجَيْشِ ، وَهُوَ مَا لَمْ يَمْنَعَهُ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ مِنَ السَّلَاطِينِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ .

وَانْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ فِي دِهْلِي ، يَقُودُونَ الثَّوْرَةَ ، بِزُعَامَةِ بَعْضِ أَوْثَرِ السَّلْطَانِ وَفَرِيقٍ مِنَ الزُّعَمَاءِ الْأَفْغَانِ الْمُحْلِيِّينَ وَمَعَهُمْ حَامِيَةُ مِيرَوْتِ الشِّمَالِيَّةِ الَّتِي انْضَمَّتْ إِلَى صَفْوَتِهِمْ ، وَفِي خَطَّتِهِمْ أَنَّ يُخْرِجُوا الْمُسْتَعْمَرِينَ مِنْ بِلَادِهِمْ وَيُعِيدُوا لِلْمُسْلِمِينَ سَابِقَ سُلْطَانِهِمْ بِالْهِنْدِ . وَمَا غَدَا الْمَرَهْتَا فِي جُونِپُورِ أَنْ نَزَعُوا بِدَوْرِهِمْ إِلَى الْعَصِيَانِ بِزُعَمَائِهِمْ أَمِيرِهِمْ نَانَا صَاحِبِ الَّذِي كَانَ وَفَرِيقٍ مِنْ رَجَالِهِ قَدْ حُدِّدَتْ إِقَامَتُهُمْ هُنَاكَ ، كَمَا انْطَلَقَتْ الشَّائِعَاتُ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ بِزَحْفِ الْبُرُوسِ وَالْفَرَسِ وَالْأَفْغَانِ لَشَدِّ أَرْزِ الشُّوَارِ ، حَتَّى أُصِيبَ

البريطانيون في بدء الثورة بخسائر كثيرة وهزائم متكررة في أماكن عديدة (١) .

على أن المستعمرين ما لبثوا أن أقروا الأمور في البنجاب بهمة قائدهم لورنس وحسن تديره، لينطلقوا من بعد ذلك ومعهم حلفاء من السك، والغوركها وقوات نظام حيدر آباد فيقضوا على الثوار بكل مكان في قسوة بالغة وعنف، ويقصفوا بمدافعهم دهلي، ثم يدفعوا بالسلطان المغولي الشيخ، وهو في الثانية والثمانين من عمره، إلى محاكمة صورية أدانوه فيها بدعوى وقوفه وراء ولده محمد بنخت خان وبرزوا مغول في تزعمهما للشوار، ومسئوليته عن مقتل تسع وأربعين من البريطانيين بدهلي، وثورته على الحكومة البريطانية بوصفه أحد رعاياها، وإعلانه الحرب عليها ومناذاته بنفسه ساطانا على الهند .

هذا؛ والثابت المعروف أن أحدا من السلاطين المغول، منذ أن صار شاه علم في قبضة الشركة الهندية، لم يقبل الاعتراف بالحماية البريطانية أبداً، كما أن بهادرشاه نفسه لم يكن له أى مشاركة في هذه الثورة حتى اعتذر لزعمائها بفراغ يده من المال، وأنه ليس له جيش أو قوة يقدمها لهم، ولم يكن له بالتالى علاقة بلمصمة

صغيرة وُجدت أثناء الثورة على حائط المسجد الجامع وبها نداء منسوب إلى شاه الفرس يدعو فيها المسلمين إلى تناسي خلافاتهم وتوحيد صفوفهم حتى يُقبل لنجدتهم (١)

قضى البريطانيون في هذه المحاكمة عام ١٨٥٨ م على السلطان المسن بهادر شاه بنفيه مع أفراد أسرته إلى رانچون ، وأعلنوا من بعد ذلك ضم شبه القارة الهندية كلها إلى امبراطوريتهم. تمارس الحكومة البريطانية حكمها بنفسها حكما مباشرا . وعوضت الشركة الهندية عن إبعادها عن شئون الحكم بمبالغ طائلة وتعويضات سخية جعلت دينا على الهند ، هي وكل النفقات التي أنفقتها بريطانيا في حروبها الأفغانية وحروب بورما بدعوى تأمين حدود الهند والمحافظة على سلامتها .

وراح الحكام البريطانيون في الهند يذيعون بدورهم على الدنيا ما يبذلونه من جهود للنهوض بهذه البلاد وترقيتها ، ومنها إنشاء الطرق الحديدية وتوسيع رقعة الأرض الزراعية ونشر الحضارة الأوروبية . ولم يكن هدفهم من وراء ذلك كله في الغالب

Spear pp 200, 222, 28 — ١

هذا وقد اتهم بعض الباحثين البريطانيين بعد مضي ستين عاما على هذه الثورة بـ « السلطان الشيخ من كل ما نسب إليه ، ويدل على أن الشركة هي التي ثارت قانونا على السلطان وليس هو عليها .

الإتنظيم ابتزاز ثروات هذه الأرض الواسعة الغنية ، حتى كانت منتجاتها تنقلها في كل عام أكثر من عشرة آلاف سفينة ، معظمها بريطانية ، لتبيعها بريطانيا في أسواقها بخمسة أضعاف أثمانها أو يزيد ، فلا يعود من هذا الربح الوفير على أصحابه الأصليين ، سوى القليل ، وهم الذين دُفع بجباهيرهم ليزرعوا الأرض لاسادتهم على كفاف من العيش .

وأقام البريطانيون من جهاز حكمهم بالهند طبقة جديدة تُضاف إلى طبقات الهند وتعلوها جميعا ، حتى حرّموا على أهلها دهرًا طويلا مجالستهم أو مطاعمتهم أو مزاملتهم في سفر أو سمر .
قيام دولة باكستان :

نفى البريطانيون بها درشاه الثاني ، آخر السلاطين الباريين : من الهند بوصفه الزعيم الروحي لأهلها من المسلمين الذين رفضوا في الغالب الاعتراف بسلطانهم وأصغر زعمائهم وأبناء الطبقة المستنيرة منهم على معاداتهم وتأليب أهل هذه البلاد جميعا عليهم ، حتى أعان اللورد ألنبرو حاكم الهند البريطاني ، في صراحة نامة ، أن العنصر الإسلامي في الهند هو عدو بريطانيا الأصل وأنها السياسة البريطانية في الهند يجب أن تهدف إلى تقريب العناصر الهندوكية إليها لتستعين بهم في القضاء على الخطر الذي يهدد

بريطانيا في هذه البلاد (١) .

وعلى هذا المبدأ بطش البريطانيون بالمسلمين الذين قادوا الثورة الوطنية (العصيان) أكثر مما بطشوا بغيرهم من أبناء الطوائف الأخرى الذين شاركوا فيها ، فأقصوهم إقصاءً شاملاً عن كل وظائف الدولة التي كانوا يشغلون عدداً كبيراً منها ، وجهدوا في تقويض كل أوضاعهم الاقتصادية والثقافية . ثم اصطنعوا أبناء الطبقات الهندوكية المتوسطة في الوظائف الصغيرة فلا يتخطونها أبداً إلى المناصب الكبرى التي كانت جميعها ، في المسلمين المدني والعسكري ، وقفا على المستعمرين .

حتى إذا ما أصدروا قوانين التملك الزراعى ، الذى نظم للأوروبيين حقوق امتلاك الاراضى الكثيرة والضياع الواسعة بالهند ، صارت أغلب الاراضى التى كان المسلمون يمارسون زراعتها ، بمقتضى هذا القانون ، ملكاً لجباة الضرائب من الهنداكة .

١ . بلغ من عدا ء هذا الحاكم البريطانى للمسلمين أنه أمر بترغ بعض بوابات راجا بغزنه حين دخل البريطانيون أفغانستان بزعم أنهم أجزاء من معبد سومنات حملها محمود الغزنوى معه من الهند بعد أن خرب مصلى الهنداكة ، هذا أوائل القرن الخامس الهجرى . وحين حمل أنيرو هذه البوابات إلى الهند ، تقربا منه إلى الهنداكة وتذكيراً لهم بعدوة المسلمين ، اكتشفوا هناك أن هذه الأبنية هي من صنع سبكتكين أبى محمود الذى لم يخف حدود الهند في غزواته .

وانقلب زراعهم الأصليون الذين صودرت أراضيهم إلى أجراء عندئذ ولم يكشف هؤلاء المستعمرون بهذا كله بل طفقوا ينفون تاريخ الحكم الإسلامي بالهند ويظهرون سلاطين المسلمين وعما لهم بمظهر الطغاة . ثم انطلقوا من بعد ذلك يدعون الهنداكة إلى إحياء ماضيهم القديم قصد إثارتهم بذلك على مواطنيهم من المسلمين ، لينتجلى ذلك ، كله فيما بعد ، من مذابح رهبة متكررة بينهم وخلافات عميقة متواصلة شغلتهم جميعاً حيناً طويلاً من الدهر عن مناوئة الحكم البريطاني بالهند .

بعث اضطهاد البريطانيين المسلمين في الهند شعوراً قوياً فيهم بضرورة العمل على توحيد صفوفهم من جديد ورفع مغوياتهم وإصلاح حالهم ، حتى نهض السيد أحمد خان ، في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ، يفصح عن هذا الشعور إفصاحاً عملياً ، فرسم لقومه المنهج الذي يبلغ بهم إلى تحقيق نهضتهم : فنبههم إلى أن نفورهم من البريطانيين لا يعنى التزام العزلة والتخلف عن المشاركة في ركب الحياة الهندية ، وأن الاطلاع على المدنية الحديثة وعلومها واقتباس الصالح منها واجب على المسلمين لا يتعارض أبداً مع التفقه في أمور دينهم .

والتمسك بآداب الإسلام وتقاليده (١). ثم اتجه من بعد ذلك إلى البريطانيين يصارحهم بتبعاتهم ويؤكد لهم عدول المسلمين عن عدائهم لهم، حتى يخفف من حدة اضطهادهم لهم. إذ كانوا قد أبعدوهم إبعاداً شاملاً عن كل وظائف الدولة وطفقوا يغلقون أبواب الرزق في وجوههم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً — وبقيهم لهم الدليل على أن عسف شركتهم البريطانية وسوء إدارتها هو الذى أدى إلى ثورة الوطنيين عام ١٨٥٧ م

ولم يأبه السيد لاتهام بعض الرجعيين له بمالأة المستعمرين والمروق من الدين، فشمّر عن ساعد الجد في حزم وعزم وانطلق، يعمم إصلاحاته في أغلب نواحي الحياة الإسلامية ويدعو قومه إلى الاغتراف من علوم الغرب. وراح في مجاته تهذيب الأخلاق، ينقد أحوال المسلمين ويتقصى الأسباب التى أدت إلى زوال مجدع القديم، ويعرض لكثير من الموضوعات العلمية والسياسية والاجتماعية التى يجب على المسلمين الإحاطة بأهدافها والاشتغال بها والمشاركة فيها. ودال من خلال أبحاثه هذه على مرونة اللغة

١ — كان مما احتج به في هذا الشأن أن المسلمين حين شرعوا يشقون حضارتهم الكبرى لم يترددوا في دراسة كتب اليونان وسواهم من غير أهل الملة. فلا حرج على المسلمين بهذا من دراسة كتب الغرب وعنده بل هو واجب عليهم : حاضر العالم الإسلامى ٢٧١ — ٢٧٢ .

الأوردوية، لغة المسلمين وأغلب أهل الهند، وصلاحيتهما التامة لمسابقة المدنية الحديثة. وكان من أعظم أعماله الخالدة إنشاء كلية عليسگر، بشمال الهند، التي تحولت من بعد ذلك إلى جامعة عقب عودته من زيارته لبريطانيا عام ١٨٧٥ م، وفيها قامت الدراسات الغربية والدراسات الإسلامية جنباً إلى جنب على أرقى منهج جامعي إذ ذاك (١) بجهود السيد أحمد خان ظهر من بين المسلمين طائفة من نبغاء المفكرين والأدباء والفلاسفة الذين حملوا الرسالة من بعده (٢)، واتسع المجال لنقل فيض من المؤلفات الأوروبية النافعة إلى الأوردوية، فضلاً عن إحياء التراث الإسلامي الهندي.

وإن كان السيد أحمد خان قد أوقف حياته على النهضة بالمجتمع الإسلامي وسعى إلى حمايته حين نادى بضرورة تمثيل المسلمين في المجالس الهندية التشريعية بنواب مستقلين منهم؛ حتى لا تطغى طائفة الاغلبية على طائفة الأقلية في هذه البلاد التي تعد فيها العقائد أساس حياتهم السياسية والاجتماعية؛ وجهر بأن المسلمين والهنداكة أمتان مختلفتان تمام الاختلاف في العقيدة

١ - ٥٥٦٠ Dunbar

٢ - من أمثال هؤلاء السيد أمير علي وخواجہ بخش محمد إقبال ومحمد علي وأخوه شوكت علي. وفيهم من أخرج للناس باللغات الأوردية كتباً قيمة عرفهم فيها بروح الإسلام وحقيقته وحضارته ومدنيته تعريفاً بيئاً.

والنقايد وكل شيء ، فإن تلاميذه الذين حملوا رسالته من بعدد ما غدوا أن أعلنوا أن فترة محاسنة البريطانيين ، التي فرضها رائدهم من قبل . قد استوفت أجلها ، وأن واجب المسلمين غذا يفرض عليهم أن ينتزعوا حقوقهم من أيدي المستعمرين وكل من يقف في سبيلهم ، حتى أفصح المفكر الملهم محمد إقبال ، وهو من أبناء جامعة عليكر ، عن وجوب قيام وطن خاص بالمسلمين وحدهم بالهند ؛ ورسم حدود هذا الوطن على الأساس الذي تقوم عليه دولة پا كستان اليوم في الغالب .

ولم تكن معارضة الهنادكة لقيام دولة خاصة بالمسلمين في الهند إلا لخوفهم ، فيما ظنوا في الغالب ، من أن ينقلبوا إلى مصدر متاعب لهم من جديد حين يشتد ساعدهم ويستعيدوا بعض ماضيهم من القوة ، في حين كان البريطانيون يرون مبدئيا أن كل انقسام بين شعوب الهند فيه تحقيق لمصالحهم العليا على قاعدة الإستعمار المعروفة « فرّق تسد » .

وما لبث المسلمون آخر الأمر أن بلغوا بجهود زعيمهم محمد علي جنه ، ومن ورائه الرابطة الإسلامية ، إلى تحقيق قيام دولة لهم ، بعد أن أصرروا على رفض جميع عروض المؤتمر الهندي ، الذي كان يتزعمه غاندى ، ودستور ١٩٣٥ ، حتى لا تضيع حقوق

أقليتهم الكبيرة في تيار الغالبية الهندوكية ، وحتى لا يكون لأحد وصاية عليهم (١) . فأعلنوا مولد باكستان في ٤ أغسطس ١٩٤٧ على حدود لا ترضيهم في الغالب ، قبلوها ليضعوا بذلك حداً للمذابح الكثيرة التي سقط فيها من المسلمين أكثر مما سقط من الهنادة . وهي تضم كراچی ، مركز حكومتها ، وإقليم بشاور والحدود ، والسند والبنجاب في الغرب ، وأغاب البنغال في الشرق .

وبباكستان (٢) اليوم قرابة ستين مليوناً من المسلمين يعيش إلى جانبهم عشرون مليوناً من أصحاب المذاهب الهندية الأخرى . ولا يزال ما ينوف على أربعين مليوناً من المسلمين يعيشون في الجمهورية الهندية .

حضارة الدولة المغولية

أقبل المسلمون ، منذ فجر الاسلام ، على الاستفادة من حضارة
الفرس واليونان بعد أن اطاعوا عليها ، فلما دخلوا الهند
وتوغلوا في أراضيها واستقروا بها ومعهم ثقافتهم المزدهرة ،
اشتاقوا كذلك إلى التعرف على ما عند الهنود من ثقافة
ومدنية سمعوا الكثير عنها ووقفوا على قدر منها في بلادهم .

ونشأ عن امتزاج حضارة الحاكمين بحضارة المحكومين
القديمة ومدنيتهم حضارة ثالثة ، اشتملت على عناصر هاتين
الحضارتين ، هي ما تعرف باسم الحضارة الإسلامية الهندية التي
بدأت في أكل صورها في عهد الدولة المغولية التي أقامها
السلطان التيمورى ظهير الدين محمد بابر وخلفاؤه ، فظلت تحكم
هناك قرابة ثلاثة قرون .

جمع هؤلاء السلاطين البابريون في أشخاصهم كثيراً من
الصفات المتناقضة التي ورثوها عن أبيهم الأكبر تيمور لنگك ،
فكان فيهم وحشية وتسامح ، وجبروت وحلم . كانوا يقيمون

من هامات المقهورين على هيئة الأهرامات والمنائر، ولا يجدون في ذلك حرجاً، ثم يشيّدون، إلى جانب أكداس القتلى، منشآت الحضارة والمدنية وبيالغون في حبهم وبذلهم للأدب والعلوم والفنون والمشتغلين بها؛ بل إنهم ليسعون إلى العلماء يشاركونهم الدرس ويدعونهم من أقصى الأرض إلى بلادهم. وعلى هذه الخطة وفد إلى بلاط الهند صفوة من علماء العرب والفرس والترك ليساهموا بجهودهم في بناء الحضارة الإسلامية الهندية هناك.

وأدى التسامح الذي اشتهر به سلاطين الدولة المغولية (١)، إلى العمل على تقريب سكان الهند إليهم في الغالب، حتى أصهروا إليهم، وتبعهم رجالهم في ذلك، وفتحوا لهم أبواب المناصب في الدولة. فساعد ذلك كله على نشر الإسلام بالهند حتى كانت غالبية المائة مليون مسالم الغالبة بشبه القارة الهندية اليوم من أصول هندوكية خالصة.

وإذا كان بابر مؤسس هذه الدولة لم يطل به الأجل بعد

١ — يجمع المؤرخون على بعد سلاطين الدولة المغولية عن التعصب الديني، فآزر الأهلون في عهدهم طقوسهم الدينية بجرية تامة في الغالب.
Havell 426—Prasad 286,7

إقراره للأمور في الهندستان ، وإذا كان ابنه هما يون قد امضى عمره في صراع متواصل من أجل عرشه ، فإن جلال الدين أكبر ثالث السلاطين - هو أول من أفصح عن التسامح المطلق وجهر بالتآلف فنادى بأن الهند للهنود من أهلها مسلمين وهنادكة - وهو الذى بلغ كذلك بالدولة المغولية ذروة المجد والرقى . فقد نهض بالفنون والعلوم والآداب نهضة شاملة ، وزين الهند بكثير من المنشآت الفخمة وأرسى جهاز الحكم على نظم لا تمت شعبه وأذاعت شهرته ، وقلده فيها الذين حكموا من بعده .

نظام الحكم : كانت السلطات جميعها في الدولة ، من عسكرية ومدنية ودينية ، في قبضة السلطان ، على الرسم الغالب في تلك العصور ، وفي البلاد الإسلامية على الخصوص ، وكان هواه هو دستوره وتشريعـه . فطالما كان الجالس على العرش من أولى العزم والقوة ، كان التماسك يعم الدولة الإسلامية كلها في الهند ، وإلا فإن حكام الولايات كانوا يسعون إلى إعلان إستقلالهم وتأسيس إمارات لهم من فورهم ما أتاحت لهم الفرصة بذلك . وعلى هذا القياس ازدهرت الدولة المغولية أيما ازدهار عندما كان على رأسها رجال أقوياء كبار ، وسقطت عندما خلت من مثلهم .

أما الوزراء والولاة والقادة والأمراء فكانوا صنائع للسلطان في الغالب ، يرفع من قدرهم ويخفض كيف يشاء ، ويهيم من أراضى الدولة التى هى جميعها بداهة ملسكه ، حين يشاء وبقدر ما يشاء ، ويستردها كذلك على مشيئته .

هذا ؛ وكانت أراضى الدولة على ضربين ، منها ما يُقطع للقادة والأمراء على أن ينفقوا من دخلها على جندهم الذين يساهمون بهم فى حروب الدولة ، ويدفعوا نصيبا آخر معلوما من المال كذلك إلى بيت المال فى كل عام ، ومنها ما يستأجره الملتزمون على بدل سنوى يؤدونه . وكان هؤلاء جميعا ذوى سلطان مطلق على الأهلىن بمناطقهم فى الغالب .

وعدّل أكبر نظام الإقطاع هذا إلى تقسيم البلاد إلى ولايات عليها نواب وعمال له ، على النظام الذى يبنّاه فى موضعه سالفاً ، وأنشأ جيشاً قوياً مدرباً يتبعه رأساً وتقوم الدولة بدفع رواتب أفراد قواته من خزائنها (١) . ونهج خلفاؤه نهجه فى الغالب حتى جاء أورنگزيب عالمگیر فرجع إلى النظام الأول .

وأدى اهتمام الحكام المغوليين والسوريين (١) بالوقوف السريع على كل ما يجرى فى مختلف أنحاء بلادهم الواسعة ، إلى تنظيم شئون البريد تنظيمًا محكمًا ، وتمهيد الطرق والإكثار منها وتزويدها بعلامات يهتدى بها السعاة والمسافرون . وأقاموا على هذه الطرق منازل كثيرة انزول الناس والدواب ، وأباحوها جميعًا للمسلمين والمهندكة . وأدى قيام هذه المحطات إلى تجمع صغار التجار عندها ورواج أحوالهم بالتالى .

وقد أعجب بهذه الطرق الرحالة الفرنسى تافرنيه ، الذى ساه بالهند فى أواسط القرن السابع عشر الميلادى ، وصرح بأنهم كانت خيرًا من طرق فرنسا وإيطاليا إذ ذاك وأكثر أمنًا (٢) .

وعنى هؤلاء السلاطين جميعًا كذلك بإقامة العدل بين رعاياهم وانتشار الأمن فى ربوع بلادهم ، وألزموا التجار والصيارفة بمراعاة الأمانة ، وراقبوا سلوك عمالهم مراقبة دقيقة فى الغالب ، فلم يترددوا فى أن ينزلوا بهم أشد العقاب حين كانوا يتحققون من ظلمهم للأهلين أو اعتدائهم على أملاكهم أو أموالهم .

١ — السوريون هم آل شير شاه وأولاده .

٢ — حضرات الهند ٢٨٤

المجتمع : إن مؤرخى الهند عامة لم يعنوا فى الغالب إلا بحياة الحكام والسلاطين وأعمالهم وفتوحاتهم ، وما يتصل بذلك من حياة الولاية والقواد وأعمالهم ، فلم يلتفتوا ، إلا فى النادر ، إلى الكتابة عن شعوب هذه البلاد وأحوالها الاجتماعية فى شيء من التفصيل يُذكر ، اللهم إلا قلة يسيرة من المسلمين وفيهم أبو الفضل ابن المبارك ، مؤرخ أكبر ووزيره ، الذى تعد تدويناته من المصادر المهمة التى وصلتنا فى هذا الباب ، هى وما كتبه فريق من الأوروبيين من التجار والمبشرين الذين وفدوا على تلك البلاد فى العصر الوسيط وما تلاه .

والمجتمع المغولى فى الهند كان ، كما قلنا من قبل ، مجتمعا إقطاعيا خالصا رأسه السلطان الذى كان يضيف فى العادة على بلاطه من ضروب الآبهة والعظمة ما خلب لب الذين أتيح لهم الإطلاع عليها وأدهش وصفه كل من سمع بها ، فى بلاطه كان يتجلى بهاء الدولة ومجدها ورواؤها ، ومنه تشع علامات المدنية وتنشق آلاء الثقافة ، وفيه تروج أنواع المعارف ، وعنده وفى كنفه يعيش رجال العلوم والآداب والفنون .

- ومن بعده يأتى الأمراء ورجال الدولة الذين كانوا على دين سلاطنتهم فى الغالب فى البذخ والترف والإسراف ، حتى كانت

نصورهم تزدهم بالجوارى والغلمان وتنعم بكل طريف أو فريد
من الأثاث والمتاع ، وتفيض موائدهم بأطيب الطعام ، وإلى
جانبها أكداس من الفاكهة المنوعة النادرة ، المستوردة من
خارى وسمرقند ، والأنبذة والأشربة الفاخرة التى لم يلتفت
إلى تحريمها أحد من سلاطين المغول تحريماً جدياً بالهند إلا
أورنگزيب .

ولعل استيقان هؤلاء الأعيان من مصادرة السلطان لأموالهم
، وأملأهم بعد موتهم ، على العادة الغالبة إذ ذاك ، أو حتى وهم على
قيد الحياة حين يبلغ بعض الوشاة إلى الإيقاع بهم عنده ، كان ذلك
يدفعهم فى الغالب إلى إنفاق أموالهم فى مثل هذه الوجوه فى
إسراف بالغ .

وكان التجار بدورهم يحرصون ، ولا سيما فى المناطق البعيدة
عن العاصمة ، على إخفاء أموالهم عادة فلا يصادرها حكاهم حين
تشدد حاجتهم إلى المال أو يدفعهم جشعهم إلى طلبها .

هذا ؛ وكان أوسط الناس وأصحاب الحرف والصناعات يعيشون
فى الغالب عيشة تراوح بين الميسرة والمعسرة . أما أبناء الطبقات
الدنيا وأصحاب الحرف الدنيئة ، ومعهم خدم الأمراء والحكام
، وأجراؤهم ، فكانوا فى شظف من العيش والذل مقيم ، لا ينالون

إلا وجبات إغذائية قليلة هزيلة وأجور ضئيلة، حتى كادت الأمانة تنعدم بينهم بدافع من حاجتهم إلى سد رمقهم وإجابة مطالب ذويهم . ومع هذا فيقول بعض المؤرخين المحدثين بأن حالتهم برغم ذلك كله كانت أفضل بكثير منها في العصور الحديثة (١) .

وكانت طبقات الشعب هذه ، ومعها الزراع وأجراء الأرض ، هم أتعس الناس حظا وأشدّهم بؤساً حين تجتاح الهند المجاعات بسبب انحباس الأمطار الموسمية وما ينجم عنها من شح الأقوات وانتشار الأوبئة الفتاكّة .

وقد التفت أكبر ، وأولاده من بعده في الغالب ، إلتفاتا جديا إلى العناية بأمر هذه الطبقات والعمل على تحسين أحوالها ومد يد العون لها عند حدوث المجاعات والقمح (٢) .

الصناعات : كذلك كان أكبر هو أول من غنى بأمر الصناعات الهندية ونهض بها ، فكان عنده ، كما يروى مؤرخه أبو الفضل ، مائة مصنع للنسيج والأسلحة والصباغة ، كل واحد منها كالمدينة في اتساعه (٣) . ومنها ما كان يُعَدّ للسلطان في كل عام

١ — Muslim Rule. 673

٢ — Eb. 546

٣ — آيين أكبرى - آيين ٩

ألف حُلَّة ليخلع أغلبها على رجاله .
وكانت أهم مراكز الصناعة المغولية هي في لاهور و آگرا
وفتچور وأحمدآباد ودكا . وكثير منها كان من المنسوجات الفاخرة
والسجاد يصدر إلى الخارج .

كذلك كانت الهند تصدر الصوف والنيلة والتوابل، وتقايض
عليه في موانئها بالكماليات الشرقية والغربية التي اقتضتها حياة
البذخ والإسراف التي كان يحياها حكامها ، والتي كان من مساوئها
دخول الطباق إلى هذه البلاد في مستهل القرن السابع عشر الميلادي
نزرعه في أرضها من بعد ذلك .

العمارة : أدى كلف الباريين البالغ بالحضارة والمدنية إلى أن
التفتوا إلى تَعمير مدنهم وشغفوا بالعمارة شغفا بالغاً ، حتى ظهر في
عهدهم طراز معماري ، هو مزيج من فنون المسلمين في الغالب وبعض
الفنون الهندوكية ، فشاع في العالم باسم الطراز المغولي ، ويتميز
بالقباب البصلية الشكل والترصيع بالحجارة الكريمة والمينا والخزف ،
والأقواس الحادة ، والأبواب الفخمة التي تعلوها نصف قبة .

لقد انتقد ظهير الدين بابر أبنية الهند منذ دخلها انتقاداً شديداً
وأظهر ائتماضة من عمارتها . ولم يمنعه اشتغاله بحروبه المتواصلة

في هذه البلاد من إقامته لكثير من المنشآت على الطراز التيمورى الذى عرفه في موطنه الأول ببلاد ماوراء النهر وصادفه في مواضع كثيرة بخراسان وكابل ، حتى ليذكر في سيرته أنه كان يستخدم ٦٨٠ من النحاتين في بناء قصوره ، بخلاف ١٤٩١ آخرين كانوا يعملون في منشآته الأخرى من الخزانات والمساجد بآكرا وبيسانه ودهولپور وگواليار ^(١) . ولم يبق من منشآته الكثيرة هذه إلا مسجد كابل باغ في پانى پت والمسجد الجامع في سنهبل ، ليجيء من بعده حفيدة أكبر فيزين الهندستان بعدة منشآت ضخمة جاءت عمارتها آية في الإعجاز الفنى . وقد بقى منها حتى اليوم ضريح همايون وبعض قصوره في فتخپور سيكرى ثم بُلند دروازہ (البوابة الكبيرة) التى أقامها تذكارا لفتوحاته الدكنية والتى تعد بارتفاعها الذى يبلغ ١٧٦ قدما وحسبها مثالا لروعة العمارة الهندية كلها . ويقوم غير بعيد منها ذلك المسجد الجامع ، الذى جاكى به في تصميمه البيت الحرام ، ثم حصن آكرا الذى استغرق بناؤه سنوات ثمانية .

وبما يذكر في هـذا الصدد أن أكبر لم يغفل في عهده عن مراقبة أسعار مواد البناء حرصا منه على تيسير الحياة لشعبه .

وما أذاع صيت العمارة المغولية في الخافقين هو « تاج محل » ،
ذلك المزمى البديع الذى شيدّه شاهجهان لزوجته ، أرجُمند بانو
ممتاز محل ، فقام مثلاً على الروعة فى البناء وفى الوفاء ، حتى رجّح
بعض المؤرخين ، خطأ ، استعانة شاهجهان فى إقامته بالفنانين
الإيطاليين ، كما نسبوا إلى بابر من قبل استخدامه لتلاميذ سنان
معماري العثمانيين ، المشهور .

والثابت المعروف أن هذا البناء ، الذى يُعد بحق من روائع
الفن المعماري المعدودة ، هو فى تصميمه وتنفيذه إسلامى خالص .
ومن منشآت شاهجهان الخالدة مدينة دهلى الجديدة ، التى
عُرفت فى عهده باسم شاهجهانآباد ، والتى خططها على أحسن
نمط فى عصره وأقام بها عدة قصور نفخة له ولأمرائه ، وخص
التجار وأصحاب الحرف والصناعات والفنانين من نقّاشين وغيرهم ،
كلّ فريق منهم بمحلته ، ليهرّوا من بعد ذلك بمتجاتهم ورؤاء
مدينتهم أنظار الأوربيين الذين زاروها إذ ذاك (١) .

ونالت آكرا بدورها كذلك الكثير من عناية السلطان حتى
أشاد الرحالة الألمانى مندلسلو بنظافة طرقها الممهدة وجمال

أبنيتها وإتساع رقعتها ، وأحصى بها إذ ذاك سبعين مسجداً
وثمانمائة حماماً (١) .

وبموت شاهجهان ، وارتقاء ابنه الصوفي أورنگزيب
عالمگیر العرش من بعده وضعف خلفائه ، فتر اهتمام الدولة
بالتعمير والبناء .

وقلد الأمراء المسلمون ، في مختلف الإمارات الهندية ،
طراز العمارة المغولية ، فظهرت أمثلة منها رائعة في بيجانپور
وغولكونده وأحمدنكر وبرار وبيدار وتخطتها إلى نيپال، بسفوح
الهمالايا ، التي لم يدخلها المسلمون ، فضلاً عن إمارة ثيبا نگر
بأقصى الجنوب .

النقش : كان طبيعياً أن يستتبع شغف سلاطين الدولة المغولية
بالعمارة شغفهم كذلك بفن النقش والعناية به ، وأخذت مدرسته
عندهم طابعها المغولي الخاص بها حتى أفرد لها أرباب الفنون باباً
خاصاً بها وتحدثوا في أسفار كاملة عنها (٢) .

Lane-Poole 333. 5 ١

L. Binyon. The Court Painters of the Grand — ٢

Moghul. Oxford 1921.

فهذا جدّهم أكبر قد جلب معه إلى الهند جملة من روائع النقوش التي كانت في حوزة الاسرة التيمورية ، ومن بينها لوحات لبهزاد مصور السلطان حسين بيقرا ، الذي يصفه عمدا الفناين بأنه رفائيل الشرق (٢) ، كما استصحب همايون معه في عودته من المنفى إلى الهند النقاشين المشهورين سيد علي تبريزي وخواجه عبد الصمد ، ليحيىء ابنه أكبر من بعد ذلك فيقرر أن التصوير نوع من العبادة ، وأن للفنان ، فيما يبذل له ، طريقته الخاصة للإقرار بوحدانية الخالق المبدع ، فهو حين يصور الكائنات وينقش أطرافها وملامحها على لوحته لا بُد وأن ينصرف بذهنه إلى التفكير في إبداع خالقها الذي نفخ فيها بما يعجز هو عن تصويره وإبرازه .

وهو بعد ذلك يقيم ببلاطه معرضاً للنقوش في كل أسبوع ويجذب المجيدين من أصحابها تشجيعاً لهم ، بل إنه ليستهوى نوايغ النقاشين من خارج الهند بالمنح والعطايا ليفدوا إليه ، كما يمد تشجيعه وعناية إلى فنانى الهندكة ويحضهم على التعمق في تفهم

١ — لهذا النقاش لوحات عدة بأشهر متاحف الفنون وهو يتأثر في نقوشه بمذهب التصوفية الفارسية ، فهو بذلك من مدرسة الرهزية .

فنونهم القديمة ودراستها ، فمکان من نوابغهم ببلاطه دسوانت
وبساوت وسنول و تراشندو حگنات ، إلى جانب عبد الصمد
ومیر سید علی وفرخ بگک ومحمد نادر وأستاذ منصور .

وقد عهد أكبر إلى نقاشيه بتصوير وقائع چنگیز نامه. وظفر
نامه ، وراز نامه ، وهي جميعاً من مؤلفات المسلمين ، ثم المهاهارتا
والراماينا . ملحمته الهنادكة اللتين كان قد أمر بنقلهما وبعض كتب
هندوكية أخرى إلى الفارسية ، فزُينت كلها بنقوش تصور
حوادثها (۱) . وقد تأثر بعض هؤلاء النقاشين بالفنون
الأوربية التي كان البرتغاليون قد جلبوا معهم إلى الهند بعض
نماذج منها .

وورث جهانگیر عن أبيه كثيراً من أحاسيسه الفنية حتى كان
في مقدوره أن يتعرف في يسر على مقومات كل فنان وخصائصه
حتى حين شارك غيره ، في نقش واحد (۲) .

وبلغ الفنانون والنقاشون في عهد أورنگزيب بفن الخط
وزخارف الكتب مرتبة الأجر — از الفنى الرائع ، وساهم السلطان
نفسه معهم بنصيب ملحوظ في نسخه للقرآن الكريم في

۱ — يداونى نان ۳۲۰ ، ۳۳۶

۲ — واقعات جهانگیرى ۳۵۹ ، ۳۰

إبداع مشهور .

وتختلف عن فنانى الدولة المغولية لوحات كثيرة سجلت كثيراً من مظاهر الحياة فى البلاط وفى المجتمع الهندى ، بل وفى البيئة الهندية كلها بأشجارها وأزهارها وطيورها وفولها ، تجدها اليوم هى وزخارفهم قد أزدانت بها متاحف العالم الكبرى :

حدائق المغول : يتمثل كلف سلاطين الدولة المغولية بالجمال ، وحبهم للطبيعة ومباهجها ، فى حدائقهم التى أقاموها فى مواضع كثيرة بالهند حتى ذاع صيتها وأقبل الأوروبيون فى إيطاليا وبلاد الإنجليز ، على الخصوص ، يحتذون نمطها ويزينوا بها كثيراً من مدنها . فهذا بابر نراه فى مواطن كثيرة بسيرته لا يفتأ يتغنى بما أبدعته الطبيعة من آلائها . حتى إذا ما دخل الهند فشاهد حدائقها لأول وهلة ، انتقدها انتقاداً شديداً أسوء تنسيقها وخلوها من الماء يجرى فى جداولها بين الخنازل ، فأين هى من مغانى فرغانه وكابل ، . وما غدا أن أنشأ بالهندستان عدداً من البساتين والمنزهات ما حاكى بهارياض موطنه ، فكان من بينها جارباغ السكابلى بظاهر آگرا الذى جعله على نمط نظيره بكابل وجلب إليه كثيراً من النباتات والأشجار التى لم تكن

الهند تعرفها من قبل (١) .

وورث عنه حفيده شامجها ن شغفة بالنباتات والحـدائق
والأشجار وكافه بدراستها تفصيلا (٢) . كما استهوت مغاني كشمير ،
بفتنتها، الأمراء الباريين جميعا فكانوا يسارعون إليها في كل صيف
طلبا لللاذتجاء والمتعة، حتى أقاموا على غرارها بلاهور : قصبة البنغال ،
شالمار أخرى حاكوا به نظيرتها في التبت بأشجارها وجداولها
وشلا لايتها ومدرجاتها .

وما زال الشعراء حتى اليوم يتغنون في الفارسية والأوردوية
بمقاتن هذه الرياض وجمالها .

الموسيقى . هذا ؛ والمطلع على موسيقى الهند اليوم لا يستطيع أن
يغفل أمر المؤثرات الإسلامية التي عملت فيها ، سواء في ناحية
الأصوات أو ناحية الآلات

ومن المشهور كذلك أن سلاطين المغول كانوا على ولع شديد
بالعزف والغناء ، باستثناء أورنگزيب عالمكير الذي سرح
الموسيقين والشعراء من بلاطه . فهذا بابر قد روى عنه تأليفه
لبعض الأصوات ، في حين كان ابنه همايون يعقد ندوة موسيقية

١ - بابرنامه ٣٨٠ ب

٢ - واقعات جهانگیری ٣٠٤ ، ٣٣٨ ، ٣٤٨ ، ٣٧٠

ببلاطه فى يومى الإثنين والأربعاء من كل أسبوع : أما أكبر فقد استقدم إلى بلاطه مشاهير الموسيقيين رجالاً ونساءً . من كشمير وإيران . ولا يزال مثنوى مطربه ميان تانس بگواليار مزاراً بقصده موسيقوا الهند حتى اليوم .

وفى إقبالنامه جهانگیرى ، لمعتمد خان ، تفصيل لنشاط لموسيقيين ببلاط جهانگیر ، وقد كلف هذا السلطان نفسه بالموسيقى حتى ألّف فيها أصواتاً كثيرة .

وفى عهد الدولة المغولية أدخل إلى الهند كثير من الآلات الموسيقية ، مثل الرباب والسرود والدلرُنى والطاروس ، وجميعها فارسية الأصل (١) ، كما ألّف ، كثير من الأسفار فى هذا الفن تَخر بها مكتبة فيضى بآگرا اليوم ، ولا يزال إلى وقتنا هذا الألحان المغولية رواج بالهند .

الحركة الفكرية لم يبدُ سلاطين الدولة المغولية رعاة للحركة الفكرية فى الهند وحماة للعلوم والآداب فحسب ، بل كان منهم من ساهم بقلمه فيها وأخرج للناس كتباً قيمة . فمن ذلك السيرة الفذة التى أنشأها

بأبر عن نفسه فافصحت عن إحاطته الواسعة بالتاريخ وتقويم البلدان وكثير من العلوم العقلية والنقلية . وتمتكته التام من الآداب العربية والفارسية والتركية . كذلك كتبت ابنته كُلمبَدَنُ بيسگيم ، همايوننامه التي تعد مرجعا وثيقا في تاريخ ثاني سلاطين المغول . وشغف مثلها بالآداب كثيرات من نساء البيت المغولي ، أشهرهن زيب النساء ابنة عالمگیر التي كانت تقرر الشعر باللسانين العربي والفارسي في رقة وعذوبة أودعتها ديوانها المشهور « ديوان مخفی » .

هذا ؛ وكان همايون يحرص في أسفاره على إلا تفارقه مكتبته الخاصة ، وكان يميل بمخاطبة إلى المصنفات الجغرافية والفلكية . ولم يكن جوهر صاحب تذكرة الواقعات إلا تابعا من أتباعه ومقدم شرا به ^(١) .

وصادفت سوق الثقافة والحياة الفكرية رواجاً منقطع النظير عند أكبر ، أعظم ملك عرفته الهند ، حتى أوقف المؤرخ عبد القادر بداوني المجلد الثالث من كتابه ، منتخب التواريخ ، على ذكر رجالها والمشتغلين بها في عهده . فكان من أعلامهم ملا داود صاحب تاريخ أُلْفِي وأبو الفضل بن المبارك صاحب أكبرنامه

١ — كان أبير كذلك مكتبة قيمة عليها قيم يدعي عبد الله كتابدار .

آيين أكبرى — والكتاب الأول يستعرض فيه تاريخ الدولة المغولية منذ نشأتها ، فى حين يتحدث فى الكتاب الثانى عن رسوم هذه الدولة وتقاليدها ونظم الحكم فيها ومظاهر المدنية عندها . ثم أخوه أبو الفيض فيضى الشاعر الطبيب الرياضى ، ونظام الدين أحمد صاحب طبقات أكبرى ، ومحمد عبد الباقي صاحب آثار رحيمى ، ومحمد قاسم هندوشاه صاحب تاريخ فرشته . وأغلب هذه الكتب قد نشرت المطابع ونُقل بعضها إلى لغات كثيرة ، وجميعها قد صُنِف بالفارسية التى كان لها ولآدابها رواج عظيم ، ومركزٌ ممتازٌ بالهند أيام الحكم الإسلامى بعامة وفى عهد الدولة المغولية بخاصة ، حتى أقبل كثير من الهنادكة على دراستها واشتهر نفر من براهمة كشمير بإجادة النظم بها .

وبلغ من تقدير أكبر للعلماء أن استبد به الحزن حين بلغه خبر مقتل وزيره ومؤرخه أبى الفضل ، حتى ودّ لو كان هو المقتول مكانه ، فنوايغ العلماء — على حد قوله — لا يجود بهم الزمان إلاّ فى القليل النادر بخلاف الملوك وإن صلحوا .

ولأكبر يدين الهنادكة يبعث آدابهم السنسكريتية وإحيائها من جديد ، وظهور طبقة ممتازة من كتّابهم وشعرائهم . وبفضل نظراته المتساحمة وتشجيعه أقبل فريق من المسلمين أنفسهم على

الاشتغال بتلك الآداب ، حتى نظم الشعر بالسنسكريتية الوزير
عبد الرحيم خانناتان الذي نقل بابرنامه من الجغتائية إلى الفارسية
على ما أشرنا إلى ذلك من قبل .

وفي عهد جهانكير كتب معتمد خان تاريخه المعروف بإقبالنامه
جهانكيرى ، وكامگر خان مآثر جهانكيرى ، والشيخ نور الحق
زبدة التواريخ ، كما ألف فى عهد شاهجهان ، بادشاهنامه ،
لعبد الحميد لاهورى ثم لامين قزوينى ، وشاهجهاننامه لعنايت خان
وعمل صالح لمحمد صالح .

هذا ؛ كما كتب داراشكوه بن شاهجهان بعض كتب فى التصوف
المقارن مثل « مجمع البحرين » ، وترجم لجمهور من أهل التصوف فى
كتابه « سفينة الأولياء » . ودفعه شغفه بالاطلاع على فلسفة الهند
القديمة وعقائدها إلى أن عهد إلى بعض المترجمين بأن ينقلوا إلى
الفارسية قدرأ من كتبها مثل اليوپانيشاد وبهجتادجيتا
ويوجا ما شيست .

حتى إذا بلغنا عصر أورنگزيب وجدنا عنده من المؤرخين
محمد هاشم المعروف بخافى خان صاحب منتخب اللباب وسنن رأى خترى
صاحب خلاصة التواريخ ، ثم محمد مستعد خان صاحب مآثر عالمكير
ومحمد كاظم صاحب عالمكير نامه . وأشهر ما كُتب فى عهد

هذا السلطان هو الموسوعة الفقهية الكبرى، المعروفة بالفتاوى الهندية أو العالمگیریة، التي عهد بتأليفها إلى فريق من خيرة علمائه ، وبذل لهم في سئاء ، فأجلوا فيها الفقه الحنفي كله إجمالاً شاملاً . ولم يمض على الفراغ من تأليفها أكثر من قرن ونصف القرن حتى طبعت في القاهرة ونشرت، وذلك قبل منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، مما يدل على قيام الروابط الثقافية الوثيقة بين الشعوب الإسلامية برغم بعد الشقة بينها . وما أصابها من انحلال وضعف في ذلك القرن . ويُعد هذا الكتاب من أهم المراجع التي اعتمد عليها المصلحون في السنين الأخيرة لإصلاح قوانين الأحوال الشخصية بمصر .

اللغة الأوردوية : كان من أجلى مظاهر التجاوب القوى بين الثقافتين الهندية والإسلامية وآدابهما ، تطور اللغة الأوردوية ، أوسع لغات شبه القارة الهندية انتشاراً ، والتي تسعد مزيجاً من لغات الحاكين والمحكومين ، أى من الفارسية أساساً ، وماتسرب إليها من ألقاظ عربية كثيرة ومصطلحات اللهجات المحلية الهندية (١) .

١ — اللهجات الهندية هي في الغالب خليط من اللغات الدراورية والآرية بما فيها السنسكريتية . وقد بقيت السنسكريتية الأدبية الخالصة وقفاً على أبناء الطبقات الهندية العليا منذ أن وضع «منو» المم نظام الطبقات ف عزلت نفسها بذلك في الغالب عن عامة الناس .

فلقد بدأت ألفاظ كثيرة من لغات الفاتحين تتسرب إلى لهجات الهند منذ أن غزا محمود الغزنوى هذه البلاد واستقر خلفاؤه من بعده بها، كما غدت ألفاظ وعبارات هندية بدورها تجرى على لسان المسلمين: في الهند، حتى تمكن فريق منهم من آداب البلاد المفتوحة تمكننا يدينا ظهرت أمثله عند خسرو الدهلوى الذى كان ينظم الشعر بالفارسية. والبهاشا، لهجة دهلى، على الأوزان السنسكريتية، فى القرن الرابع عشر الميلادى .

حتى إذا ما أخذ الهنادكة يُقبلون على تعلم الفارسية منذ أيام اللوردهيين طمعاً فى الالتحاق بالدواوين، وجاء سلاطين المغول يفتحون لهم الأبواب إلى المناصب ويعتون بالتمضية بالآداب الفارسية والسنسكريتية على السواء، ازداد تقرب اللغتين من بعضهما واختلاطهما، ليظهر من أثر هذا المزج لهجة ثالثة فى عهد شاهجهان فى القرن السابع عشر الميلادى، وقد بدأ عليها معالم النضج والاستقلال واضحة، وقد عُرِفَت باسم «زبان أردو» أى لغة سوق المعسكر، بدهى، حيث كان لها رواج ملحوظ .

وبقيت هذه اللغة الجديدة فى الغالب تساهم فى النشاط الأدبى بنصيب محدود لا تبلغ فيه بعض مقام الفارسية، حتى تم للبريطانيين استعمار الهند فعملوا على اقتلاع الفارسية من هذه

البلاد - بوصفها لسان المفكرين المسلمين الذين جرؤوا على مناهضتهم - حتى تزعموا آخر الأمر ثورة التحرير الهندية ضدهم في منتصف القرن التاسع عشر - فبدلوا جهوداً كبيرة لتنظيم أصول الأوردوية ونحوها، وطبعوا كتبها، حتى عمت الهند على حدائنها وازدهرت آدابها. ولا تزال للمطارحات الشعرية الأوردوية بالهند كلها سوق رائجة حتى اليوم.

وكانت الأوردوية هي لسان الزعماء المسلمين من أمثال السيد أحمد خان وإقبال وخلفائهما الذين نصبوا أنفسهم للنهضة بالمسلمين في الهند والدفاع عن حقوقهم بازاء عداء البريطانيين المرير لهم. وعالج بها نفر من كتاب المسلمين والهنداكة كثيراً من الموضوعات الحديثة والقديمة فبرهنوا بذلك على مرونتها وصلاحتها كل الصلاحية في العصور الحديثة (١). وهى اليوم لغة باكستان الأولى ومن أكثر اللغات تداولاً بجمهورية الهند.

كان من أثر الإسلام البالغ بالهند، فضلاً، عن اجتذابه الملايين من أهلها بسماحته وقوله بالمساواة بين الناس جميعاً، أن برز طائفة من المصلحين الهنداكة ينادون بإنكار عبادة الأوثان

من دون الله الواحد القهار^(١)، كما أنكروا كذلك نظام الطبقات
والوظائف الدينية وزواج الأطفال وعادة الساتى، وأباحوا زواج
الآرامل وسمحوا لغير الهند باعتراف دينهم .
ولم تكن دعوات نائك صاحب ديانة السك، وكبير صاحب
مذهب بهكتى ، ورام موهن صاحب « برهما سماج » وتعظيمهم
جميعا للأنبياء والمرسلين إلا صدى لتعاليم الإسلام الذى كان
بالهند ديناً وحكماً ومدنية .

٩ — ديانات الهند القديمة كانت تقول أصلاً بالتمجيد فى الغالب (البيرونى : ذكره
ما للهند من مقولة . . . ص ١٣) وإن لم يبدو عندها بالمظهر الراسخ المؤكد عند
المسلمين ، حتى انحرف بها سادتها من بعد ذلك فباعدوا ما بينها وبين مبادئها الأولى .

ملحق بالكتاب عن :

الترك والمغول

سلاطين الدولة المغولية، الذين حكموا الهند قرابة قرون ثلاثة. فشهدت هذه البلاد على عهدهم أعظم نهضة وحضارة عرفتها في تاريخها ، تمتزج في عروقهم دماء الترك والمغول . فأبوهم ظهير الدين محمد بابر ، فاتح الهندستان ومؤسس هذه الدولة ، ينتهي نسبه من ناحية أبيه إلى الخاقان التركي تيمورلنك ويمتد عرقه من ناحية أمه إلى خان المغول الأعظم چنكيز .

والمغول والترك كلاهما قد سبق إلى غزو شبه القارة الهندية ، وكان لهما شأن خطير ودور هام في تاريخ آسيا الوسطى بعامة ، وبلاد الشرق الإسلامي بخاصة ، مما يقتضى أن نتحدث عنهم وعن تاريخهم في قدر من الإجمال .

فكم من مدن إسلامية زاهرة انتهت برابرة الترك والمغول ثم دمروها ، وكم من حصون وقلاع أفنوا حامياتها ذبحاً ، ثم لم يتركوها حتى سوّوا أبنيتها بالأرض ، وكم من ألوف كثيرة من السكان المسلمين نهبوا متاعهم ثم ساقوهم في الغالب إلى حتوفهم ، وناهيك بالعدد الوفير من أصحاب الجيرف الذين

كانوا يسوقونهم معهم من بعد ذلك للعمل عندهم .
على أن هؤلاء المخربين ، حين دخالوا في دين الله أفواجا وتمكن
تصلحهم بالحضارة والثقافة الإسلامية ، ما غدوا أن انقلبوا في
الغالب إلى حُماة للعلوم والفنون والآداب ، وإن لم يتخلوا أبداً
عن ميلهم إلى سفك الدماء وإعمال السلب والنهب . فكنت تراهم
في الغالب يكسدون هامات ضحاياهم على هيئة المنائر والأهرامات
ثم ينصرفون من بعد ذلك إلى تعمير المنشآت النافعة الكثيرة .
ويزيدون المال والتشجيع للعلماء والأدباء وأرباب الفنون ، حتى
كان منهم من شارك أهل المعرفة نشاطهم ودروسهم ، لتشهد من
بعد ذلك على أيديهم جملة من المدن ، التي خربها أجدادهم من قبل ،
نهضة ثقافية وحضارية فذة ^(١) .

إن سلسلة الجبال الآسيوية الرئيسية العظمى التي تمتد من
الصين شرقاً إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط غرباً ، والتي
تبلغ غايتها من الإرتفاع في منطقة التبت ، وبجبال الهملايا التي
تُعرف بسقف الدنيا على وجه التحديد ، هي في تشعبها
وتفرعاتها ، كانت تُعد بحق ، حاجزاً بين الشعوب

المتحضرة والقبائل التي لا تزال بأسيا على البداوة في الغالب . فما من شعب سكن إلى الجنوب من هذه الجبال إلا وكان له في التاريخ دور هام وفي الحضارة والثقافة نتاج قوى وسهم كبير . ولدينا في الهند القديمة وعلومها وفلسفتها ، وفارس وما كان لها من ملك عتيق وماض تليد ، ما يؤيد هذه الدعوى ويقوم دليلاً عليها .

وفي حين كانت الأراضي الواقعة إلى الجنوب من سلسلة الجبال الآسيوية تعج بالمـدن الكبيرة والوديان الخصبة ، كانت المناطق الواقعة إلى ما وراءها شمالا - باستثناء الصين وبلاد ما وراء النهر وماحول نهري سيحون وجيحون - ما تزال تتجول في أغلب مناطقها بمجموعات عديدة من قبائل البدو ، ثروتها قطاعان الانعام ، ومدنها وديارها صفوف من الخيام ، ودستورها العرف القبلي البدائي المتوارث .

وعرفت هذه المناطق الشمالية عند القدماء باسم بلاد السيث ثم أطلق عليها أهل الصين من بعد ذلك اسم يلاو التتار .

وظل لفظ التتار يُطلق على كافة القبائل التي تجاور الصين وتقطن الأقاليم الممتدة في أواسط آسيا إلى الجنوب الشرقي من أوربا حتى ظهور چنغيز خان في القرن الثاني عشر

الميلادى (١) . وبرغم اشتهاى أمر المغول من بعد چنگيز خان ، فقد ظل صيت التتار القديم غالبا ، وصار اسمهم ساريا على المغول أنفسهم فى بعض بلاد أواسط آسيا وفى سوريا ومصر (٢) .

هذا ؛ وقد شلك كثير من المؤرخين سكان هذه المناطق الشمالية فى عروق ثلاثة هى : العرق المنشورى أو المنغورى أو المنشوى ، ثم العرق المنغولى أو المغولى (٣) ، ثم العرق التركى .

أما المنشورىون فهم أغاب سكان الصين ، وإلى الغرب منهم منازل المغول ، ثم مواطن الأتراك الذين يحاورون الصينيين فى بعض المناطق .

١ — التار عند الصينيين هم الغرباء والشعوب البعيدة والنور من الجماعات غير المتمدينة واللصوص . أنظر : هارولد لامب : جنكيز خان ص ٢٤ .

ثم المقدمة الإنجليزية لترجمة تاريخ رشيدى لكانتها H . Elias p 83

٢ — تاريخ الكامل لابن الأثير مجلد ١٢ — المختصر فى أخبار البشر .

لأبى الفداء . م ٣ ، ٤

هذا وأهل تعريف المغول بالتتار ، وقد كانوا فى مبدىء أمرهم على بدائة وتأخر تام ، إنما هو من إطلاق التجار المسلمين نقلا عن جيرانهم من الصينيين والأتراك .

٣ — تقصد بالعرق هنا الجنس . هذا ؛ والتسمية الصحيحة الواجبة هى منغول لا مغول ، واللفظ الأخير هو خطأ مشهور شائع .

وإلى الجنسيتين الآخرين ينتمى سلاطين الدولة المغولية وكثير
من القادة والجند الذين دخلوا معهم الهند واستقروا بها .

منازل التُّرك :

جاء إسم التُّرك صراحة ، أول مرة ، فى نقوش أورخون التى
اكتشفها الأثريون فى منتصف القرن الماضى ، والتى يرجع تاريخها
إلى القرن الثامن الميلادى . وتذكر هذه النقوش أن سلطان الأتراك
كان فى القرن السادس الميلادى يمتد بين حدود الصين وحدود إيران
وبين نطة ، وكانت قبائلهم تنتشر فى هذه المنطقة كلها ^(١) .

وأدى اختلاط الأتراك بجيرانهم من أمم العالم القديم
العريقة فى المدنية إلى وصول قدر غير قليل من حضارات هذه الأمم
إليهم ، وناهيك بما أتاحه هذا الجوار من تسجيل للكثير
من رسوم الترك ووقائعهم التى أغفلت الصين جارتهم الأولى
ذكر أغلبها ، فلم يكن حديثها عنهم ليعدو ذكر قبائلهم .

ومما ترويه أخبار الصينيين القدماء أن قبائل « هونج نو »
كانت تجاور بلادهم قبل ميلاد المسيح بعدة قرون . حتى إذا

١ — ويؤكد الأستاذ بارتولد كذلك أن هؤلاء الأتراك هم أحفاد الهون

Barthold-Donskies : Hist. des Turcs d'Asie centrale .
pp 6,16

ما أشتد خطرهما وتفاقم عداؤهما ، عمدت أسرة تسن' الحاكمة إلى بناء سور الصين العظيم لحماية بلادهم منهم ، فلولوا وجوههم من بعد ذلك صوب الغرب ونزلوا في ولاية كانسوه إلى جوارتل على هيئة الخوذة ، وهى « دوركاى » بالصينية ، ندسبوا إليها ^(١) .

وتم لهذه القبائل التركية فى القرن الثانى قبل الميلاد، السيطرة على مناطق متسعة الأرجاء فى أواسط آسيا (٢) ، فكان الأويغور ينتشرون فيما بين نهري تانو والنهر الأصفر ، وتيان شان والتاريم ، كما كانت مضارب القرغيز فى منطقة بنى سى، ومنازل القسراق والتوكوى فى التناى ، والياقوت عند الجنوب من سيبيريا ، فى حين انتشرت قبائل تركية أخرى حول بحيرة بيكال وبحيرة بلكاشر وعند سيجون وجيجون حتى بحر الخزر .

ومناطق الأتراك هذه ، فضلا عن ترمى رقعتها ، كان يتخللها

١ — هذه التسمية التى أوردتها باركر (Engl. Hist Rev. 1898)
 431-47 p) يجب أن تقابل بالخنزرهى وما جاء من إشارات للترك عند
 غيرودوت ، وما ذكره الأستاذ بلوشيه من اشتقاق اسمهم من كلمة تورء الواردة
 فى الأبتاق القديمة JRAS 1915 p 305-8
 ٢ — Czaplicka, M. The Turks of Central Asia P 61 .

صحراوات كثيرة متشعبة ، حتى لتبدو المناطق الزراعية بها أشبه بالواحات في مواقعها ، مما أحال استمرار قيام دولة معمرة بها تعتمد على الزراعة ويتيسر لها في نفس الوقت إحكام الرقابة على قبائل البدو التي ظلت أبداً مصدر تهديد دائم لأى أرض تُزرع أو مدن تقوم في هذه النواحي .

ويُستثنى من هذا التعميم بلاد ما وراء النهر التي تُعرف أيضاً باسم بخارى الكبرى . فهي برغم وقوعها إلى الشمال من سلسلة الجبال الآسيوية ، قد يَسَّرت لها طبيعة أرضها ، وما بها من مجار للياه عديدة ، مقومات الحضرة ، فازدهرت في الغالب ما أفلح حكامُها في ضبط أهورها ورد غائلة كل عدوان خارجي عنها .

وعن طريق هذه البلاد ، التي تُعد باب آسيا الوسطى والجنوبية . نفذ الأتراك والمغول إلى العالم المتحضّر وأفلحوا في إحداث تغييرات كثيرة خطيرة به .

وقبائل « هونج نو » ، هذه التي تشتهر أيضاً باسم الهون ، ندفت موجاتها مرات عدة على بلاد ما وراء النهر وفارس والهند ، كما عبرت الفولجا إلى الدانوب ، واكتسحت ولايات الإمبراطورية الرومانية ، وأنزلت ، بقيادة أتيل ، هزات

عنيقة بأوروبا كما هو معروف مشهور^(١) .

ونتيجة عن اختلاط هؤلاء الأتراك بالفرس ، جيرانهم بأواسط آسيا ، أن نفذت إليهم ثقافة الساسانيين وحضارتهم ، وهم الذين كانوا يسيطرون على كافة مسالك التجارة ودروبها في العالم القديم .

وبزغ نجم الأويغور من بين الأتراك في القرن الثامن الميلادي ، فحكموا في أواسط آسيا ومنغوليا الحالية مكان الترك أوغوز والغز ، الذين اضطروا بدورهم إلى النزوح غربا ، ليتألق نجمهم في القرن الرابع الهجري الموافق للحادي عشر الميلادي ، فيشمل نفوذهم من بعد ذلك بلاد التركستان وقشغر ، ويرثون جزءاً من مملكة السامانيين ببلاد ما وراء النهر ، ويعرفون في التاريخ باسم القره خانيين ، وكانت عاصمتهم أرقند إلى الشرق من فرغانة .

وإلى جانب هؤلاء كانت منازل القبچاق الترك تمتد حتى الفولجا ، وقد نشأت بينهم وبين بلاد خوارزم الإسلامية علاقات قوية . وغزا القرغيز عام ٨٤٠ م منازل الأويغور الذي آثروا

١ — يرجع بعض المؤرخين أن الهون لم يكونوا في زحفهم أثراً كما خلاصاً إذ كان معهم

كثير من المغول Degiugnes. Hist. Gen. des Huns Vol I p 212

والعل المؤلف يقيس في هذا على ما كان في جيوش جنسكيز وأبنائه من الأتراك .

الهجرة إلى حوض التاريم والواحات القريبة منه على معايشة هؤلاء الذين كانوا على درجة كبيرة من التأخر ، وطفقوا هناك يمارسون التجارة والزراعة ^(١) .

وانتجى القره ختاي ، وهم مغول في الغالب ، صوب الغرب بدورهم ، بعد أن طردتهم أسرة كين الصينية في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي من منازلهم بالصين الشمالية و صحراء جوبي ، فأقبحموا منغوليا على القرغيز ، ودخلوا إقليم خطان وهزموا خان قشغر القره خاني والساطان سنجر السلاجوقي ، وصالحوا أتسر شاه خوارزم على جزية قدرها ثلاثون ألف درهم يؤديها اليهم في كل عام ^(٢) ، وبلغوا بالغ بعد أن بسطوا سلطانهم على التركستان وبلاد ما وراء النهر كلها .

واثن أدى زحف القره ختاي إلى فتح أبواب منغوليا لهجرات من المغول ، فقد لبثت القبائل التركية ، وغالبية من الأويغور والغز و بطونهما ، هي صاحبة النفوذ فيما بين منغوليا وبحر الخزر ، والأويغور هم أغلب الأتراك الذين وجددهم الغزاة

١ — Gnousset, R. L'Empire Mongol. p 11

٢ — جرى القره ختاي أو الكورخانيون في تقدير الجزية وفق النظم الصينية .
فترضوا على كل بناء دينار واحد . Barthold-Donskies p 98

المسلمون من العرب يبلاد ماوراء النهر حين دخلوها أواخر القرن الأول الهجرى .

حضارة الترك وإسلامهم :

تجمع كافة المصادر على أن الأويغور كانوا أرقى قبائل الترك قاطبة . وقد اجتمعت لهم مقومات الدولة بعد أن ارتقت الزراعة عندهم واتسعت رقعتها ؛ واستقرت حياتهم في كثير من المدن التي أقاموها ، حتى بعثوا بسفرائهم إلى خارج بلادهم وعقدوا المعاهدات مع غيرهم من الدول . وبلغ ارتقاء الوعي القومى عندهم إلى أن ثاروا على بعض حكامهم لإمعانهم في تقاليد الصينيين أعدائهم .

وآثر هؤلاء الأويغور في الغالب حضارة الصغد على حضارة الصين ، فاتخذ ملوكهم لأنفسهم لقب « شاد » مقابل لقب « شاه » الفارسي ، وأستخدموا أبجدية تُرَد إلى أصول صُغدية ، فكانت بذلك تتلاقى مع الأبجدية الفارسية الساسانية في النسب ، وكتبوا بها قبل تدوين نقوش أورخون بزمان طويل (١) .

وانتشرت الكتابة الأويغورية بين شعوب آسيا الوسطى

انتشاراً واسعاً (١) بعد سقوط دولتهم (٢) ؛ إذ لبشوا ، برغم أفول نجمهم السياسى ، كدولة ، يلعبون ، كأفراد ، دوراً سياسياً وثقافياً كبيراً عند دول الترك والمغول . فقاموا على تنشئة أولاد چنگيز خان واضطلعوا بالعمل فى دواوينهم ، وأرخوا لهم كما أرخوا لتيمور لنگك من بعد .

واستخدم خوانين فارس من المغول ، الأويغورية . فى تراسلهم مع بعض أمراء أوروبا فى القرن الثالث عشر الميلادى ، فكتبوا بها إلى باباروما وفيليب ملك فرنسا وإدوارد ملك إنجلترا لغرض قيام حلف بينهم لحرب المماليك المصريين (٣) .

وما تزال بدار الكتب الأهلية بمدينة قنسنة نماذج من هذه الكتابة ، كما كان بحاضرة الأتراك العثمانيين فى القرن العاشر الهجرى من هم على دراية تامة بهذه اللغة التى تسعد الأساس الذى قامت عليه

١ — فى بلاد الأويغور هذه عرف العرب المسلمون ورق الكتابة لأول مرة ، ليطالعوا العالم القديم عليه بدورهم من بعد ذلك . وكانت الصينيون كذلك يستخدمونه منذ زمن طويل .

Grousset. R. Hist de l'extreme Orient. T11 p 407 — ٢

Czaplicka p z7 — ٣

الجغرافية لغة الترك التقليدية (١) .

هذا ؛ وكانت الديانات السائدة في الأوساط التركية ، قبل اعتناقهم الإسلام ، هي الشامانية التي تقضى بعبادة الأسلاف وتعترف بالإله العظيم ، ولكنها لا تؤدى له الصلوات ، وإنما تقوم بها الآلهة الشريرة لقاء خطرها ، ثم البوذية الهندية والزرادشتية الفارسية التي كان لها نفوذ راجح ببلاد الصغد في الغالب .

وجاور المسلمون قبائل الترك ببلاد أواسط آسيا ابتداء من أواخر القرن الأول الهجرى ، وكان الإسلام قد اكتسح مراكز الزرادشتية ببلاد فارس

وطفقت قوافل التجار المسلمين تتوغل في مسالك آسيا الوسطى حتى بلغت الصين شرقا وحوض الفولجا غربا ، فكان هؤلاء التجار من أنشط الوسطاء في نشر تعاليم الدين الإسلامى .
وغنى عن البيان أن المسلمين لم يلبجأوا عموما إلى العنف لحمل الناس على الدخول في ملتهم ، كما كانوا يكفلون لغيرهم في الغالب ممارسة عقائدهم في حرية تامة كذلك ، حتى رأينا

١ — تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ص ١٠٠ ، ١٠١ — ولا تزال هذه اللغة

قائمة كذلك في التركستان الروسية .

المعتصم العباسي يتشدد في عقاب بعض المسلمين الذين اعتدوا على بعض معايد للفرس ببلاد الصغد (١) .

وأتى غدا الإسلام ينتشر ببلاد ما وراء النهر منذ أيام قتيبة ابن مسلم أواخر القرن الأول الهجري ، فإن إسلام الترك الجماعي لم يبدأ في صورة واضحة إلا أيام السامانيين في القرن الرابع الهجري ، فأسلم خان قشغر ، ساتوك بغراخان أمير القره خانيين ، وتسمى باسم هرون بن سليمان ، ودخل معه في دين الله أهل بلاد (٢) وفريق كبير من سكان التركستان الشرقية وإقليم خُطان .

كذلك اعتنق السلاجقة - وهم من عُز الخزر - الإسلام في القرن الرابع الهجري . وكانوا يُشتهرون بتمسكهم الشديد بتعاليمهم وحبهم على نصرة أهل السنة . وقد شمل سلطانهم بلاد ما وراء النهر وفارس والقوقاز ، ونفذت عروق منهم ومن جيرانهم إلى آسيا الصغرى فقصوا على الدولة البيزنطية الشرقية بها (٣) .

١ — تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ص ٨٦

٢ — تاريخ رشيدى ص ٢٨٦

٣ — الأتراك العثمانيون هم كذلك من الفز « الأوغوز » ، والتغز هم أيضا من الفز « توقوز أوغوز » قبائل الفزالتس . هذا وتخلط بعض المصادر العربية بين الأوينور والأوغوز وتعتبرهم قبيلة واحدة ، وإن كانوا جميعا من الترك .

ومهد انتشار الإسلام حتى الفولجا وتكاثر جوع الأتراك عند بحر آرال وما حوله ، لقيام الدولة الخوارزمية التي صار لها شأن كبير في القرنين الخامس والسادس الهجرى . وروج من أحوالها أن بلادها كانت من أبواب التجارة المهمة التي تصل ما بين أواسط آسيا والأقاليم الإسلامية المتحضرة . وكان الخوارزميون يعتقدون آمالاً كثيرة لمد نفوذهم حتى حدود الصين ، ومعهم حلفاؤهم من القبچاق الذين أسلموا على أيديهم بدورهم في القرن الخامس الهجرى ، لولا ظهور چنگيزخان

ونفذت الثقافة الإسلامية إلى الشعوب التركية بأواسط آسيا ، على أيدي شيوخ الفرس المسلمين في الغالب ، فنقلوا عنهم كثيراً من الألفاظ والمصطلحات العربية والفارسية إلى لغتهم . وما غدوا أن شغفوا بالآداب الفارسية شغفاً كبيراً حتى ازدحمت قصور حكامهم بشعرائها وكتّابها ، وكادت العربية لا تجد لها سوقاً رائجة إلاّ عند بعض المشتغلين بعلوم القرآن والسنة .

المغول في موطنهم :

فيما كانت العناصر التركية توثق من علاقاتها

وصلاتها — بالعالم الإسلامى لتبلغ من بعد ذلك بنفوذها وسطوتها إلى إقامة دول قوية لها امتسعة الرقعة عظيمة الثراء ، كانت قبائل المغول ، عند كرىولين وخنجان وفي مناطق الأون و تولا بمايلى أطراف الصين غربا ، تعيش عيشة بدائية صرفة ، فى مجموعات من الخيام الحقيبة المتناثرة بين السهول والغابات ، لا يدري العالم المتحضر من أمرها شيئا مذكورا حتى ظهور چنكيز خان فى القرن الثالث عشر الميلادى .

ولم تهتم الصين ، جارتهم الكبرى نفسها ، بأمر هذه القبائل التى كانت تعرفها باسم منغ وا / ومنغكو تاتا ، حتى رأى أحد أباطرة أسرة كين ، التى كانت تحكم بالصين الشمالية فى القرن الثانى عشر الميلادى ، أن يستعين بهم وبالقره ختاى فى القضاء على بعض أعدائه من القبائل التى كانت تنزل حول بحيرة بوير نور .

وعلا شأن قى من المغول يدعى تيموجين فى هذه المعارك وذاع صيته حتى اختارته قبيلته خاناً عليها ، ولُقب بچنكيز ، وأحيا اسم المغول من جديد بأن أعلن نفسه خليفة للبطل المغولى الأسطورى قتلىق خان الذى كان يُمسك بالرجل فيشطره شطرين كما يُسكسر عود من تصب ، والذى كان يبيت فى العراء

صيف شتاء، لا يأبى به بالزَّمهرير ولا يخشى الثلوج، حتى كانت لفحات
اللهب لا تعدو عنده لسع بعوضة (١).

واعتر خلفاء چنگيز ورهطه بهذه التسمية ، التي كانت في
أول أمرها من صنع جيرانهم (٢) حتى رأينا رجال البلاط ،
المغولي يحذرون الرحالة الأوروبي جون ريبك ، حين زار بلادهم في
منتصف القرن الثالث عشر، من أن يتحدث عن أميرهم حفيد الخان
الأكبر بأنه تتسرى؛ بل عليه أن يذكره بوصفه ملك المغول .
ولم تمض سنوات قليلة على بدء القرن الثالث عشر الميلادي

Howorth, H. History of the Mongols 1 p 44 — ١

Barthold, W. Turkestan p 382. — ٢

٣ — برغم التفات فريق من كتاب الفرس إلى التفرقة بين المغول والأتراك —
حتى قبل ظهور دراسات الأجاس — فوصفوا الأولين بالقبيح وتغنوا بجمال الآخرين ،
فقد اختلط الأمر على بعض من المؤرخين المسلمين بفعل الجوار في البيئة فعدوهم عرفا
واحداً . وساعد على هذا الخطأ ، أن المسلمين الأوائل كانوا يطلقون اسم بلاد
الترك على كافة المناطق التي تقع بين آخر حدودهم ، عند بلاد ما وراء
النهر ، والصين .

وبرغم تقرير مؤرخي الأتراك المحدثين بالتفرقة بين العنصرين ، فإن دعاة
التورانية من العشائين في القرن العشرين كانوا يقولون بأن الأتراك والمغول جنس
واحد ينتمي إلى الأصل التوراني ، فيتنزون بمدائح جنكيز ولا ينكرون من أعماله
شيئاً ، فما خبره ودمره هو عندهم دون ما يتخلف عن الحروب الحديثة بكثير :
«تعليقات الأمير شكيب أرسلان على كتاب حاضر العالم الإسلامي م ١ ص ١٥٩»

حتى انطوت قبائل المغول ، والأتراك ، في صحراء جوبي ، تحت راية الخان الجديد ليتجه بها من بعد ذلك إلى الصين فيقضى على أسرة سى هاى ، فى إقليم كانسو ، وأسرة كين ، فى الصين الشمالية ويدخل بكين ، ثم يستدير من هناك ليلبغ منغوليا ، فمكان أرسلان خان ، أمير القرلقى هناك أول حاكم مسلم يستسلم له .

وما غدا أن أقبل عليه فريق من زعماء الترك فى أواسط آسيا يخطبون وده ، وفيهم نفر من القيقاق ، حلفاء شاه خوارزم وأصحابه ، ومعهم فريق من التجار المسلمين الذين عاونوا الخان المغولى ، فيما بعد ، على فتح كثير من البلاد الاسلامية وتنظيم شئونها .

وحدث أن انتهب عامل شاه خوارزم على اترار بالتركستان قافلة قادمة من بلاد المغول وقتل رجالها ، وكانوا جميعا من المسلمين ، ظنا منه أنهم من عيون الخان المغولى ، لتتطلق الحرب بذلك فيجتاح المغول ^(١) بلاد ما وراء النهر كلها ويخربوا جرجان وبخارى وسمرقند أعظم مدنها تخريباً تاماً ويفنون

١ — كانت قوات المغول تضم جنوداً كثيراً من الترك . بل إن كثيراً من الأتراك ومن أسرى المسلمين وأغلب من عاشر المغول واختلط بهم ، كانوا يدعون نسبتهن للمغول جرأ للمقام .

حامياتها بعد أن استسلمت إليهم بخداهم ، ثم يسو قوا الأهلين أمامهم قسراً ليسكونوا لهم من سهام أعدائهم ذرءاً .

ولم يواف چنگيز خان أجله عام ١٢٢٧م حتى كان له : إلى جانب حوارزم وبلاد ما وراء النهر ، خراسان وأجزاء من بلاد فارس والهند ثم آذربيجان وأرض كبيرة في الجنوب الروسى ، لينطاق أبناؤه من بعده فيتوغلوا في كوريا والصين وإيران ، ويبلغ قوادهم القسرة الأوروبية فينفذوا فيها حتى البحر الأدرياتي وأبواب ثيناً ، ويفر من أمامهم ملوك بولنده والمجر ، وتقضى سهامهم على دوق روسيا ودوق سياليزيا وفرسانه التوتونيين .

ولولا أن اضطروا للعودة إلى بلادهم على أثر ما بلغهم من موت أوكتاي بن چنگيز خان المغول الأعظم في قراقورم ، ونشوب الفتن بالصين ، لأوقعوا بأوروبا من الخراب نظير ما أحلوه ببلاد الشرق الإسلامى التى صادقتهم ، إذ قضوا على قواتها العسكرية ودمروا أهم مراكز الثقافة بها . ولقد كادوا يأتون على تراث المسلمين الفسكرى كله . الذى قام على رعايته الخلفاء وزاد فى كنوزه الصفوة من العلماء جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن ، لولا أن تصدى لهم المصريون عند عين جالوت بفلسطين فيما

بعد ، فأنزلوا بهم أول هزيمة قاصمة عرفوها وردوهم على أعقابهم ^(١) .
وإذ كان توحي خان ، الابن الأكبر لچنگيز ، قد مات في
حياة أبيه ، فقد خلفه ابنه باتوخان على البلاد التي كان يتولاها
عند سهول القبچاق والأقاليم الواقعة فيما بين بحري آرال والخزر ،
وعند وادي الدون والبحر الأسود ، هذا في حين عقد لأوكتاي ،
أصغر أبناء چنگيز ، زعامة المغول في قراقورم .

أما چغتاي ، ثاني الأبناء ، فقد صار له بلاد ما وراء النهر
وخوازم وخراسان والتركستان ومغولستان . وهي مناطق
يتباين سكانها في أجناسهم ، من ترك ومغول وفرس وعرب ،
كما تتباين طبيعتها كذلك ، ففيها صحراوات واسعة جرداء
وبجوارها مراعي وسهول فسيحة خصبة نشأت بها مدن كثيرة
وقامت بها حضارات .

وكان چغتاي يُعد في حياة أبيه أقدر فقيه في الياصا ^(٢) . حتى منعه

١ — عام ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م — كان يقود المصريين سلطانهم المنصور
قطز . وعلق المؤرخ أبو الفدا على هذا الواقعة « م ٣ ص ٢٠٥ » فيقول « . . .
وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم ، فإن القلوب كانت قد
يئست من النصر على التتار لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ، ولأنهم ما قصدوا
إقليماً إلا فتحوه ولا عسكرياً إلا هزموه » .

٢ — أصلها دزاق ، فذكرها الفرس والعرب « ياصا » ترخيماً . وهي ==

قومه من المشاركة في الحروب بعد وفاة خاتمهم الأعظم . وبوصفه أكبر أبناء جنكيز ، الذين بقوا على قيد الحياة وأقدرهم ، عهدوا إليه كذلك برأسه مجلس الأمراء المغولي لتثبيت أو كتمان أصغر أبناء جنكيز على مقام أبيه وزعامته في قراقورم .

واتخذ الأمير چغتاي من المائى فى الوادى الأعلى لنهر إالى قصبة لما سلكه دون بخارى أو سمرقند أعظم مدائن بلاده ، إذ كان حولها تنزل قبائله وعشائره التى كان يعتمد عليها فى حروبه ؛ وكان رجالها بدورهم يفضلون حياة السهول والوديان الفسيحة على سكنى المدن ومخالطة أهلها الذين كانوا يرون فيهم وفى أهل الزراعة أجناسا منحلّة وعبيداً للأرض .

وأطلق اسم هذا الأمير ، دون أبناء جنكيز جميعا ، على بلاده وعلى أهلها ، فعُرفت هذه المناطق جميعها باسم بلاد چغتاي ، وعُرف الأتراك فيها بخاصة ، وكانوا غالبية كبيرة بها ، باسم الأتراك الچغتائيين .

== دستور المنول الذى دونه له الایفور أصحاب دیوانه . وهى منبج من القوانين للموضوعة على إرادة جنكيز وأنقع العادات القبلية ؛ ومما تدعو إليه : الاعتقاد بالله واحد والطاعة التامة للغان الأعظم :

تاريخ جهان كشا لعلامك الجوينى ص ٧٧ وما بعدها .

وبرغم بقاء چغتاي على دين آبائه وكرامية قومه عموما للمسلمين ، فقد اتخذ منهم وزراء ومستشارين ، وبُنيت في عهده جملة من المدارس والمساجد ببلاد ما وراء النهر وغيرها كذلك (١) .

ووافت چغتاي وأخاه أوغتاي المنيّة عام ١٢٤١ م وابن أخيهما ، باتوخان ، يتوغل إذ ذاك في أوروبا مع نفر من أبنائهم ، ليتسع نطاق المذابح والفتن بين أمراء المغول من بعد ذلك ، ويظل أمرها متصلا حقبة من الزمن كانت بمثابة الهدنة للعالم الإسلامي وأوروبا ، حتى قبض على زمام الأمور هولاكو بن تولى خان فعاود السير بقافلة التخریب المغولية من جديد . فعبّر بلاد ما وراء النهر إلى فارس حتى بلغ العراق ودمّر بغداد حاضرة الخلافة العباسية تدميراً ، وقتل الخليفة العباسي نفسه شر قتلة ، ولولا

١ — كانت المغول في الغالب على الشامانية والبوذية حتى اختلطوا بالتك وغيرهم من المذاهب في فتوحاتهم فأسلم فريق كبير منهم . وكان أول من أسلم من أمرائهم هو برکه خان حفيد باتو خان وزعيم القبيلة الذهبية وذلك في القرن السابع الهجري ، وتبعه أحمد تسكودري الإيلخاني حفيد هولاكو بفارس ، حتى جاء غازات خان وأخوه ألباتو محمد خدابنده فانخذلوا الإسلام ديناً رسمياً لدولتهما . أما الجفتائيون فلم يبدؤا إسلامهم الجماعي إلا في القرن الثامن الهجري .

توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام من ١٨٨٩ وما بعدها : بازنولد : تاريخ الحضارة الإسلامية . ص ٨٩ وما بعدها

عد المصريين له بأرض فلسطين ، كما هو معروف مشهور ، لقضى على تراث المسلمين كله وخرّبت ديارهم جميعا فى الغالب . وبموت هولاكو بدأ نجم المغول فى الأفول التام . وأتاحت الاضطرابات ، التى غدت تعم أملاكهم ، الفرصة لكثير من الأقاليم لتتسلخ عن سلطانهم .

وما لبث الأتراك ببلاد ما وراء النهر ، وكانوا غالبية كبيرة ، أن استعادوا كثيراً من نفوذهم القديم حتى غدا تنصيب أمرائهم من الچغتائين يجرى على هواهم .

ولم يعد الأمراء المغول ، من بيت چغتای ، من النفوذ والسلطان إلا فى قشغر ويرقند و آلا طاغ ومغولستان ، وبقي خواندينهم يحكمون هناك حتى اقتحم الأوزبك أغلب منازلهم فيما بعد .

تيمورلنگك وخلفاؤه :

كان ظهور تيمورلنگك ببلاد ما وراء النهر فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى بداية تحوّل جديد فى تاريخ آسيا الوسطى ، إذ انتقلت مقاليد الأمور هناك من أيدي المغول الچنگيزيين إلى أيدي الأتراك الچغتائين ، حتى انتهى الحال بحفيد هذا الخان التركى ، ظهير الدين محمد بابر ، إلى بسط سلطانه على الهندستان .

وقد والى أبناؤه من بعده فتوحاتهم هناك، على ما بيناه، حتى أظلمت
رايتهم شبه القارة الهندية كلها.

ولقد وصل تيمور في شبابه بجده وذكائه وشجاعته إلى أن
استوزره الأمير الجغتائي إلياس بن تغلق تيمور صاحب سمرقند
إذ ذاك، فما غدا الوزير أن انقلب على أميره، حتى اتخذ مكانه على
عرش سمرقند عام ٧٧١ هـ / ١٣٧٠ م، بعد أن استولى على بلخ ونشر
سلطانه على القسم الغربي من بلاد چغتاي، وإن ترك لأمراء المغول
به بعض امتيازاتهم وحفظ عليهم مراسم الأمانة (١).

وتملكته شهوة الفتوح، فضم إلى مملكته مغولستان
وخوارزم، كما اقتحم حدود الهند فبلغ دهلي التي أستعصت على
المغول من قبل، فلم يرجع عنها حتى دمّرها وساق معه كثيراً
من أهلها أسارى، وفيهم خير أصحاب الحرف والمهن ليقيموا
له منشآت بيـلاده.

كذلك استولى على فارس ثم نفذ من العراق إلى بلاد السكرج
والشام، ولم يرجع عن آسيا الصغرى حتى أوقع في أسره بايزيد

١ — ما تذكره بعض المراجع من نسبة تيمور إلى المغول هو من وضع بعض
كتاب اللايفور الذين ذهبوا إلى حد جمع أسلاف جنكيز وتيمور عند جد معين، أرادوا
بذلك أن يصفوا على تيمور عراقة النسب تقرباً منه وتعلقاً.

سلطان العثمانيين (١). وإن هي إلا بضعة سنين من بعد ذلك حتى كانت بنوده تخفق فيما بين موسكو والكنج .

هذا ؛ وكان تيمور ، على جهله بالقراءة والكتابة ، حفيّاً وأولاده بأهل العلم وأصحاب الآداب والمعارف ، حتى بلغت عاصمتهم سمرقند مركزاً فذاً بين مراكز الثقافة الإسلامية .

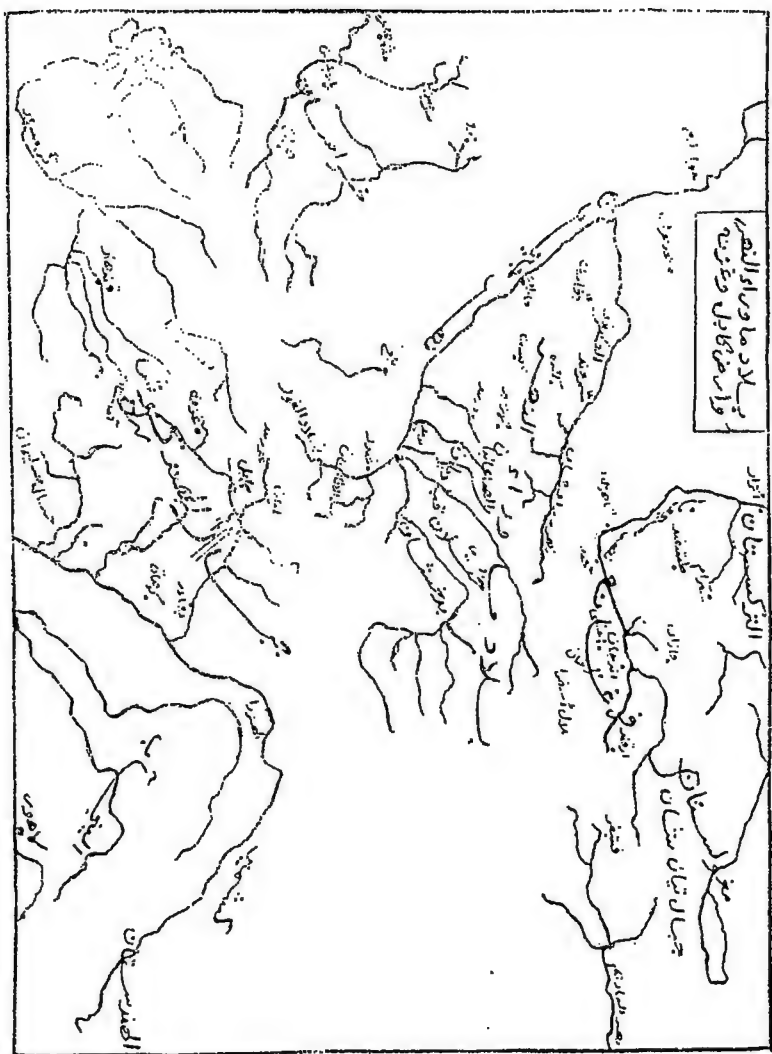
وما غدت هذه المدينة ، التي تأتق الخاقان التركي في تجميّلها بمشآته الكثيرة الفخمة ، والتي شق إليها طرقاً برية جديدة تصلها بفارس والهند ؛ أن انقلبت إلى سوق للتجارة هامة ومركز من أهم مراكز الاتصال بين الصين وبلاد آسيا الوسطى وإيران وآسيا الصغرى ، تُعرض بها صنوف السلع وتُباع بمختلف الأجناس .

ومات تيمور عام ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م في إحدى حرابه مع جيوش الصين عند اترار ، فاقسم ملكه من بعده ولده جلال الدين شاهرخ ومعين الدين ميرانشاه . حتى إذا ما قتل الأوزبك (٢) ثأى الأميرين التيموريين واستولوا على أجزاء من بلاده : طفق

١ — تذكر بعض الكتب الحديثة أن تيمور قد حمل غريمه في قفص ، وهو خطأ تاريخي نتج عن سوء فهم بعض الكتاب لمذلول هذا اللفظ في التركية ، فهو يطلق أيضاً على المواجه والأعداء التي لها نوافذ تتغللها أسنخ من حديد .

Hammer : Hist de l'Empire Ottoman T. 11 p 96-121

٢ — الأوزبك نسبة إلى أوزبك خان حفيد جنكيز من فرع توشى خان .



الأول يصطنع الحيلة معهم حتى أبعد خطرهم عنه ، ليعيد أغلب بلاد آبيه إلى حظيرته من جديد فيما عدا الشام وجنوب فارس (١). وخلف ألغ بك أباه شاهرخ عام ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م ، فدخل في منازعات وحروب متواصلة مع أهل بيته من الأمراء ، ولم يقف الأمر عند ضياع الكثير من أراضيه حتى قضى عليه ابنه عبد اللطيف ميرزا بنفسه ليُقتل هو بدوره بعد قليل .

ولئن خبت عند ألغ بك ملكته الحربية فقد تلالاً عنده نور المعرفة ، حتى هدته بصيرته إلى أن يقيم مدرسته الجامعتين ، في سمرقند وبخارى ، التي كتب على أبوابها ، طالب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة (٢) ،

وأدى اشتغال هذا الأمير بالعلم وشغفه به إلى أن وفد إليه كثير من علماء فارس وطلبتها ، فكان يشاركهم في الدرس بنفسه ويدرس معهم حركات الكواكب في مرصده الكبير الذي أقامه بسمرقند . وقد نُظمتُ باسمه جداول للهيئة كانت آخر كلمة لها — ذا العلم في وقته .

١ — تاريخ عموى إيران لعباس إقبال ص ٢٣٢ — ٢٤١ .

٢ — ١ — تاريخ الحضارة الإسلامية ١٠٨ — ١٠٩ .

ب . — ٣ . p 181 - Barthold-Donskies .

وبرغم اعتزاز هذا الأمير بتركته فقد كان شديد التعاق بكل ما يُرجى فيه رقي الإنسانية والفكر البشري عامة .

وجلس على عرش سمرقند من بعده الأمير التيمورى أبوسعيد ميرزا ، بعون من الأوزبكيك ، ليقيم له من بعد ذلك ملكا واسعا ضم أجزاء من السند وخراسان وسيستان وامتد إلى العراق . حتى إذا ما هزم التركان فافتحم أذربيجان . لينحدر منها إلى العراق ، استطاع أوزون حسن زعيم التركان أن يتسلل إلى جبال أذربيجان فيقطع عنه الإمدادات ، لتنفشى المجاعة في الجيش من بعد ذلك وينفرط عقد الجند وينتهى الأمر بالسلطان أبى سعيد نفسه إلى الوقوع فى الأسر ، ثم القتل .

وترك أبوسعيد عشرة من الأولاد ، ولكن لم يخلفه فى ملكه الواسع ، الذى كان يمتد من العراق إلى السند ، سوى أربعة منهم . فولى أحمد ميرزا إقليم سمرقند وبخارى ، وولى ألغ بك إقليم كابل وغزنه ، وولى محمود ميرزا استراباد وهرات ، ليغتصبها منه ابن عمه السلطان حسين بيقرا . فيستقر من بعد ذلك فى الصاغانيان وبدخشان (١) .

أما رابع هؤلاء الأربعة فهو عمر شيخ ميرزا الذى ولى إمارة

فرغانه ، فأدى به طموحه إلى أن يدخل مع جيرانه من المغول
أُصهاره والأتراك إخوته ، في حروب متواصلة ابتغاء توسيع رقعة
ملكه ، ليضى عام ٨٩٩ هـ ، على أثر سقوطه من أعلى حصن له ،
فيجمل عبيء خصوصاته من بعده ابنه الصبي ظهير الدين
محمد بابر الذى قُبِضَ له أن يقيم أعظم دولة عرفتها شبه القارة الهندية
في تاريخها .

البيئة في بلاد ما وراء النهر .

في بلاد ما وراء النهر ورث ظهير الدين محمد بابر الملك عن
آبائه صيبا وقضى بها سنين غير قصيرة في كفاح متواصل قبل
أن يولى وجهه قبَل المشرق : لينتهى به المطاف والسعى من بعد
ذلك إلى إرساء أسس الدولة المغولية في الهند .

وعن طريق هذا الاقليم ، أغنى أرض سيحون وجيحون ،
نفس الأتراك والمغول إلى بلاد العالم الإسلامى ليغيثوا وجه
التاريخ بها فى الغالب .

توسط جبال أسفرا ، المتفرعة من السلسلة الآسيوية
العظمى ، هذا الإقليم فيقع إلى الجنوب منها وادى جيحون وإلى
الشمال منها وادى سيحون

وأهم أقاليم جيحون الجنوبية هي بدخشان وباخ وخوارزم .
وتتعدد باخ أقدم هذه الأقاليم الثلاثة وأعرقها ، وتُعرف
عاصمتها ، التي تحمل اسم الاقليم كذلك ، عند مؤرخي العرب
باسم « أم البلاد » ، وبظاهرها كان يقوم معبد النوبهار الذى
اضطاع آل برمك بالخدمة فيه (١) .

هذا ؛ كما تشتهر خوارزم بقيام أسرة حاكمة قوية
لعبت دوراً مهماً فى تاريخ هذه المنطقة فى القرنين السادس
والسابع الهجرى ، وهى الأسرة الخوارزمية .
أما بدخشان فهى مفتاح الطريق إلى الهند .

والقسم الشمالى من وادى جيحون جبالى فى الغالب تكسوفته
الثلوج شهوراً عدة فى السنة . وبه أقاليم خُتَلان وحصار ، الذى
يعرف أيضاً باسم چغانيان أو الصاغانيان . ثم ولاية كش مسقط
رأس تيمور .

وإلى الشمال من كش وإلى الشرق من صحراء خوارزم يقع
وادى الصغد المعروف بخصب أراضيهِ ووفرة مغانيهِ . وتقوم
به المدينتان المشهورتان سمرقند وبخارى .
وسمرقند هى التى اتخذ منها تيمور وأولاده حاضرة

لملكهم ، وبها عرف المسلمون صناعة الورق لأول مرة . أما بخارى فقد اتخذها السامانيون قاعدة لهم ، وبني بها مُسلم بن قُتيبة ، من قبل ، أول مسجد بالمنطقة كلها .

وتُعد المدينتان من أهم مراكز الثقافة الإسلامية في القديم على كل حال .

والأقاليم التي تقع في حوض سيحون هي في أهميتها دون سابقتها بكثير .

وأهم هذه الأقاليم ولاية فرغانة التي تعرف أيضا باسم خُجند ، وإلى الشرق منها تقع قشغر ، كما تقع طشقند عند حدودها الشمالية الغربية ، في حين ينحصر إقليم أشروسنة بين فرغانة والصاغانيان .

هذا ؛ وكانت أرض التركستان تمتد إلى الشمال من فرغانة وطشقند فيما بين سيرام رافد سيحون وبحر آرال . وقد اتخذ منها الأوزبك ، أيام زعيمهم شيباني خان ، قاعدة لغاراتهم الكثيرة على جيرانهم .

وإذا ما نظرنا إلى وجه الأرض بإقليم بلاد ما وراء النهر ، وجدنا الحُصْب يتوفر في أغلب فرغانة وخوارزم وبلخ

وبدخشان وكش والصاغانيان (١). وفيما عدا ذلك فقد كان الجذب يغلب على أرضه .

لذلك كانت الحياة هناك في الغالب متنقلة من محطة حيث الجذب والصحراء ، مستقرة راقية حيث الخصب والتماء الذي يمد عادة لقيام المدن والدول .

وأول من سكن هذا الإقليم : فيما يرجح كثير من المؤرخين ، عناصر تركية من السيث والتورانيين الذين كانوا مصدر تهديد دائم لبلاد فارس (٢) . وظلت موجاتهم لا تنحسر عن هذه البلاد منذ غارات الهون على أواسط آسيا في القرون السابقة للميلاد حتى الغزو المغولي في القرن الثالث عشر الميلادي

ولم يمنع وفود السيث والهون ببلاد فارس من مد نفوذها في هذا الإقليم حتى اتخذ بعض ملوكها من مدينة بلخ قسبة لهم ، ونزح إليه كثير من الفرس فمارسوا الزراعة بوديانه الخسبة ، كما لاذ به جمهرة من سراثم حين اقتحم العرب المسلمون بلادهم عليهم

١ — معجم البلدان لياقوت الحموي ص ٣٧٠ — ٣٧٢

٢ — مما يحتج به بعض الباحثين في ذلك هو شيوع لفظ « قند » في أسماء المدن هناك كسمرقند وأزقند وطشقند الخ ، وهو تركي قديم بمعنى مدينة .

Barthold. Turkestan pp 96,97.

في القرن الأول الهجري .

وما غدا العرب أن طووا أغلب هذه البلاد تحت رايتهم بعد قليل ، فإذا بفريق من أبناءها من فرس وترك يصيبوا بالدولة الإسلامية حظا وافرا فيبلغوا أرقى المناصب بها ^(١) .

ولم تكنف العناصر الفارسية الإسلامية ، حين عظم نفوذهم في الدولة الإسلامية ، بإقامة دول لهم شبه مستقلة في أجزاء من هذا الإقليم ، حتى راحت تعمل لإحياء تراث الفرس القديم والنهضة بالآداب الفارسية من جديد .

وكان السامانيون ، الذين عمرت دولتهم في القرنين الثالث والرابع الهجري ، هم أصحاب اليد الطولى في هذا الميدان ، ليأتي سلاطين الترك ، من بعدهم ، من الغزنويين والسلاجقة وغيرهم ، فيسيرون على نهجهم في العناية بالثقافة الفارسية ويزيدون عليه ^(٢) ، فلم يمس إلا قليل حتى استردت الفارسية مناطق انتشارها القديم ببلاد ما وراء النهر ، لتسرب من بعد ذلك إلى مجتمعات الهندستان كذلك

١ — كانت بلغ من أكثر الأقاليم القديمة مساهمة في بناء الحضارة الإسلامية ، ومنها خرج البرامكة ، وزراء العباسيين ، وكثير من العلماء الكبار . تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٦٣ .

٢ — المصدر السابق ص ٦٨ ، ٧٢ ، ٨٥ .

وتبلغ بذلك كله إلى أن تصبح بحق ثانی لغات العالم الإسلامی .
انتشاراً بعد العربية .

وكان مما ساعد على رواج هذه اللغة بين العناصر التركية ببلاد ما وراء النهر ، تصدى شيوخ الفرس في الغراب لتلقين الترك تعاليم الدين الإسلامی ومبادئه ، فكانوا يلقونهم إياها بالعربية ويحببون إليهم آدابهم الفارسية معها .

وطغى نفوذ الترك على سلطان الفرس بأغلب بلاد ما وراء النهر، حتى كان الأولون هم أصحاب السيادة الفعلية هناك قبيل مجيء المغول في الغالب .

واستقر قسم من القبائل المغولية الوافدة مع چنگيز خان ببلاد ما وراء النهر جنباً إلى جنب مع القبائل التركية التي كانت - خصوصاً في الشمال وأكثر الوسط - تمثل الغالبية الفعلية للسكان .

وكان من الطبيعي أن تتأثر القلة المغولية الحاكمة ، لبدواتها ، بالكثرة التركية المحكومة ، التي كانت تعيش في محيط الحضارة والمدنية الإسلامية وتتجاوب معها ^(١) ، فأخذت عنها لغتها وامتزجت بها ، ليزداد بذلك نفوذ الترك ويعظم شأنهم ويُدْعَمُ كياناتهم السياسية .

وبهذا كان قيام دولة المغول أكثر أهمية في نظر الترك ، ما هو في نظر المغول أنفسهم ؛ فلم يقف الأمر عند حد تفوق الترك الثقافي حتى انتهى بهم المطاف إلى استيلائهم على مقاليد الحكم في هذه البلاد وإخضاع غزاتهم لسلطانهم .

وساعد على انتشار اللغة التركية بين القبائل المختلفة التي كانت تسكن بلاد چغتای ، خضوعها جميعا لحكومة واحدة .

وتسرب إلى هذه اللغة قدر غير قليل من الألفاظ والمصطلحات العربية والفارسية ودرجت في مدارج الرقي ، حتى إذا ما جاء القرن السابع الهجري رأينا التركية الجغتائية تحتل المكان الثالث ، بعد العربية والفارسية ، بأواسط آسيا . وما تزال هذه اللغة تُسمع إلى اليوم في المدن التي تقع في نطاق چغتای القديمة .

هذا ؛ وتعد أيام الأمراء التيموريين ببلاد ماوراء النهر بمثابة العصر الذهبي للأدب الجغتائي الذي تتمثل أحسن نماذجه في أشعار علي شيرنوائى ومنشورات ظهير الدين بابر حتى اتسعت الكتابة التقليدية الأدبية للترك جميعا (١) .

كانت الحياة بهذه البلاد تميل في الغالب إلى الاستقرار وتنعم
بمظاهر الحضارة والمدنية ما خضع الاقليم كله لحاكم واحد قوى
يُقرُّ الأمور فيه ويدفع أخطار الغزو عن حدوده .

على أن تيمورلنك . آخر أصحاب هذا الإقليم الكبار ، لم
يكد يمشى حتى غدت الفتن والاضطرابات تعم هذه الأرض
كلها ، لينتهى بها الأمر إلى تمزيقها إلى ولايات عديدة ، أصحابها
متقاتلون متعادون على الدوام ، برغم ما كان يربط بينهم من وشائج
القربى وروابط الدم ، ومن حولهم الأوزبك والمغول والتركان
يتربصون بهم الدوائر ولا ينفكون عن مهاجمتهم وتخطف
أراضيهم .

ونجم عن تمزيق الاقليم إلى ولايات عدة وما يستتبع ذلك عادة من
ضآلة عدد السكان بالتالى ، أن غدت قوات كل أمير لا تعدو أن
تكون مجموعات من العصابات الإقطاعية التى تعتمد فى انتصاراتها
على عنصرى المفاجأة وسرعة الحركة ، فتوقع بعدها قبل أن يتمتع
فى حصونه .

وغالباً ما كانت الهدنة تُعقد بين الخصمين بنفس السرعة التى
اشتعلت بها نيران الحرب .

وفنون الحرب بهذه البلاد كان معظمها بدائياً يقوم على

المبارزة بالسيوف والترشق بالسهم ، وتسلق الأسوار بسلام ،
الحبال .

ولم يكن البارود وألغامه غرباء عليهم . فقد كانوا يستخدمونه
أيام السلم في مناجم الياقوت ومواطن العقيق بيدخشان .
وبرغم استخدام بعض الأمراء لعدد قليل من بنادق العصر
ذات الزناد وبعض المدافع ، التي عرفوها عن طريق الفرس نقلًا
عن العثمانيين في الغالب ، فقد بقيت السيوف والسهام وهجمات
الفرسان هي الفصيل في المعارك .

هذا ، ولم يغفل أحد من هؤلاء الأمراء ، حين كان يتاح له تجهيز
جيش كبير ، عن إحياء تشكيلات تيمور الخربية وتقاليد العسكـرية
في تقسيم الجيش إلى قلب وجناحين وإقامة فرقٍ للمناوشة بأقصى
الجناحين .

أما التشريع الغالب عند هؤلاء الأمراء جميعاً فكان الفقه
الإسلامي ، دون إغفال أمر العرف القبلي المتوارث وتقاليد
الياسا المغولية .

وبرغم ما كان من اشتغال الأمراء التيموريين بنزاعهم
والتحاماتهم المتواصلة في الحروب ، فما يسترعى الانتباه أنهم لم

يتخلوا أبدأ عن العناية بالآداب والعلوم والفنون والاشتغال بها ، فحرصوا دوما على الظهور بمظهر رعاة الثقافة والمدنية . وكان من أبرزهم في هذا الميدان وأعلامهم كعبا ، بعد أنغ بكك ، السلطان حسين بيقر الذي جمع ببلاطه في خراسان أساطين الفنون وشيوخ العلم والمعرفة في عصره ، وبهذا الأمير خُتِمت صفحة كبار التيموريين ببلاذ ما وراء النهر بعد ما كان من إرغام الأوزبكك لبابر على الخروج من هذه الديار .

مكتبة البحث

مراجع فارسية :

- ١ -- إقبالنامه جهانگیری : لمعتمد خان . کلکتا ١٨٦٥ م
- ٢ -- أكبر نامه ، أو تاريخ أكبر شاه باتفصيل احوال پدرش همايون ، لأبي الفضل بن المبارك - مخطوط بدارالكتب المصرية برقم ٨ م تاريخ فارسی .
- ٣ -- انتخابات جهانگیری - غير معروف مؤلفه .
(مجموعة إلیوت ٦)
- ٤ -- آیین اکبری لأبي الفضل بن المبارك .
مخطوط بدارالكتب المصرية برقم ٥٠ م تاريخ فارسی
- ٥ -- بارنامه (بالترکیمة الجغتائية) - نشر السيدة
: مت بقریدج .
الترجمة الفارسية لعبد الرحيم خان خانان - نشرها
محمد شیرازی .
بمبای ١٣٠٨ هـ

- ۶ — یادشاهنامه - لعبد الحمید لاهوری . (مجموعة الیوت ۷)
 ۷ — تاریخ احمد شاہی ، غیر معروف مؤلفہ (مجموعة الیوت ۸)
 ۸ — تاریخ آٹنی ، لاحمد داود . (مجموعة الیوت ۵)
 ۹ — تاریخ جہانگشاہی ، لعلاء الدین عطا ملک الجوینی

۳۰ م - لندن ۱۹۱۱ ، ۱۹۱۶ ، ۱۹۳۷ .

- ۱۰ — تاریخ حبیب السیر فی أخبار أفراد البشر .
 تألیف غیث الدین بن ہمام الدین الحسینی
 المعروف بخواندمیر ۴ م . (طہران ۱۳۷۳ ھ)

۱۱ — تاریخ رشیدی ، لمیرزا محمد حیدر دوغلات .

الترجمة الإنجلیزیة لاسیر دنیسون روس مع

تعایقات له . لندن ۱۸۹۸ م

۱۲ — تاریخ سلاطین أفغانی لاحمد یادگر . (مجموعة الیوت ۵)

۱۳ — تاریخ شیر شاہ لعباس خان سروانی (د د ۴)

۱۴ — تاریخ عالمگیر ثانی ، غیر معروف مؤلفہ .

(د د ۸)

۱۵ — تاریخ عمومی ایران لعباس إقبال . طہران

۱۶ — تاریخ فرشتہ لمحمد قاسم ہندوشاہ ، جزءان فی مجلد .

لکھنؤ ۱۳۲۳ ھ

- ۱۷ — تاریخ گجرات لشاہ اُبی تراب ولی . کلکتہ ۱۰۹۹ م
- ۱۸ — تاریخ مظفری ، محمد علی خان . (مجموعۃ البوت ۸)
- ۱۹ — تاریخ ہندی ، لرستم علی . ()
- ۲۰ — تتمۃ واقعات ، جہانگیری محمد ہادی . ()
- ۲۱ — تذکرۃ آئندرام مخاص . ()
- ۲۲ — تذکرۃ الواقعات اُوہمایو ننامہ : لجوہر ()
- ۲۳ — تکملۃ اکبر نامہ ، اعنایۃ اللہ . ()
- ۲۴ — ریاضُ السلاطین : اُو تاریخ بنغالۃ .
- تألیف غلام حسین سلیم . کلکتہ ۱۸۹۰ ، ۱۸۹۸ .
- ۲۵ — سیرُ المتأخرین لغلام حسین خان . (مجموعۃ البوت ۸)
- ۲۶ — شاہجہا ننامہ . اعنایۃ اللہ . ()
- ۲۷ — طبقات اکبری ، انظام الدین أحمد بخشی .
- ()
- ۲۸ — ظہر نامہ ، لنظام الدین شامی . بیروت ۱۹۲۷
- ۲۹ — عالمگیری نامہ ، لمنشی محمد کاظم بن محمد امین .
- کلکتہ ۱۶۶۸ م
- ۳۰ — عبرتنامہ . محمد قاسم . (مجموعۃ البوت ۷)

- ٣١ -- عمل صالح : لمحمد صالح لاهورى . كلكتا ١٩١٢ م
 ٣٢ -- فرحة الناظرين : لمحمد إسلام . (مجموعة اليوت ٨)
 ٣٣ -- مآثر الأمراء لشاه نواز خان - ٤ م . كلكتا ١٨٨٠ - ١٨٩٦ م
 ٣٤ -- مآثر عالمگیری لمحمد ساقى مستعد خان كلكتا ١٨٧١ م
 ٣٥ -- مرآة سکندرى لاسکندر بن محمد .

(خطوط بدار الکتب المصریة برقم ٥٢ تاریخ فارسی)

- ٣٦ -- منتخب التواریخ ، لعبد القادر بن ملوک شاه بداونی - ٣ م
 كلكتا ١٨٦٨ م
 ٣٧ -- منتخب اللباب لخانی خان (مجموعة اليوت ٧)
 ٣٨ -- واقعات جهانگیری ، سیرة جهانگیر (٦)
 ٣٩ -- وقایعی (حالات) لاسعد قزوینی (٦)

مراجع عریصة : (مساعدة)

- ١ -- اختلال التوازن العالمی ، لغوستاف لوبون ،
 ترجمة صلاح الدین وصفی . القاهرة ١٩٢٨ م
 ٢ -- تاریخ الحضارة الإسلامية ، لبارتولد ، ترجمة
 حمزة طاهر . القاهرة ١٩٣٣ م
 ٣ -- تاریخ الکامل ، لابن الأثیر - ١٢ ج . القاهرة ١٣٠٢ هـ

- ٤ -- چنگيز خان . لهارولد لامب ، ترجمة بهاء الدين نوري .
بغداد ١٩٤٦ هـ
- ٥ -- حاضر العالم الاسلامي ، تأليف لوترب ،
تعريب عجاج نويهض . (انظر تعليقات الأمير
شكيب أرسلان عليه) ٤ م القاهرة ١٣٥٢ هـ
- ٦ -- حضارات الهند : لغوستاف لوبون ترجمة
عادل زعيتر القاهرة ١٩٤٨ هـ
- ٧ -- الدعوة إلى الإسلام ، توماس أرنولد ،
ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرين القاهرة ١٩٤٧ هـ
- ٨ -- ذكر مال الهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة ،
لأبي الريحان البيروني (نشر زاخاو) لندن ١٨٨٧ م
- ٩ -- فتوح البلدان ، للبلاذري
ليدن ١٨٦٦ م
- ١٠ -- المختصر في أخبار البشر ، لأبي الفداء
القاهرة ١٣٥٢ هـ
- ١١ -- معجم البلدان ، لياقوت الحموي ٨ م
القاهرة ١٩٠٦ م
- ١٢ -- الهند وجيرانها ، لول ديورانت ،
ترجمة زكي نجيب محمود القاهرة ١٩٥٠ هـ

مراجع أوروبية :

- 1 — Ameer Ali. The Spirit of Islam. London 1923
- 2 — Barthold W. Histoire des Turs d'Asie
Centrale. Adapt. Fr. par Mme Donskies.
Paris 1945
- 3 — Barthold. Turkestan London 1928
- 4 — Binyon. Laurence. The Court Painters of
the Grand Moghul. Oxford 1921
- 5 — Cambridge History of India. 5 Vols.
Cambr. 1922 - 29
- 6 — Czaplika. M. A. The Turks of Central
Asia. Oxford 1918
- 7 — Degwngnes, J. Histoire générale des Huns,
des Turcs, des Mongols etc ... 5 Vols. Paris 1756-58.
- 8 — D'Ohsson, Baron C. Histoire des Mongols.
Amsterdam 1852.
- 9 — Duff, Grant. Hist of the Mahrattas. 2 Vols. 1921.
- 10 — Dunbar, G. A. History of India from the
Earliest Times to the Present Day. London 1936

- 11 — Elliot H M. & Dowson, John. The
History of India as told by its own
Historians. The Mohamadan Period. 5 Vols
London 1867-77
- 12 — Cunningham J. D. Hist. of the Sikhs. 1916
- 13 — The English History Review ;1898.
- 14 — Gait, Edward. Hist of Assam Calcutta 1923
- 15 — Garra:t. G. T. The Legacy of India Oxford 1938
- 16 — Garret Ed. Mughal Rule in India 1930
- 17 — Grenard Fer. Baber Paris 1930
- 18 — Grousset, R. L'Empire Mongol. « 1941
- 19 — Grousset, R. Hist. de l'Extrême Orient.
2 Vols. Paris 1929
- 20 — Hammer, J. D. Histoire de l'Empire
Ottoman. 18 Vols. Paris 1830
- 21 — Havell, E. B. The History of Aryan
Rule in India. London
- 22 — Howorth, H. History of the Mongols.
3 Vols. London 1846
- 23 — The Indian Moslems by an Indian.
Mohamedan. London 1928

- 24 — Ishwari Prasad. A short History of Muslim
Rule in India . Allahabad 1933
- 25 — Islamic Culture Review (1928)
- 26 — Lane-Poole, St. Medieval India under
Mohammedan Rule. London 1917
- 27 — Moreland, W. H. & Chatterjee . A short
History of India. London 1936
- 28 — Sarkar. Hist. of Aurengzib. 2 Vols Calcutta 1912-24
- 29 — Sarkar. , Shivaji and his times. Calcutta 1919.
- 30 — Smith, V. A. Hist. of Fine arts in India
and Ceylon. Oxford 1930
- 31 — Sir Jar Ikbal Ali Shah. Afghanistan. London 1928
- 32 — Spear, P. Twilight of the Mughuls. Cambridge 1911
- 33 — Vambery, A. A History of Bokhara London. 1873

دھرس اُجدی عام

ابراہیم شاہ سور ۹۱، ۹۶، ۹۸،

۱۰۲

ابراہیم اللودھی ۱۴، ۱۵، ۲۲،

۲۶، ۳۰، ۹۰، ۲۷۰

ابو الحسن قطب شاہی ۲۳۸، ۲۳۹

ابو الفضل بن المبارک ۱۲۶، ۱۲۸

۱۵۶، ۱۵۷، ۱۶۰، ۱۶۴

۱۶۷، ۳۰۸، ۳۱۰، ۳۲۰

ابو الفیض فیضی (اظہر: فیضی)

ابو القاسم بن کامران ۱۰۴

ابو بکر قشغری ۳

ابو سعید میرزا ۱۵، ۳۵۴

اترار ۳۴۴، ۳۵۱

اتسز شاہ خوارزم ۳۳۶

اتیلا ۳۳۴

أجین ۲۰۴

الاحتلال البریطانی ۲۷۸ — ۳۰۲

أحمد آباد ۷۷، ۱۱۴، ۱۱۷،

۱۱۸، ۱۴۶، ۱۵۵، ۳۱۱

أحمد أبدالی الدرانی ۲۶۷ — ۲۷۱

۲۷۴، ۲۸۸

آتوک ۲۲۰

آجیر ۱۴۶، ۲۲۸

آدینہ بکخان ۲۶۹

آذریجان ۳۴۵، ۳۵۴

آرال ۳۴۱، ۳۵۷

آسام ۲۱۷، ۲۸۳

آشوگ (آزوکا) ۹۵

آصاف خان ۱۰۹، ۱۷۳، ۱۸۵

۱۸۶، ۱۸۷

آکرا ۱۶، ۲۰، ۲۳، ۲۴،

۲۹، ۳۶، ۵۵، ۵۶،

۵۸، ۸۱، ۹۱، ۹۸،

۱۰۵، ۱۱۴، ۱۴۶، ۲۰۵

۳۱۱، ۳۱۲، ۳۱۳

آل تعلق ۱۲۲

الاطاغ ۳۴۹

آلتا ۲۳۹

آمبر ۲۲۶

آین اکبری ۱۵۷، ۳۴۱

۸۸، ۵۲، ۵۰
 اسماعیل الصفوی الثاني ۱۷۷
 أسیرکاه ۱۷۱
 أشروسه ۳۵۷
 أعظم بن أورنگزیب ۲۲۷، ۲۳۷
 ۲۵۴، ۲۵۳، ۲۴۳
 أفرا سیاب ۲۲۷
 الأفریدی ۷، ۱۷، ۲۱۹، ۲۸۶
 الأفغان ۲۱۹، ۲۸۴، ۲۸۶ —
 ۲۹۳
 إقبال (انظر : محمد إقبال)
 أکنتاه ۲۳۰
 أكبر (جلال الدین) ۶۶، ۸۷
 ۹۴، ۹۲ — ۱۶۳، ۱۷۱
 ۱۷۲، ۱۸۸، ۲۱۹، ۲۲۸
 ۲۷۰، ۳۰۵، ۳۰۶، ۳۱۰
 ۲۱۹، ۲۱۹، ۲۲۱
 أكبر بن اورنگزیب ۲۲۶، ۲۴۷
 ۲۲۹
 أكبر شاه الثاني ۲۹۰، ۲۹۱
 أكبر نامه ۱۵۷، ۳۲۰
 التای ۳۰۳
 "السید أحمد خن ۲۹۸، ۲۹۹
 ۳۲۵، ۳۰۰
 السید أمير علی ۳، ۱، ۳۰۰

أحمد أصفهانی ۱۱
 أحمد تکهودری ۳۸۰
 أحمد خان ۵
 أحمد شاه ۲۶۷ — ۲۶۸
 أحمد میرزا ۳، ۳۵۱
 أحمد نکیر ۷۶، ۹۷، ۱۲۵
 ۱۲۶، ۱۴۶، ۱۷۰، ۱۹۵
 ۲۳۱، ۳۱۴
 أخمنی ۳۲۲
 ادا بیور ۱۵، ۳۰، ۲۲۶، ۲۵۵
 إدوارد بنی الانلیز ۳۳۸
 آدم خان ۱۰۵، ۱۰۶
 اراکان ۲۱۸
 أرجند باتو یکیم (انظر : ممتاز محل)
 أرسلان خان ۳۴۴
 رنن ۱۶۸، ۱۶۹، ۲۲۳
 ۲۲۴
 أرقد ۳۳۵
 آسبانا ۱۵۵
 أستاذ مصور ۳۱۶
 أستاذیاد ۳۵۵
 أسفرا ۳۵۵
 اسکندر المقدونی ۴۸
 اسلامپور ۲۱۶
 اسماعیل الصفوی ۹، ۱۰، ۱۲

۳۱۸ ، ۳۱۶ ، ۳۱۴ ، ۳۰۶

۳۲۲

أوربيه ۱۰۲ ، ۱۲۰ ، ۱۲۴ ،

۱۷۴ ، ۲۶۱ ، ۲۷۴

الأوزبك ۴ ، ۶ ، ۱۱ ، ۱۲ ،

۱۵ ، ۲۰ ، ۴۹ ، ۵۲ ، ۸۸ ،

۱۰۹ ، ۱۲۲ ، ۱۲۳ ، ۱۲۴ ،

۱۹۷ ، ۳۴۹ ، ۳۵۴ ، ۳۶۴

أوزون حسن ۳۵۴

أوكلاند ۲۸۵

أوكتاي ۳۴۵ ، ۳۴۶ ، ۳۴۸

الأوفور ۳۳۳ ، ۳۳۵ ، ۳۳۶ ،

۳۲۷

ایران ۳۳۳ ، ۳۴۵ ، ۳۵۱

إيطاليا ۵۹ ، ۱۳۴ ، ۳۰۷

ب

بابر ۱ — ۷۱ ، ۷۳ ، ۸۱ ،

۸۸ ، ۱۰۰ ، ۱۰۲ ، ۱۵۴ ،

۱۶۳ ، ۲۷۰ ، ۳۰۲ ، ۳۰۴ ،

۳۱۱ ، ۳۱۷ ، ۳۲۰ ، ۳۲۸ ،

۳۵۹ ، ۳۵۵ ، ۳۶۵ ،

بابر نامه ۶۵ — ۷۱ ، ۳۲۲

باتوخان ۳۴۶ ، ۳۴۸

الجاتو خدا بنده ۳۴۸

أنغ بك بن أبي سعيد ۳۵۰ ،

أنغ بك بن شاهرخ ۴ ، ۳۵۳ ، ۳۶۴

الله آباد ۴۷ ، ۱۲۶ ، ۱۴۶ ،

۱۷۴ ، ۲۶۸ ، ۲۷۳ ، ۲۷۴

الإياذة ۱۳۲

إلياس بن تغلق نيمور ۲۵۰

أمر تسهر ۲۲۴

أمر سنغ ۱۷۰ ، ۲۵۴

أمر قزوين ۳۲۲

أنجلرا ۱۳۴ ، ۱۸۲

الأندلس ۱۹۳

الأنون ۳۴۲

أنيتا بفرديج ۶۵

أوداي سنغ ۱۱۱ ، ۱۱۲ ، ۱۳۶

أوده ۱۴۶ ، ۱۷۴ ، ۲۶۸ ،

۲۷۴ ، ۲۷۱

أورخون ۳۳۳ ، ۳۳۷

الأوردوية ۱۳۷ ، ۳۰۰ ، ۳۲۳ ،

۳۲۵

أورنكزيب عالمكير ۱۷۴ ، ۱۸۵ ،

۱۹۶ ، ۱۹۹ ، ۲۰۱ ، ۲۰۲ ،

۲۰۳ ، ۲۰۴ ، ۲۰۵ ، ۲۰۶ ،

۲۱۲ — ۲۵۹ ، ۲۵۶ ،

۳۱۶، ۲۷۹، ۲۷۸، ۲۱۹
 برسنغ دیو ۳۸، ۱۶۷، ۱۷۴
 بروج ۱۱۶، ۱۸۳
 برویز بن شاهجهان ۱۷۵
 برهانپور ۲۷۳
 برهما سماج ۲۹۱، ۳۲۶
 بریدون ۲۸۵
 بریطانیا ۲۹
 البریطانیون ۲۶، ۱۵۱، ۱۸۱-
 ۱۸۴، ۲۱۹، ۲۴۸، ۲۷۰
 ۲۷۲، ۲۷۳، ۲۷۵، ۲۸۶
 ۲۸۷، ۲۹۰
 بساوت ۳۱۶
 بسین ۲۸۳
 بشاور ۱۶، ۱۷، ۲۲۰، ۳۰۱
 البطمان ۷، ۱۲۴، ۲۱۹، ۲۳۱
 بغداد ۳۴۸
 بکرماجیت ۱۹، ۲۶، ۲۷، ۹۱
 بکسر ۲۷۴، ۲۸۰، ۲۸۸، ۲۸۹
 بلاجی راو ۲۷۰
 بلاد ماوراءالنهر ۵، ۱۰، ۲۴
 ۵۲، ۵۴، ۹۶، ۱۹۷،
 ۳۱۱، ۳۳۰، ۳۳۴، ۳۳۶
 ۳۴۴، ۳۵۵
 باند دروازه ۱۱۵، ۳۱۲
 بلخ ۱۹۶، ۱۹۷، ۱۹۹، ۳۳۶
 ۳۵۶، ۳۵۸، ۳۵۹

باجی راو ۲۶۳، ۳۴۸
 بارمل عدری ۳۸
 بارنده ۲۰۲
 بارودا ۱۱۷، ۱۱۸
 بازیهادر ۱۰۵، ۱۱۱
 بایزیدانعمانی ۳۵۰
 بایسنقر میرزا ۳
 بنافیا ۱۸۱
 بنجور ۱۶
 البحر الأبيض المتوسط ۳۲۹
 البحر الاحمر ۹۸
 بحر الخزر ۲۶۴
 بحر العرب ۹۷
 بخاری ۴، ۱۱۰، ۱۱۲، ۳۰۹
 ۳۳۴، ۳۵۴، ۳۵۶
 بدائی ۱۳۲، ۱۳۸، ۱۵۶،
 ۱۵۷، ۳۲۰
 بدخشان ۳، ۱۷، ۴۹، ۵۲،
 ۷۴، ۱۱۰، ۱۹۶، ۳۵۶
 ۳۵۸
 بدخشی منعم شاه ۲۵۳
 برار ۹۷، ۳۱۴
 البرامکه ۳۵۶، ۳۵۹
 البرتالیون ۷۶، ۷۷، ۷۸، ۹۷
 ۱۱۷، ۱۱۸، ۱۱۹، ۱۳۴
 ۱۵۴، ۱۸۱، ۱۸۲، ۱۸۴
 ۱۹۰ - ۱۹۴، ۲۱۸

بهارمل ۱۰۸ : ۱۱۴
 بهاکتی ۲۳۰ : ۳۲۶
 بهجفاد جینا ۳۲۲
 بهرام الصفوی ۸۸
 بهزاد ۳۱۵
 البهاسا ۳۲۴
 بهسکوان داس ۱۱۲ : ۱۱۳ ،
 ۱۲۳ : ۱۳۰ ، ۱۴۱
 بهلول لودھی ۱۳
 بهمنی ۲۵
 بهونسیلا ۲۸۳
 بهوبال ۲۶۳
 بهیرہ ۱۶ : ۱۷
 بهیلہ ۳۰
 بیانہ ۳۰ : ۹۲ : ۹۸ : ۳۱۲
 البیت الحرام ۹۸
 بیجاپور ۹۷ : ۱۲۶ : ۱۷۴ ،
 ۱۹۵ : ۲۰۲ : ۲۲۹ : ۲۳۱
 ۲۳۲ : ۲۳۶ : ۲۳۷ : ۲۳۸
 ۲۳۹ : ۳۱۴
 بیدر ۹۷ : ۳۱۵
 بیرم خان ترکمانی ۸۷ : ۹۲ : ۹۴
 ۱۰۲ : ۱۰۵ : ۱۰۷ : ۱۴۴
 بیرمل ۱۲۳ : ۱۳۰
 بیرنر ۲۸۴
 البیرونی (ابو الیمان) ۳۲۶
 بیرنطہ ۳۳۳ : ۳۴۰

لکنا ۳۳۳
 بنویش ۲۸۷
 بنسکین الثانی ۲۳۰
 بنای ۳۱
 بنارس ۴۷ : ۱۱۹ : ۲۱۶
 بنار (غورو) ۲۵۸
 بنال ۴۷ : ۵۸ : ۷۳ : ۷۸ ،
 ۸۳ : ۹۸ : ۹۹ : ۱۱۹ ،
 ۱۲۰ : ۱۴۶ : ۱۶۹ : ۱۷۴ ،
 ۱۹۳ : ۲۰۴ : ۲۱۷ : ۲۵۳ ،
 ۲۶۷ : ۲۷۰ : ۲۸۰ : ۲۹۲
 ۳۰۱
 بند خانہ ۱۱۴ : ۱۹۰
 بورما ۲۹۳
 بوئندہ ۳۴۵
 بونا ۲۳۱ : ۲۳۲ : ۲۳۳ : ۲۶۲ ،
 ۲۸۳
 بوندی ۹۷
 بہادر خان بکراتی ۷۶ : ۷۷
 بہادر شاہ بن اوردسکریب ۲۲۵ ،
 ۲۵۲ — ۲۵۶
 بہادر شاہ الثانی ۲۹۱ — ۲۹۵ ،
 ۲۹۶
 بہار ۴۷ : ۳۶ : ۴۷ : ۷۳ : ۷۸ ،
 ۱۱۹ : ۱۴۶ : ۱۷۵ : ۲۶۱ ،
 ۲۷۰ : ۲۷۵ : ۲۸۴ : ۲۸۸

تاری ۲۴۳
تاریخ اُلی ۳۲۰
تاریخ رشیدی ۶۱
تاریخ فرشته ۱۵۷ . ۳۲۱
التاریخ ۳۳۶
تافرنیة ۲۱۰ . ۳۰۷
تانو ۳۳۳
التتار ۳۳۰ . ۳۳۱
تدرمل ۱۰۸ . ۱۱۷ . ۱۲۱ .
۱۳۰ . ۱۵۰ . ۲۰۰
تراشد ۲۱۶
تردی بکخان ۹۹ . ۱۰۳
التريك والمغول ۳۲۷ . ۳۶۵
الترکستان ۳۳۵ . ۳۳۶ . ۳۴۵
تسن ۳۳۳
تغ بهار ۲۲۴
تکارم ۲۳۰
تسکودزی ۷
تندی داس ۱۵۸
نوجی خان ۴۶
التوکوی ۳۲۳
تولاجی ۲۶۲
توماس زو ۱۸۳
تمهذب الأخلاق ۲۹۹

یکک ۳۳۳
پ (۱)
بادشاهنامه ۳۲۲
باکستان ۲۹۶ ، ۳۰۱ ، ۳۲۵
بانی بت ۲۰ ، ۲۱ ، ۲۶ ، ۴۴
، ۴۸ ، ۵۸ ، ۱۰۰ ، ۲۶۹
، ۲۷۱ ، ۲۷۴ ، ۲۷۶
۳۱۲
بنا ۱۱۹ ، ۲۵۷ ، ۲۷۲ .
۲۷۴
برک خان ۳۴۸
بلای ۲۷۱ ، ۲۷۲ ، ۲۷۳ .
۲۸۰
البنجاب ۲۴ ، ۴۹ ، ۶۹ ،
، ۷۵ ، ۹۱ ، ۹۲ ، ۱۱۰ .
، ۱۲۲ ، ۲۰۵ ، ۲۶۵ ، ۲۶۷ .
۲۶۸ ، ۳۰۱
البنداری ۲۸۴
بندر شیری ۲۸۰
بیر محمد شیروانی ۱۰۱ ، ۱۰۵
فت
تاج محل ۱۶۰ ، ۱۸۹ ، ۲۰۸ .
۳۱۲ ، ۳۱۱

۱ — لا يوجد في هذا البند (ب ۱۲) الباء المثلثة أو الجيم المثلثة أو الكاف المتمازية .

جمالير ٩٧
 جعفر خان ٢٧٢ ، ٢٧٣
 جكال ٢٢٢
 جلال آباد ٢٧١ ، ٢٨٥ .
 ٢٨٦
 جلال الدين حيدر شجاع الملك
 ٢٧١
 جند خان ٧٦
 جوا ٩٧
 جواهر سنغ ٢٧٥
 جون ريبك ٣٤٣
 جوتبور ٩٤ ، ٢٩ ، ٣٦ .
 ٧٩ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ١٠٩ .
 ١٢ ، ٢٩٢ .
 جواهر صاحب تذكرة الواقعات
 ٣٢٠
 جيات آرا ١٩٦ ، ٢٠٦ .
 ٢٠٨
 جياندار ٢٥٦ ، ٢٥٧
 جيا نشاہ ٢٥٦
 جياسكير ١١٤ ، ١٢٢ ، ١٢٦ .
 ١٦٠ ، ١٦٤ - ١٨٤ ، ١٨٦
 ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢١٩
 ٣١٦ ، ٣٢٢
 جهلم ٧٠
 جيحون ١٠ ، ٤٨٠ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣
 ٣٥٥ ، ٣٥٦

تہور خان ٢٢٦
 تيان شان ٣٣٣
 تيو ٢٨١ ، ٢٨٢
 تيموجين ٣٤٢
 تيمور لنگ ١ ، ٣ ، ٤ ، ٥١٠ ، ٥١٠ ، ٥٧ ، ٦٨ ، ١٢٣ ، ٣٠٣ .
 ٣٢٨ ، ٣٣٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٦

ث

الثورة الوطنية ٢٩٢ ، ٢٩٧

ج

الجات ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٥٢
 جالندر ١٠١
 جامرود ٢٢٠
 جامو ٢٤٥
 جاود ١٢١
 جاي مل ١١١
 جايور ١٠٨ ، ١١٤ ، ٢٥٥
 ججهار سنغ ١٩٠
 جداسبور ٢٥٨
 جدهبور ٧٨ ، ٩٧ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥
 ٢٥٥
 جرانت صاحب ١٦٨
 جرجان ٣٤٠
 جزر الهند الشرقية ١٨١

حسین یقرا ۵ ، ۶ ، ۶۸ ، ۳۶۴

حسین علی خان ۲۵۹

حصار (الصاغانیان) ۶ ، ۱۱ ،

۳۵۶ ، ۵۲

حصن اللودهیین ۵۸

حکیم خان (انظر : میرزا حکیم)

حککات ۳۰۶

حمید خان ۷۱

حمیده بانو ۸۷ ، ۱۰۳

حیدرآباد ۲۳۹ ، ۲۵۳ ، ۲۵۹ ،

۲۶۱ ، ۲۷۹ ، ۲۸۱

حیدر علی ۲۸۰

خ

خاقی خان ۳۲۲

خان جهان ۱۲۰

خان جهان لودهی ۱۹۰

خاندش ۹۷ ، ۱۲۶ ، ۱۵۶

خاتزاده بیکیم ۱۰

خاتزمان ۱۰۲

خانوده ۳۰ ، ۳۵ ، ۴۴ ،

۴۸

الخل ۳ ، ۳۵۶

ختن (خطان) ۵۳ ، ۳۲۶

خچند ۳۵۷

خدانجش ۳۰۰

جینآب ۱۶

جینوت ۱۶

چ

چار باغ ۵۸ ، ۳۱۷

چتور ۵۶ ، ۷۷ ، ۱۱۱ ، ۱۱۳ ،

۲۲۵ ، ۱۳۰

چفتای ۸۰۲ ، ۳۴۶ ، ۳۴۷ ،

۳۵۰ ، ۳۴۸

چکیر ۸۹

چبیر ۷۷

چتار ۴۷ ، ۱۰۶ ، ۲۷۴

چندری ۳۰ ، ۴۸ ، ۱۱۷ ،

چنکیز خان ۲ ، ۱۲۲ ، ۳۲۸ ،

۳۳۰ ، ۳۳۱ ، ۳۳۸ ،

۳۴۱ ، ۳۴۲ ، ۳۴۳ ،

۳۴۵

چنکیز نامه ۳۱۶

چوسا ۸۰

ح

حبیب السیر ۶۹

الحجاز ۸۹ ، ۹۸

حسن خان موآنی ۳۱ ، ۳۸ ، ۴۳

الذاتوب ۳۳۴
 دانیل بن اُسَکبر ۱۲۶ ، ۱۶۰ ،
 ۱۸۵
 دواد بن سلیمان ۱۱۹
 داوریخس ۱۸۵ ، ۱۸۶
 درغا داس ۲۲۶
 دستور اَمَل ۱۶۵
 دسوت ۳۱۶
 دکا ۱۲۸ ، ۳۱۱
 الدکن ۹۶ ، ۹۷ ، ۱۲۵
 ۱۷۰ ، ۱۷۱ ، ۱۷۴ ، ۱۸۷
 ۱۸۹ ، ۱۹۴ ، ۱۹۹ ، ۲۱۷
 ۲۲۹ ، ۲۷۹
 دلچنک عبد الصمد ۲۵۸
 دلکشا ۱۸۶
 الدواب ۳۴ ، ۳۵ ، ۱۲۶ ، ۲۶۷
 ۲۷۷
 دوبلیسکس ۲۷۹ ، ۲۸۰
 دوست محمد شاه ۲۸۴ ، ۲۸۵
 ۲۸۶
 دولت آباد ۲۴۴
 دولت راو ۲۸۳
 دولتخات لودھی ۱۵ ، ۱۸
 ۱۹ ، ۲۰
 دهرمت ۲۰۴
 دهلپور ۳۰ ، ۳۱۲

خراسان ۵ ، ۶ ، ۷ ، ۱۰ ، ۱۵
 ۷۰ ، ۲۶۴ ، ۳۱۱ ، ۳۵۴
 خرید ۳۶ ، ۴۷ ، ۱۰۲
 خسرو بن جهانگیر ۱۶۱ ، ۱۶۴ ،
 ۱۶۷ ، ۱۶۸ ، ۱۶۹ ، ۱۸۵
 ۱۸۷ ، ۲۲۳
 خضر خان ۱۰۰
 خضر خیل ۱۷
 خلاصۃ التواریخ ۳۲۲
 خلجیون ۷ ، ۱۲۲
 خلجی العربی ۹۷
 خنجان ۳۴۲
 حواجه شاه منصور ۱۲۲
 حواجه ملک اعتماد خان ۱۰۸
 خوارزم ۳۴۱ ، ۳۴۴ ، ۳۴۵
 ۳۴۶ ، ۳۵۰ ، ۳۵۶
 خواند امیر ۶۹
 خوشآب ۱۶
 خوشحال ۲۲
 حیر آباد ۲۹

د

دارا شکوه ۱۴۲ ، ۱۷۴ ، ۱۸۵
 ۱۹۶ ، ۲۰۲ ، ۲۰۳ ، ۲۰۴
 ۲۰۶ ، ۲۰۷ ، ۲۱۳ ، ۲۱۴
 ۳۲۲

١١٢ ، ٧٣ ، ٥٦
 رانا موار ٧٦ ، ١٧٦ ، ١٨٦
 راني دروكاوتي ١٠٩
 راول اوداي سنك ٣٨
 راي براناب ١١٢
 راي سنغ ٢٣٣
 راي سورجانا ١١٣
 رفيع الدرجات ٢٦٠
 رفيع الثان ٢٥٦
 رنجيت سنغ ٢٨٥
 رتنپور ١١٣ ، ٣٠
 روبيرس ٢٨٦
 الروسيا ٩٣ ، ٣٨٤ ، ٣٤٥
 روما ٣٣٨
 الروهلا ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ،
 ٢٧٦

ز

زبان اوردو ٣٢٤
 زبده التواريخ ٣٢٢
 الزراد شتية ٣٣٩
 زين خان ١٢٣
 زين الخوافي ٢٣

س

السامازون ٣٣٥ ، ٣٥٩

دهلي ٣٦ ، ٣٢ ، ٩١ ، ٩٢ ،
 ١٠١ ، ١٤٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٦
 ٢٧٧ ، ٢٩٢
 دهلي الجديدة ٢١١ ، ٣١٣
 ديبالپور ١٨
 دين إلهي (انظر المذهب الإلهي)

ذ

ذو القنار خان ٢٥٧

ر

الرابضة الإسلامية ٣٠١
 راجا جسونت ٢٢٠ ، ٢٢١ ،
 ٢٢٢٥
 راجا محل ١٢٠
 الراجپوتون ٣٥ ، ٢٢٩ ، ٢٥٣ ،
 ٢٥٤ ، ٢٧٧ ، ٢٨٣ ، ٢٩٣
 راجكره ٢٤١
 راز نامه ٣١٦
 رام داس ٢٢٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
 ٢٤٢
 رام موهان ٢٩ ، ٣٢٦
 الراماينا ١٣١ ، ٣١٦
 رانا سنكا ١٤ ، ٧٥ ، ٣٠ ،
 ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٤

سليم الاول العثماني ۵۱	سبکتکین ۲۹۷
سليم بن أكبر (انظار جهانگیر)	ستروی کجی ۳۸
سليم جشی ۱۱۵	السنامیون ۲۲۲ . ۲۲۳
سليم شاه سور ۸۹ ، ۹۰	سخن رای ختری ۳۲۲
سليمان بن دارا شکوه ۲۰۵	سراج الدولة ۲۷۲
سليمان خان کرانی ۱۱۹	سرساوه ۲۱
سليمان شاه ۱۱۰	سرنديب ۲۱۸ . ۲۸۲
سليمان القانوني ۱۱۷	سر نفايم ۲۸۱
سمرقند ۲ ، ۳ ، ۴ ، ۱۰ ، ۱۱	سر نكبور ۳۰
۱۲ ، ۵۱ ، ۶۸ ، ۷۰ ،	سر هند ۲۵۵ . ۲۵۸
۳۰۹ ، ۳۴۴ ، ۳۵۰ ، ۳۵۱	سعد آباد ۲۲۲
۳۵۳ ، ۳۵۴ ، ۳۵۶	سفينة الأولياء ۳۲۲
سمركند ۲۰۵	السك ۱۶۸ . ۱۶۹ . ۲۱۵
سنهیل ۵۸ ، ۲۶۳	۲۲۲ . ۲۴۲ . ۲۵۳ . ۲۵۴
سنجر السلجوق ۳۳۶	۲۵۸ . ۲۶۶ . ۲۷۵ . ۲۸۵
سنگمشوار ۲۴۱	۲۸۷ ، ۲۹۴
السند ۸۳ ، ۸۶ ، ۸۹ ، ۹۱ ،	سکری ۳۱ . ۱۱۴ ، ۱۱۷ .
۹۵ ، ۹۷ ، ۱۲۴ ، ۲۰۴ ،	۱۶۰ ، ۳۱۱
۳۰۱	سکندر شاه بیجاپوری ۲۳۸
سندیا ۲۷۰ ، ۲۸۲ ، ۲۸۳	سکندر شاه سور ۹۱ . ۹۲ ،
سنغ (غورو) ۲۲۴	۹۶ ، ۹۸ ، ۱۰۰ ، ۱۰۱
سنول ۳۱۶	سکندر لودھی ۱۳ . ۱۴ . ۲۵۱
سوزات ۱۱۶ ، ۱۱۷ ، ۱۸۱ ،	اللاحقة ۳۵۹
۱۸۳ ، ۲۳۲ ، ۲۳۵ ،	سلسلة العدل ۱۶۵
۲۴۸ ، ۲۴۸	سلطان بن اورنگزیب ۲۴۳
سورج من ۲۷۵	سلطانہ خانیم ۸۸

شاهجي ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٣١ .

٢٣٨ ، ٢٣٣

شاهج ٣٥١ ، ٥٣

شاهو ٢٥٦

شايتہ خان ٢١٨ ، ٢١٩ .

٢٤٩ ، ٢٣٢

شجاع بن شهبان ٢٠٣ ، ٢٠٤

شجاع الدولة ٢٧٣ ، ٢٧٦

شجاع الملك ٢٨٥ ، ٢٨٦

شجاعت خان ٩١ ، ٢٢١

شركة الهند البريانية ٢٧١ ، ٢٨٠

٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٤

٢٩٥

شركة الهند الفرنسية ٢٧٩

شهبوحي ٢٢٨ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ .

٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠

شمار غوندا ٢٢١

شمس الدين محمد غزنوي اتمكه ٨١ .

١٠٧

شهاب الدين احمد خان ١١٧

شهاب الدين محمد النوري ١٣ ، ٢٣

٢٤ ، ٤٥ ، ٢٥

شهريار ١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٨٨

شهباده خرم (انظر : شاهجهان)

شيباني خان الأوزبك ٤ ، ٨ ، ٩ .

١٠ ، ٥٢ ، ٣٥٧

سوز داس ١٥٨

سومناث ٢١٦ ، ٢٩٧

سبيريا ٣٣٣

اليت ٣٣٠ ، ٣٤٨

سيجون ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٥٥ .

٣٥٧

سيد علي تبريزي ٣١٥ ، ٣١٦

سيد مهدي خواجه ٥٠

سيليزيا ٣٤٥

سيواك ١٠١

ش

الشامانية ٣٣٩ ، ٣٤٨

شاه بك أرغون ١٧

شاه بكخان ١٧٢

شاه شجاع ١٨٥ ، ٢٠٧

شاه علم ٢٧٢ — ٢٨٩ ، ٢٩٤

شاهجهان ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ .

١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨٥ —

٢١٢ ، ١٢٩ ، ٢٢٩ ، ٢٣١

٢٤٨ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٨

٣٢٢ ، ٣٢٣

شاهجهان الثاني ٣٦٠

شاهجهان ناآباد ٣١٣

شاهجهان تامه ٣٢٢

خضر نامه ٣١٦

ظهیر الدین محمد بابر (انظر : بابر)

ع

عادل شاه سور (انظر محمد عادل)

عالمکیر ٢٠٥

عالمکیر الثاني ٢٦٨ ، ٢٦٩

عالمکیر نامه ٣٢٢

عباد تخانه ١٢٩ ، ١٣٥

عباس الصفوی ١٢٤ ، ١٧٢

عباس الصفوی الثاني ١٩٨

عبد الرحیم خانخانان ١١٨ ، ١٢٥

١٦٧ ، ٣٢٢

عبد الرحیم دیوان لاهور ١٦٨

عبد الصمد (نقاش) ٣١٥ ، ٣١٦

عبدانقادربن ملوکشاه (انظر : بداونی)

عبد اللطیف میرزا ٣٥٣

عبدالله خان أوزبك ١٠٩ ، ١٢٣

٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠

عبد الله قطب شاهی ٢٠١

عبد الله کتابدار ٦٩ ، ٣٢٠

عبد الله میر جله معتمد الملك ٢٥٧

عبد النبي (صدر الصدور) ١٥٦

عثمان بن عفان ٤

عثمان أفغان ١٧٠

العثمانیون ٩٧ ، ١١٩ ، ١٢٤ ،

١٥٤ ، ٣٣٨

شیتا جونج ٢١٨

شیر أفکن ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٧

شیر شاه ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩

٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠

٩٦ ، ١٤٦ ، ١٥٣ ، ١٦٣

شیر شاه الثاني ١٠٢ ، ١٠٦

شیطانپور ١٤٠

شیعة ٢٢٨ ، ٢٣٧

شیواجی ٢٢٨ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ ،

٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠

ص

صافغانیان ٣ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧

الصغد ٣٤٠ ، ٣٥٦

صلاح الدین أمير بهيلسه ٣٨

سفدار جنك ٢٦٧ ، ٢٦٨

نصفوریون ١٥

نصین ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ،

٣٣٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٥١

ظ

طبقات اکبری ٣٢١

طشقند ٣ ، ٥

طهاسب ٤٩ ، ٨٧ ، ٨٨

ظ

نذر خان ١٢٠

عمل صالح ٣٢٢	العراق ٣٥٤ ، ٣٥١
عناية الله ١٥٧	عرش الطاووس ٢١١
عناية الله ٣٢٢	عزيز ككا ١١٧ ، ١٦٠ ، ١٦٤
عين جالوت ٣٤٥	١٦٧
غ	عسكري بن بابر ٤٧ ، ٤٨ ، ٧٨
غازي خان لودهي ١٩ ، ٦٩	٨٩
غازيپور ٢٩	عسير ١٢٦
غازي الدين نظام الملك (انظر نظام الملك)	عظيم الشان ٢٥٦ ، ٢٥٧
غاندي ٣٠١	علاء الدين الحلبي ١٣ ، ٧٦ ،
غجديوان ١١	١٥٣ ، ١٢٥
الغز ٣٣٥ ، ٣٣٦	علاء الدين علم خان ١٣ ، ١٩
الغزنويون ٣٥٩	على أكبر جامي ٨٧
غزنه ٥٢ ، ٦٤ ، ١٢٤ ، ٣٥٤	على جوهر ٢٧١
الغزو الأفغاني ٢٦٧ — ٢٧٠	على خان ٢٥٧ ، ٢٥٩
الغزو الفارسي ٢٦٤ — ٢٦٧	على شير نوائي ٦٩
غلام قادر ٢٧٧ ، ٢٨٩	على قاسم ٢٧٣ ، ٢٧٤
غور ٧٩	عليقلي (استاذ مدفع) ٤١
الغوركها ٢٨٧ ، ٢٩٤	عليقلي استاجلو (انظر : شيرافكن)
غولكونده ٩٧ ، ١٢٦ ، ١٨١ ،	عليقلي خان زمان ٩٩ ، ١٠٦ ، ١٠٧
١٨٣ ، ١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٢٩	١٠٩
٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠	على مردان ١٩٧ ، ١٩٨
٣١٤	على ميرزا ٤
غوندوانا ١٠٩	على تقى ٢٠٦
غياث الدين تغلق ١٣	عليسكر ٣٠٠ ، ٣٠١
	عمر شيخ ميرزا ١ ، ٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥

ف

فارس ٤ ، ١١ ، ١٢ ، ٢٤ ،

٢٩٣

الفنای الهندية (المالكيرية) ٢٤٨

٣٢٣

فجور سکری (اظھر سکری)

فتح (بتا) سنغ ١١١

فتح علی شاه ٢١٢

فدای خان ٢٢

فرخ سیر ٢٥٧ — ٢٥٩

فرغانة ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٥١

٣٥٧ ، ٣٥٥ ، ٣١٧ ، ١٥٤

فرمول ١٣

فرنسا والفرنسيون ١٣٤ ، ١٨١ ،

٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٣٠٧

خلدین ٣٤٩ ، ٣٤٥

فینکوفتش ٢٨٤

فیروز تعلق ١٧١

فیروز شاه سور ٩١

فیض بن المبارك ١٢٨ ، ١٥٧ ،

٣١٩ ، ٣٢١

فیلیب ملک فرنسا ٣٣٨

ف

القولجا ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٩ ،

٣٤١

فیاپانکر ٢٥ ، ٩٧ ، ١٨١ ، ٣١٤

فیکتوریا ٢٧

فینا ٣٣٨ ، ٣٤٥

ق

قاسم خان ١٩٢

قالقوٹ ١٨٣

قبا ٣

القبحاق ٣٣٥ ، ٣٤٤

القيلة الذهبية ٣٤٨

قتلق خان ٣٤٢

قتلق نکار خانیم ١

قُم بن عباس ٤

قراقورم ٣٤٥

قرشی ١١ ، ١٢

القرغیز ٣٣٣ ، ٣٣٥

الفرلق ٣٣٣

القره خانیون ٣٣٥

القره ختای ٣٣٦

القرلباش ١١ ، ٥٥ ، ٨٨

قزوين ٨٧

قطب جلیسری ١٣٤

قطب الدین بنگالی ١٧٧

القلعة الحمراء ٢١١

قلندر ٥٦

قندهار ٨ ، ٩ ، ١٧ ، ٨٧ ، ٨٨

٨٩ ، ١٢٤ ، ١٧٢ ، ١٧٣

١٨٧ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٨٦

کاکتا ۱۸۳ ، ۲۱۹ ، ۲۴۹ ،

۲۷۹ ، ۲۷۲

کلنجر ۸۴ ، ۱۱۳

کلبای ۷۷ ، ۱۱۶ ، ۱۱۷ ،

۱۸۳ ، ۱۵۵ ، ۱۱۸

کنجرا ۱۷۱

کنسکان ۲۳۲ ، ۲۳۵ ، ۲۳۷

کورنوالیس ۲۸۱ ، ۲۸۹

کورومانڈل ۱۸۳ ، ۲۸۱

کوریا ۳۴۵

کوش بهار ۲۱۷

کوفند سنغ ۲۵۵

کوهینور ۲۶

کیتانیا ۱۴۲

کین ۳۴۲ ، ۳۴۴

گک

الکجرات ۲۴ ، ۳۰ ، ۳۷ ، ۷۳

۷۶ ، ۸۷ ، ۹۷ ، ۱۰۴ ، ۱۱۶

۱۱۸ ، ۲۶۷ ، ۲۸۲

ککر ۴۸

کلبدن ۳۲۰

کلیانی ۲۲۰

الکنج ۵۴ ، ۸۱ ، ۹۱ ، ۹۵ ،

۳۵۱

کوالیار ۲۹ ، ۳۵ ، ۴۸ ، ۵۸ ،

قنوج ۲۹ ، ۴۵ ، ۴۶ ، ۷۹ ،

۲۶۷ ، ۸۱

القوناز ۳۴

ک

کابل ۵ ، ۶ ، ۸ ، ۴۹ ، ۵۰ ،

۵۲ ، ۸۹ ، ۹۶ ، ۱۱۰ ،

۱۲۲ ، ۱۲۳ ، ۱۲۴ ، ۱۴۶

۲۲۰ ، ۲۸۵ ، ۲۸۶ ، ۳۱۱

۳۱۷ ، ۳۵۴

کالپی ۲۹ ، ۳۰ ، ۹۹

کام بخش ۲۴۳ ، ۲۴۴ ، ۲۵۳ ،

۲۵۴ ، ۲۵۵

کامران ۱۷ ، ۷۵ ، ۸۱ ، ۸۸ ،

۸۹ ، ۹۰

کامکر ۳۲۲

کاندوه ۳۳۳ ، ۳۴۴

کبیر ۱۴۲

کراجی ۳۰۱

کرشنا (نهر) ۲۷۹

کرشنا دیوا ۲۵

کرناٹا ۲۸۰

کربواین ۳۴۲

کش ۳۵۸ ، ۳۵۶

کشمیر ۹۷ ، ۱۵۵ ، ۲۰۴

کلانور ۹۴

کلايف ۲۷۳

مانسنگ ۵۷
 مانسنگ ۱۰۱
 مام آنکھ ۱۰۴ ، ۱۰۷
 مانیکیور ۱۱۰
 مبارز خان سور ۹۱
 مبارک خان لوحانی ۱۰۴
 مبارک نا کوری ۱۲۸
 مہرہ ۲۱۶
 الحجر ۳۴۴
 مجمع البحرين ۳۲۲
 المحسودی ۲۸۶
 محمد إقبال ۳۰۰ ، ۳۰۱ ، ۳۰۴
 محمد بن اُورنگزیب ۲۰۱
 محمد بخت خان ۲۹۴
 محمد حیدر دوغلات ۶۹
 محمد شاه ۲۶۰ — ۲۶۷
 محمد صالح ۳۲۲
 محمد عادل شاه شور ۹۱ ، ۹۶
 ۹۷ ، ۱۰۲ ، ۲۰۲
 محمد عبد الباقي ۱۵۷ ، ۳۲۱
 محمد علی ۳۲۰
 محمد علی جنہ ۳۰۱
 محمد النوری (اظہر : شہاب الدین
 النوری)
 محمد قاسم ہندوشاہ ۱۵۷
 محمد قلی خان ۳۷۲
 محمد کاظم ۳۲۲

۳۱۲ ، ۲۰۵ ، ۹۲
 کاپرک ۲۰۲

ل

لاہور ۱۶ ، ۱۸ ، ۴۹ ، ۸۱ ،
 ۹۲ ، ۱۰۱ ، ۱۱۰ ، ۱۲۱ ،
 ۱۴۶ ، ۱۵۵ ، ۱۶۸ ، ۱۸۵
 ۲۲۰ ، ۲۵۵ ، ۲۵۸ ، ۳۱۱
 لکھنؤ (لکنو) ۴۶ ، ۷۶ ،
 ۲۷۴
 لوحانی ۱۳
 الاودھیون ۱۳
 لورنس ۲۹۴
 لوئس الخامس عشر ۲۸۰

م

مآثر رحیمی ۱۵۷ ، ۳۲۱
 مآثر عالمگیری ۳۲۲
 ماتھو ۲۲۲
 مادانا ۲۳۹
 مادھوجی سندیا ۲۷۷
 المائق ۳۴۷
 مالوہ (ماندو) ۲۵ ، ۳۰ ، ۳۷ ،
 ۷۶ ، ۷۷ ، ۷۸ ، ۱۰۳ ،
 ۱۰۵ ، ۱۱۱ ، ۱۱۷ ، ۱۴۶ ،
 ۱۹۰ ، ۲۴۳ ، ۲۶۳ ، ۲۶۷

٢٩٠
 منار شاه ٤
 مسجد الاؤلؤ ٢١١
 مسجد نواب يكييم ٢١٦
 المسيح ١٣٤
 مصر والمصريون ٢٨٢ ، ٣٢٣
 ٣٤٥ ، ٣٤٦
 مصطفى الروى ٤٠
 مظفر خان تربق ١٢٠
 مظفر شاه الثانى ١١٦ ، ١١٨
 المعتصم العباسى ٣٤٠
 معروف فيرمولى ٢٩
 معظم ٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧
 المغول والترك ٣٢٨ — ٣٦٤ ،
 مفولستان ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠
 مقرب خان ٢٤١
 مكة المكرمة ٨٩
 مل ديو ٨٧
 الملبار ١٥٥ ، ٢٦٢
 الملتان ٨٣ ، ٩٧ ، ١٢٤ ، ١٤٦
 ملك جيون ٢٠٦
 ملك عتير ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٨٧ ،
 ٢٣١
 ملوت ٢١
 ممتاز محل ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٩٢ ،

محمد هاشم خان ٣٢٢
 محمود تيمور
 محمود خان طشة: ٢ ، ٥
 محمود خان لودمى ٣١ ، ٣٨ ، ٤٧ ،
 ٧٣
 محمود الخلجي ٧٦
 محمود الغزنوى ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٨ ،
 ٤٥ ، ١١٦ ، ١٧١ ، ٢٥٠
 ٢٩٧ ، ٣٢٤
 محمود ميرزا ٣ ، ٦٧ ، ٨٧
 المحيط الهندى ٩٧
 مدراس ١٨٣ ، ٢٧٩
 المذهب الإلهي ١٢٨ — ١٤٣
 مراد بن أكبر ١١٨ ، ١٢٢ ،
 ١٢٥ ، ١٦٠
 مراد بخش ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ،
 مراد خان ٨٨
 مرشد قلى خان ٣٠٠ ، ٢٦١
 مرو ٨
 المرتها ١٧٠ ، ٢١٥ ، ٢٢١ ،
 ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠
 ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢
 ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢
 ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٤ —
 ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٢

میران بہادر ۱۲۶
 میران خان ۲۷۲
 میرانشاہ بن تیمور ۳۵۱
 میرزا حکم ۹۶، ۱۰۹، ۱۲۱
 ۱۲۲، ۱۲۳، ۱۵۵
 میرزا منول ۲۹۴
 میسور ۲۸۰
 ن
 نالیون بونا برت ۲۸۱
 ناجیور ۲۸۲
 نادر شاہ ۲۱۲، ۲۶۴ — ۲۶۷
 ۲۸۷
 نانک ۱۴۲، ۲۲۳، ۳۲۴
 نانا ۲۹۳
 نجیب الدولہ ۲۶۸، ۲۶۹، ۲۷۴
 ۲۷۹، ۲۷۷، ۲۸۱، ۲۹۴
 نرید ۱۰۶، ۱۲۴، ۲۶۲، ۲۶۳
 نصرت شاہ ۲۵، ۴۷
 نصیر لوحانی ۲۹
 نظام (السقاء) ۸۰
 نظام شاہی ۱۷۰، ۲۳۱
 نظام الدین احمد ۱۵۷، ۳۲۱
 نظام الملک (نظام حیدر آباد) ۲۵۹
 ۲۶۰، ۲۶۱، ۲۶۲، ۲۶۳
 ۲۶۵، ۲۶۸، ۲۷۱، ۲۷۴
 ۲۷۵، ۲۸۰، ۲۸۱، ۲۹۴

۲۰۲، ۲۰۸، ۲۱۱
 من سنغ ۱۱۲، ۱۱۳، ۱۲۲
 ۱۲۳، ۱۳۰، ۱۴۱، ۱۶۰
 ۱۶۴، ۱۶۷، ۱۶۸
 منتخب التواریخ ۱۵۶، ۳۲۰
 منتخب الالباب ۳۲۲
 مندلسو ۲۱۰، ۳۱۳
 مندی ہارہ ۳۸
 منعم خان ۱۱۹
 منم وا ۳۴۲
 متفکوتات ۳۴۲
 منقولیا ۳۳۶
 منیر مرغینانی ۱
 موار ۲۵، ۳۰، ۴۶، ۹۷
 ۱۱۳، ۱۴۶، ۱۸۷، ۲۲۹
 موسکو ۳۵۱
 مہابت خان ۱۷۴، ۱۷۵، ۱۹۰
 ۱۶۴
 المہابھارتا ۱۳۲، ۱۳۶، ۳۱۶
 مہارشترا ۲۳۰
 میان نانس ۳۱۹
 میدنی راو ۴۵
 میر جملہ (محمد سید) ۲۰۱، ۲۰۲
 ۲۱۷، ۲۱۸
 میر سید علی (نقاش) ۱۵۸

— ٣٩٢ —

٣٢٠ ، ٣١٨ ، ٣١٥ ، ٣١٢

هابو نامه ٣٢٠

همت بهادر ٢٧٧

الهملایا ٤٨ ، ١٢٤ ، ٣٢٩

هندال ٨٩

الهندستان ٥٩ — ٦٤ ، ٩٦ ،

٣٤٩ ، ٢١٧

هوجلې ١٩٣ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩

هولاكو ٣٤٨

هولكر ٢٦٧

الهولنديون ١٨١ ، ١٩٢ ، ٢٧٣

٢٨٢

هوميروس ١٣٢

هونج نو (الهون) : ٣٣٣ ، ٣٣٤

٣٥٨

هيمو (هيمون) ٩١ ، ٩٦ ، ٩٨

٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣

٢٧٠

ی

الياسا ٣٤٦ ، ٣٦٣

الياقوت ٣٣٣

يرقند ٣٤٩

اليسوعيون ١٣٤

اليوبانيشاد ٢٠٣ ، ٣٢٢

يوجا ما شيت ٣٢٢

يوسفزاي ١

يئي سي ٣٣٣

لنوبهار ٣٥٦

نور افشان ٥٠

نور الحق ٣٢٢

نور جهان ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤

١٧٥ ، ١٧٦ — ١٨٠

١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨

١٩٧

نيبال ٢٨٧ ، ٣١٤

النيروز (نوروز) ٢١٤

نيه تو ٩

نيكوسير ٢٦٠

نيلا ب ١٦

و

الوزيرى ١٧ ، ١٨٦

ولسلى ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٩١

وليم هوكنز ١٨٢

ه

هار غوند ٢٢٤

هسنگ ٢٨٢ ، ٢٩٠

هرات ١٠ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٨٧ ، ٣٥٤

هرم ديوا ٨٣

الخرزا ٧ ، ٢١٩

هنايون ٩ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٢٦ ،

٢٩ ، ٤٠ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦٩

٧٢ — ٩٣ ، ١١٦ ، ١٦٣